القصص القرآني

آية الله السيد محمد باقر الحكيم

مؤسسة تراث آية الله الشهيد السيد محمد باقر الحكيم

بسم الله الرحمن الرحيم

القصص القرآني

بحث

آية الله السيد محمد باقر الحكيم

اسم الكتاب: القصص القرآني

المؤلف: آية الله الشهيد السيد محمد باقر الحكيم قدس سره

الناشر: مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

و بالتعاون مع المركز العالمي للدراسات الإسلامية

الطبعة الاولى: ١٤١٩ هـ ق

الطبعة الثانية: ١٤٢٥ هـ ق

المطبعة: ليلى

الكمية: ٥٠٠٠

شابك: ٩٦٤-٨٦٨٦-١٣-٠ ISBN: 964-8686-13-0

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

www.ahl-ul-bayt.org

أهل البيت عليهم السلام

في القرآن الكريم

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ
لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ
وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا

سورة الأحزاب / آية : ٣٣

أهل البيت عليهم السلام
في السنة النبوية

إني تارك فيكم الثقلين
كتاب الله وعترتي أهل بيتي
ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدا

« الصحاح والمسانيد »

كلمة المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أقرب الناس من درجة النبوّة أهل العلم والجهاد»

وعن أميرالمؤمنين علي عليه السلام: «العلماء باقون ما بقي الدهر... أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة الى دينه، آه آه شوقاً الى رؤيتهم» «نهج البلاغة ـ حكمت ١٣٩»

«سلام الله ورسوله وصلواتهما على الأرواح الطيّبة للشهداء، واخصّ بالذكر الشهداء الأعزّاء الرّوحانيين والحوزات العلمية... السلام على الخالدين من رجال الدين المثيرين الحماس في الآخرين، الذين دوّنوا رسائلهم العلمية والعملية بدماء شهادتهم ومداد دمائهم، والذين صنعوا من شموع حياتهم جواهر مضيئة على منابر الخطابة للناس لهدايتهم ووعظهم.

الفخر والخلود لشهداء الحوزة والرّوحانيين الذين قطعوا عن أنفسهم حبال علاقاتهم ببحوثهم ودروسهم ومدارسهم في معمعة الجهاد، وفكّوا عقال تمنّياتهم الدنيوية عن حقائق علومهم، وخفّوا لضيافة الملائكة حاملي عرش ربّهم، وأنشدوا نشيد الحضور في مجامع الملكوتيين.

السلام على أولئك الذين تقدموا نحو كشف حقيقة التفقّه في الدين، وأصبحوا لأقوامهم من المنذرين الصادقين، بحيث أصبحت قطرات دمائهم وقطع أجسامهم تشهد بصدق كلّ جزء من أحاديثهم. وحقّاً لا يُنتظر من رجال الدين الحقيقيّين في الإسلام والتشيع إلّا أن يكونوا في دعوتهم الناس الى الحقّ وطريق ذات الشوكة هم يقدّمون الضحايا الأوائل، وأن يكون ختام دفاترهم بدمائهم.

إنّ الذين أدركوا حلقات الذكر للعرفاء العلماء الحوزويين، لم يسمعوا منهم في خلسات شهودهم أي أمل سوى الشهادة، وهم بدورهم في ضيافاتهم بمحضر التقرّب والخلوص لم يكونوا يطلبون من عطايا الحقّ سبحانه وتعالىٰ سوى عطية الشهادة».

من رسالة الإمام الخميني قدس سره الى الحوزات العلمية

في شهر اسفند عام ١٣٦٧ هـ.ش

تشع بالنور من خلال ما قدمه من عطاء...

وما أجمل ما قاله القائد آية الله العظمى السيد الخامنئي (دام ظله): «كان هذا الشهيد العزيز عالماً ومجاهداً تحدّى نظام صدّام الخبيث سنين طويلة وبعد أن سقط رمز الشرّ والفساد وقف سدّاً قوياً بوجه المحتلّين الأمريكيين والانجليز ليبدأ جهاده في مقاومة المخططات المشؤومة مستعدّاً للشهادة في طريق الجهاد الطويل والالتحاق بقوافل الشهداء من آل الحكيم وغيرهم من شهداء العلم والفضيلة في العراق».

يقوم المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام بعقد المؤتمر التكريمي بمناسبة ذكرى استشهاد العالم الفذّ المجاهد شهيد المحراب آية الله السيد محمدباقر الحكيم وبالتعاون مع المؤسسات ذات الاهتمام؛ وذلك بتاريخ الثامن عشر من رجب الأصب (١٤٢٥ هـ) في العاصمة طهران، وسيحضر بهذه المناسبة جمع من علماء العالم الإسلامي لإلقاء كلمات التكريم لهذا الشهيد الكبير.

وتفيد اللجنة الثقافية للمؤتمر التكريمي لآية الله الشهيد السيد محمدباقر الحكيم من هذه الفرصة لتشير الى نشاطها الذي ينقسم الى قسمين:

القسم الأوّل: إعادة طبع مجموعة من آثار ومؤلفات الشهيد وهي كالآتي:

١ ـ إعادة طبع كتاب دور أهل البيت عليهم السلام في بناء الجماعة الصالحة المجلدين الأوّل والثاني.

٢ ـ إعادة طبع كتاب الوحدة الإسلامية من منظور الثقلين.

٣ ـ إعادة طبع كتاب علوم القرآن بالتعاون مع مجمع الفكر الإسلامي.

٤ ـ إعادة طبع كتاب تفسير سورة الحمد بالتعاون مع مجمع الفكر الإسلامي.

٥ ـ إعادة طبع كتاب القصص القرآني بالتعاون مع المركز العالمي للدراسات الإسلامية.

٦ ـ إعادة طبع كتاب الأخوّة الإيمانية بالتعاون مع مؤسسة دار الغدير.

٧ ـ إعادة طبع كتاب ثورة الحسين عليه السلام بالتعاون مع مؤسسة الإمام الحسين عليه السلام.

القسم الثاني: اعداد وتوزيع الأقراص المضغوطة التي تشتمل على كتبه التي ستطبع لأوّل مرّة بمناسبة إقامة المؤتمر التكريمي.

١ ـ طبع حياة وسيرة آية الله الشهيد السيد محمد باقر الحكيم من قبل مجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية.

٢ ـ طبع كتاب الأربعة عشر مناهج ورؤى من قبل مؤسسة طبع آثار الشهيد آية الله الحكيم وبالتعاون مع المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام.

٣ ـ طبع كتاب شهداء العلم والفضيلة في العراق من قبل المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام الذي يشتمل على سيرة وحياة مئة وعشرين شهيداً من علماء العراق باللغتين العربية والفارسية.

٤ ـ اعداد وتوزيع الأقراص المضغوطة التي تحتوي على المجموعة الكاملة لآثار الشهيد الحكيم

في الختام أجد من واجبي أن أُقدّم فائق شكري وتقديري الى كل الدوائر الثقافية والتنفيذية التي مدّت يد العون من أجل اقامة هذا المؤتمر والى كل ممثليهم المحترمين الذين شاركوا في الجلسات والاجتماعات التحضيرية.

أسأل الله العليّ القدير أن يوفّق جميع أتباع أهل البيت عليهم السلام وأن يغمرهم بألطاف وليّه ولي العصر بقية الله المهدي وأن يعجّل فرجه.

محمّد حسن تسخيري

المعاون الثقافي للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

أوّلاً: أنّ الكثير من المواد الدراسيّة التي تمّت المصادقة عليها في المركز المذكور ليس لها منهج متداول في الحوزة.

ثانياً: الموارد التي يتوفّر فيها منهج دراسي لم يُعد بشكل يتجاوب مع حاجة المخاطبين المنتسبين لهذا المركز، إضافة إلى ما يشكوه من نقاط الضعف العامّة؛ الأمر الذي أدّى إلى تبلور فكرة تدوين المناهج الدراسية والكرّاسات التي تتلاءم مع الموضوعات والعناوين المصادق عليها في هذا المركز.

وهذه واحدة من الدراسات التي زاولت التفسير الموضوعي لقصص القرآن الكريم، وهو موضوع على قدر وافر من الأهمية، لأنّ تعرف الطلبة لآفاق القصص القرآنية الرحبة يهيّئ أرضية خصبة لإدراك أُصول الدعوة الدينية، وفهم الظروف الصعبة التي واجهت حَمَلة الرسالات الإلهية، ومن ثمّ يقود إلى عزيمة أقوى وقدرة أوسع لنشر الدين الإسلامي الحنيف وإلى جانب مهمة القصص القرآنية تتمتع الموعظة والذكر بدور حسّاس يتسامى الى أهداف أصيلة، كالوعي والانتباه والتذكر[1].

ودراستنا المتميّزة هذه لسماحة آية السيد محمدباقر الحكيم تشكل خطوة راسخة في هذا المضمار الواسع.

فبدورنا نقدّم شكرنا وتقديرنا الى المؤلف لمابذله من جهود ثمينة على طريق الدراسات القرآنية، والى الأخوة الأعزاء في مجمع الفكر الاسلامي الذين استفدنا من توجيهاتهم القيّمة لإخراج هذا الكتاب على أفضل وجه.

وختاماً لا نشكّ في أنّ الخطوات الأُولى ستصحبها بعض العقبات والنواقص، إلّا أنّه يمكن تذليلها من خلال البصيرة النافذة وإبداء الآراء البنّاءة من قبل المخلصين من ذوي الخبرة.

المركز العالمي للعلوم الإسلامية

مكتب التحقيق و تأليف الكتب الدراسيّة

---

(١) ﴿وكلاً نقصّ عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ هود: ١٢٠.

المقدّمة

لاشك أنّ موضوع القِصّة في القرآن من أهمّ الموضوعات القرآنية التي تحتاج إلى اهتمام خاص وعناية متميزة؛ لأنّ القِصّة تعبر عن ثلث القرآن الكريم كما ورد في النصوص ، وهي تتناول في الوقت نفسه عامة الأهداف التفصيلية التي استهدفها القرآن الكريم.

وقد كنت تناولت هذا الموضوع بالبحث بصورة مختصرة في المحاضرات التي ألقيتها على طلاب كلية أصول الدين في السنة الرابعة منها، حسب المنهج المعد، وكان البحث يتناول من حيث المنهج والمضمون جانباً جديداً في بحث القصّة القرآنية. وحاولت بعد ذلك التوسع في البحث نسبياً؛ ليصبح قابلاً للنشر بصورة كتاب مستقل. ولكنّ الهجرة كانت سبباً في أن يصبح هذا الكتاب بعد أن أنجزته بعيداً عن متناول اليد بعد أن تعرضت جميع ممتلكاتي ومنها مكتبتي الخاصة إلى النهب والسلب على يد النظام الحاكم.

وقد كرّرت التجربة في ذلك بعد أن طلب مني تدريس هذا الموضوع في جامعة الإمام الصادق ﷺ قسم الدراسات العليا، فأضفت إلى البحث بعض الموضوعات الأخرى مع توسع في الشرح والتحليل في الإلقاء.

ثم إنّ المركز العالمي للعلوم الإسلامية في قم الذي يتولى الشؤون العلمية للطلبة غير الإيرانيين وجد في هذا البحث والمنهج ما يلائم مناهجه العلمية، فطلب مني إضافة (قصص أنبياء أُولي العزمعليهم السلام) ما عدا نبيّنا محمّدصلى الله عليه وآله، فأضفت إليه قصص نوح وإبراهيم وعيسىعليهم السلام؛ إذ كان البحث السابق قد تناول قِصّة موسىعليه السلام بالتحليل، وبذلك أصبح البحث يشتمل على قسمين: (القِصّة في القرآن) و(قصص أنبياء أُولي العزمعليهم السلام).

أمّا القسم الأوّل منها فيتضمن فصولاً خمسة:

الفصل الأوّل: خصائص القصص القرآني.

ونتناول فيه جانبين: الجانب الأوّل: القِصّة القرآنية والهدف العام من نزول القرآن، والجانب الثاني: الخصائص الأساسية للقِصّة في القرآن.

الفصل الثاني: أغراض القِصّة في القرآن الكريم، ونقسمها إلى ثلاثة أنواع:

الأوّل: الأغراض الرسالية.

الثاني: الأغراض التربوية.

الثالث: الأغراض الاجتماعية والتاريخية.

الفصل الثالث: في دراسة مجموعة من الظواهر التي اتّصفت بها القِصّة في القرآن الكريم، مثل: ظاهرة تكرار القِصّة، وظاهرة اختصاص القصص القرآني بأنبياء منطقة الشرق الأوسط، وظاهرة تأكيد القرآن لقصص بعض الأنبياء كموسى وإبراهيمعليهما السلام، ظاهرة الأسلوب الخاص في عرض القِصّة.

الفصل الرابع: دراسة منهجية وتطبيقية لمواضع القِصّة في القرآن الكريم من حيث الأبعاد التالية:

أسباب تكرار القِصّة.

٢ ـ تشخيص الغرض الذي سيقت له القِصّة في الموضع الخاص.

٣ ـ تفسير تغاير الأُسلوب في العرض والمضمون.

٤ ـ العلاقة بين القِصّة وسياقها في القرآن.

٥ ـ تحليل لمضمون المقطع الذي يتحدّث عن القِصّة.

وقد أخذنا قِصّة موسى كنموذج لهذا المنهج في دراسة القِصّة باعتبارها أوسع قِصّة تناولها القرآن الكريم في عدد المواضع؛ إذ تناولنا تسعة عشر موضعاً لذكر قِصّة موسى في القرآن الكريم.

ولابدّ أن نلاحظ هنا أنّ هذا الفصل يعرض أحد المناهج التي يمكن التزامها في بحث القِصّة في القرآن الكريم. وهو منهج جديد في دراسة القِصّة القرآنية في حدود اطلاعي.

الفصل الخامس: دراسة منهجية أُخرى في دراسة القِصّة القرآنية. تناولنا فيه قِصّة آدم (خلافة الإنسان) على الأرض، حاولنا فيه أن نستخلص النظرية في هذا الاستخلاف، واتبعنا فيه أُسلوب العرض للمنهج السائد في الدراسات القرآنية التفسيرية من ذكر الآراء المتعددة، وشرح المفاهيم المذكورة مناقشتها، مضافاً إلى ذلك عرض النظرية. وهو منهج في البحث تلقيناه على يد أُستاذنا آية الله الشهيد الصدر ﷺ.

وبذلك نقدم منهجاً آخر في دراسة القِصّة القرآنية.

وبهذا يُختتم القسم الأول من البحث.

وأمّا القسم الثاني من البحث (قصص أنبياء أُولي العزم) فيتضمن فصولاً أربعة، يتناول كل فصل منها قصة أحد الأنبياء الاربعة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام.

وقد أتبعنا في دراستهم:

اولاً: تعريفاً عاماً بالنبي وموارد ذكره في القرآن الكريم.

وثانياً: الحديث عن قوم النبي من خلال تناول الأبعاد العقائدية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية لهم، ولكن بصورة مختصرة.

وثالثاً: الحديث عن شخصية النبي ومواصفاته.

رابعاً: الحديث عن مراحل حياته من خلال تقسيمها إلى مراحل رئيسة.

خامساً: تسجيل الملاحظات حول القِصّة بصورة عامة، ومضافاً إلى ذلك الملاحظات حول كلّ مرحلة من مراحل حياة النبي.

وفي هذا المنهج اختلفت قِصّة موسى عليه السلام عن بقية قصص الأنبياء الثلاثة بسبب أنّ قِصّة موسى قد ورد تحليل جميع مواضعها التي ذكرت في القرآن الكريم، الأمر الذي أغنانا عن اتّباع هذا المنهج فيها فجاءت مكملة لما ورد في القسم الأول منها.

ولاشكّ أنّ دراسة قصص هؤلاء الأنبياء التي هي أهم القصص التي وردت في القرآن الكريم يؤهل الطالب لمعرفة ودراسة بقية قصص الأنبياء من خلال المطالعة والمتابعة، ولا سيّما أنّنا نجد أمامنا عداً من مناهج دراسة القِصّة في القرآن الكريم[1] تفتح أمام الأستاذ والطالب آفاقاً في البحث دون مؤونة وتكلفة، ويمكن للأستاذ أن يطور الطلاب من خلالها، أو يوجههم إلى البحث والكتابة على نسق واحد.

كما أنّ أغلب الملاحظات التي أوردتها حول مراحل القصص أو القِصّة نفسها تصلح لأن تكون موضوعاً للمتابعة من قبل الطلبة عندما يكلفون بكتابة البحوث.

(١) أشرنا سابقاً إلى هذه المناهج.

ملاحظات عامة حول البحث:

ويحسن هنا في المقدّمة أن أشير إلى مجموعة من الملاحظات العامة التي أرى أنّها نافعة ومهمة في فهم هذا البحث وطبيعة مصادره ووسائل الإثبات فيه، مضافاً إلى ملاحظات أُخرى أُقدّمها بين يدي الأساتذة للاستفادة منها في توجيه الطلبة أعزّهم الله.

الملاحظة الأولى: اعتمدت في مراجعة المصادر لتكوين الرؤية: كتاب البحار للشيخ المجلسي، والميزان للعلامة الطباطبائي، وقصص القرآن لابن كثير، وقصص القرآن لعبد الوهاب النجار. وإنّما تمّ اختيار هذه الكتب لأنّها تمثل اتجاهات تفسيرية أساسية: فالأوّل يمثل أوسع جامع للأخبار التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام في بيان وشرح القصّة، والثاني يمثل آخر مدرسة في تفسير القرآن الكريم تعتمد تفسير القرآن بالقرآن، وتستفيد من الأخبار والتأمّل العقلي والمعرفة الإنسانية والتجارب التاريخية، والثالث يمثل مدرسة التفسير بالمأثور عند جمهور المسلمين، والرابع يمثل مدرسة الرأي وتعريف الحوادث القرآنية من الحوادث الحسية والتجريبية، مضافاً إلى مدرسة أهل الحديث والوقوف على النصوص المتوارثة في مدرسة الجمهور بملاحظة نقد اللجنة لهذا الكتاب.

ومع الاهتمام الخاص بهذه الكتب كنت أستفيد بطبيعة الحال ـ أحياناً ـ من كتب أُخرى كمجمع البيان للشيخ الطبرسي، وتفسير المنار للسيد رشيد رضا، وبعض كتب التاريخ واللغة.

الملاحظة الثانية: لقد حاولت الالتزام بمنهج فرز المدلولات القرآنية في القِصّة عن المدلولات الأُخرى المستفادة من النصوص الدينية: كالتوارة،

والإنجيل، أو الروايات الواردة عن النبي ﷺ وأهل بيته الكرام ﷺ، ومن الطبيعي أن يكون هناك فرق في اعتماد تكوين الرؤية بين هذه المصادر؛ إذ اعتمدت بالدرجة الأولى على القرآن الكريم، وعلى ما ورد عن النبي وأهل بيته ﷺ، واستفدت من الباقي لتوضيحها وشرحها.

الملاحظة الثالثة: إنّ أحاديث الصحابة لا يمكن أن تقاس بالحديث المروي عن النبي وأهل بيته الكرام ﷺ حتى لو قلنا بحجية قول الصحابي؛ لأنّ هذه الحجية عند القائلين بها إنّما تصح إذا كانت القرائن تشهد بأنّ الصحابي قد أخذ عن النبي ﷺ. وفي مثل قصص القرآن قد ندعي أنّ القرائن تشهد أنّ الصحابة قد أخذوا عن أهل الكتاب، فلا تثبت الحجية لما يذكروه.

الملاحظة الرابعة: أنّ هناك عدّة نقاط أودّ أن أضعها بين يدي الأساتذة لعلّها تكون موضع الفائدة في تدريس هذا الكتاب.

١ ـ لقد حاولت الاختصار جهد الإمكان، وتوضيح الصورة والأفكار عن طريق استخدام الفصول والنقاط والتقسيم تسهيلاً للتناول والحفظ. فإنّ ذلك هو منهج القرآن في تقسيمه إلى سور وآيات... وفضلت التحليل والتعليق على أصل القِصّة تعميماً للفائدة وتيسيراً للعلم.

٢ ـ يمكن للأستاذ ـ اختصاراً للوقت ومن أجل حفظ الموازنة بينه وبين المادة العلمية الملقاة أن يركز في الشرح على الملاحظات والنقاط التحليلية، ويكتفي في عرض القِصّة وصورتها على مراجعة الطالب ومطالعته مع توجيه وبيان النكات الدقيقة له، أو حتى حذف بعض النقاط التي لا يراها ضرورية.

٣ ـ يحسن بالأستاذ أن يُرجع الطالب إلى بعض المصادر في بعض القضايا، ولا سيّما ذات العلاقة بثقافة أهل البيت ﷺ والتي تمّ التأكيد لها أو الإشارة إليها، وكذلك القضايا ذات العلاقة بالعقائد أو التاريخ.

٤ - يحسن بالأستاذ التأكيد لاهمية هذا البحث وغيره من البحوث القرآنية في الدراسات الحوزوية التي كانت محرومة من هذه الدروس التي لها دور كبير في توضيح رؤية الإسلام والقرآن للقضايا الأخلاقية والسياسية والاجتماعية والمعنوية. ولا سيّما أنّ القصّة لها دور مهم في توضيح ذلك، وبيان المعاناة التي يتحملها الأنبياء والمبلغون، وأساليب المواجهة والعلم والأخلاق السياسية والاجتماعية . وهو ممّا لابدّ لطالب أن يعرفه؛ لتشابه مهمة العلماء والمبلغين بمهمة هؤلاء الأنبياء الكرام ﴿**الذي يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلّا الله**﴾ .

وفي الختام أسأله تعالى القبول والتوفيق لطاعته، ولما ينفع من العلم والمعرفة. وأن يختم لنا بخير. كما أسأله تعالى أن يوفق العاملين والمتعلمين لما يحبّه ويرضاه. وأن يجعل هذا العمل ذخيرة لي يوم ألقاه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم.

وإنّي لأشكره سبحانه على هذا التوفيق. كما أشكر كلّ الأعزاء الذين ساهموا في إعداده وتصحيحه وإخراجه وفي مقدّمتهم ولدي الفاضل السيد صادق الحكيم والموفق الفاضل ماجد الطائي.والحمدلله رب العالمين.

محمد باقر الحكيم

١٨ شوال ١٤١٨ هـ . ق

القسم الأوّل

القِصّة في القرآن الكريم

الفصل الأوّل : خصائص القصص القرآني

الفصل الثاني : أغراض القِصّة في القرآن

الفصل الثالث : ظواهر عامة في القِصّة

الفصل الرابع : منهج تحليلي في دراسة القِصّة القرآنية

الفصل الخامس : قِصّة آدم وخلافة الإنسان

الفصل الأوّل

خصائص القصص القرآني

القِصّة القرآنية والهدف العام من نزول القرآن.

الخصائص الأساسية للقِصّة في القرآن.

القِصّة القرآنية والهدف العام من نزول القرآن :

يمتاز القصص القرآني عن غيره من القصص في نقطة مركزية، هي : قضية الهدف والغرض الذي جاء من أجله القصص في القرآن، وتنعكس هذه النقطة ـ كما سوف نتبين ـ على خصائص وميزات أُخرى.

فالقرآن لم يتناول القِصّة باعتبار أنّها عمل (فني) مستقل في موضوعه وطريقة التعبير فيها.

كما أنّه لم يأت بها من أجل الحديث عن أخبار الماضين وتسجيل حياتهم وشؤونهم، أو من أجل التسلية والمتعة كما يفعل المؤرخون أو القصّاصون، وإنّما كان الغرض من القِصّة في القرآن الكريم هو : المساهمة مع جملة الأساليب العديدة الأُخرى التي استخدمها القرآن الكريم ؛ لتحقيق أهدافه وأغراضه الدينية التي جاء من أجلها، وكانت القِصّة القرآنية من أهمّ هذه الأساليب.

فالقرآن الكريم ـ كما ذكرنا في بحثنا عن (الهدف من نزول القرآن) ـ يمثّل رسالة دينية تهدف ـ قبل كلّ شيء ـ إلى إيجاد عملية التغيير بأبعادها المختلفة، والتي لخصناها بالأُمور التالية :

١ ـ إيجاد التغيير الاجتماعي الجذري.

٢ ـ بيان المنهج الصحيح للحياة الإنسانية الذي يتمّ على أساسه هذا التغيير، والذي يعبّر عنه القرآن الكريم بـ(الصراط المستقيم).

٣ ـ خلق القاعدة الثورية القادرة على تحمّل المسؤولية[1].

وقد كان لهذا الهدف آثار ونتائج متعدّدة انسحبت على أساليب ومناهج القرآن، يمكن أن نلاحظها في القضايا والظواهر القرآنية التالية:

١ ـ طريقة نزول القرآن التدريجي.

٢ ـ طريقة عرض الأفكار والأحكام والقضايا والمفاهيم المختلفة.

٣ ـ ربط نزول القرآن بالأحداث والوقائع والاسئلة المسماة بـ(أسباب النزول).

٤ ـ ظاهرة نزول القرآن باللغة العربية دون غيرها من اللغات.

٥ ـ ظاهرة اختلاف أُسلوب القرآن في عرض الموضوعات في الإطناب والتفصيل، أو القصر والإيجاز.

٦ ـ ظاهرة أُسلوب القرآن في المزج بين الصور والمشاهد المتعدّدة، وكذلك الموضوعات المختلفة في مقطع واحد.

٧ ـ ظاهرة الاختلاف في الأُسلوب والمضمون بين القسم المكي من القرآن والقسم المدني منه.

٨ ـ وجود ظاهرة النسخ، وظاهرة المحكم والمتشابه، وظاهرة التخصيص والتقييد.

٩ ـ ظاهرة تناول بعض التفاصيل في الأحكام الشرعية.

---

(١) الهدف من نزول القرآن: ٣١ ـ ٣٢.

١٠ ـ ظاهرة طرح بعض القضايا ذات الطابع الشخصي في حياة النبيّ ﷺ.

وقد نتج عن ذلك نشوء كثير من الدراسات القرآنية، مثل: دراسة الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، والمكّي والمدنيّ، أسباب النزول، أو غير ذلك من الدراسات الفنية ذات العلاقة بأُسلوب القرآن.

وقد تأثرت القِصّة في القرآن ـ أيضاً ـ بهذا الهدف العام من نزول القرآن كما سوف نتبين، ولذا لا بدّ لنا حين نريد أن ندرس القِصّة القرآنية، ونتعرّف على مزاياها وخصائصها الرئيسة أن نضع أمامنا هذا الهدف القرآني العام؛ لنتعرّف من خلاله على الأُسلوب الذي اتّبعه القرآن، والمضمون الذي تناوله في عرضه القِصّة القرآنية مساهمة منه في تحقيق هذا الهدف.

الخصائص الأساسية للقِصّة في القرآن:

وانطلاقاً من هذه الفكرة وهذا الأساس يمكن أن نحدّد الفرق بين القصص القرآني وغيره من القصص ببعض النقاط التي تشكل المميزات والخصائص والصفات الرئيسة للقصص القرآني، ويمكن أن نجد هذه الخصائص قد أُشير إليها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

حيث يمكن أن نفهم من هذه الآية اتّصاف القصص القرآني بالصفات التالية:

---

(١) يوسف: ١١١.

الواقعية، والصدق، والحكمة، والأخلاقية، كما سوف نشير إلى ذلك إن شاء الله.

أ ـ الواقعية، بمعنى ذكر الأحداث والقضايا والصور في القصص القرآني التي لها علاقة بواقع الحياة الإنسانية ومتطلباتها المعاشة في مسيرة التاريخ الإنساني، مقابل أن تكون القِصّة إثارة وتعبيراً عن الصور، أو الخيالات، أو الأماني، أو الرغبات التي يطمح إليها الإنسان، أو يتمناها في حياته؛ ذلك لأنّ القرآن الكريم يريد من ذكر القِصّة وأحداثها إعادة قراءة التأريخ الإنساني والقضايا الواقعية السالفة، الذي عاشته الأُمم والرسالات الإلهيّة السابقة، ومتابعة هذه القراءة في الحاضر المعاش من قبل الإنسان للاستفادة منها والاعتبار بها في حياته وحركته ومواقفه وتطلعاته نحو المستقبل والكمالات الإلهيّة.

فاذا انفصلت القِصّة عن هذا الواقع فلا يمكن للإنسان أن يستفيد منها للحاضر والمستقبل؛ لأنّها تصبح مجرد صور وفرضيات قد تنسجم مع واقعه الفعلي، وربّما لا تنسجم، ولذا ربّما لا يشعر بها، ولا يُصدّق بها نفسياً وروحياً.

والإنسان ـ في مسيرته التكاملية ـ بحاجة إلى أن ينطلق من (الواقع) نحو الطموحات والكمالات، وبدون ذلك سوف ينفصل هذا الإنسان عن واقعه، فيضيع في متاهات الآمال والتمنيات، وقد عبّر القرآن الكريم عن هذه الحالة في الإنسان عندما تحدّث عن اليهود من أهل الكتاب بقوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[1].

وعندئذٍ لا يصل الإنسان إلى أهدافه في النهاية؛ لأنّ من لا ينطلق من البداية

---

(١) البقرة: ٧٨

فلا يبلغ النهاية.

ومن هنا نجد القرآن الكريم يحاول أن يعالج من خلال القِصّة الواقع الذي كان يعيشه المسلمون في زمن النبي، فيذكر ما يتطابق من الأحداث مع هذا الواقع من ناحية. كما يعالج الواقع الذي تعيشه الأجيال والعصور الإنسانية المستقبلية من ناحية أخرى.

وهذا هو الذي يفسّر لنا ما ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام من قولهم: «إنّ القرآن يجري مجرى الشمس والقمر» و«إنّه حي لا يموت». فإنّ انطباق هذا الكلام على القصص والأحداث ذات العلاقة بالأنبياء وأقوامهم أو بالتاريخ الماضي إنّما هو بلحاظ هذا البعد والصفة في القِصّة القرآنية.

ولعل قوله تعالى في الآية السابقة من سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ...﴾ إشارة إلى هذه الصفة في القصص القرآني.

ب ـ الصدق في ذكر الأحداث والوقائع التاريخية التي تعرّض لها الأنبياء وأقوامهم في حياتهم، وذلك في مقابل (الأكاذيب) الباطلة و(الانحرافات) في الفهم والسلوك، أو (الخُرافات) التي اقترنت بقصص الأنبياء في كتب العهدين المعروفين بسبب ما تعرضا له من ضياع وتحريف للحقائق عن قصد أو بدون قصد أو اشتباه أو جهل.

فما ورد في القرآن من أخبار وحوادث هي أُمور وحقائق ثابتة ليس فيها كذب أو خطأ أو اشتباه. كما حصل في كتب العهدين؛ لأنّ القرآن وحيٌ إلهيٌّ، والله لا يعزب عن علمه ذرة في السماء والأرض، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، والحاضر والماضي والمستقبل عنده سواءٌ. ويؤكد هذه الحقيقة ما ورد في الآية السابقة من قوله تعالى: ﴿... مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى...﴾.

والفرق بين هذه الصفة والصفة الأُولى لا بدّ أن يكون واضحاً ؛ لأنّه يراد من الصفة الأُولى (الواقعية) ما يكون جارياً في حياة الناس المعاشة ، والواقع المناسب لحياة الناس قد يكون صدقاً جرى في حياة الناس ، وقد يكون كذباً لم يحدث ولم يحصل في حياتهم ، وأمّا هذه الصفة فيراد منها (الصدق) الذي قد حدث وحصل في الخارج .

وتفتح هاتان الصفتان والميزتان أمامنا باب البحث والمقارنة بين القصص القرآني وقصص العهدين ، سواءٌ فيما يتعلق بالحوادث والحقائق أو فيما يتعلق بالصور والمفاهيم والسلوك ، ومدى انطباقها على واقع الحياة الإنسانية .

كما تفتح الصفة الثانية باب البحث عن موضوع المقارنة التاريخية بين ما ذكره القرآن الكريم من أحداث وما دلت عليه الأبحاث (الآثارية) من معلومات تاريخية .

بعض الباحثين في هذا المجال يحاول أن يتبنّى في الأحداث والوقائع التي يذكرها القرآن الكريم رأياً آخر ؛ لأنّه يحتمل أنّ القرآن الكريم لم يلتزم ويهتم بالتأكد من صدق الحوادث التاريخية التي يستعرضها ويتحدّث عنها ، بل اكتفى بذكر ما هو معروف من هذه الحوادث بين الناس والجماعات وفي الأوساط العامّة التي نزل القرآن فيها ؛ لأنّ هدفه من ذكر هذه الحوادث ليس هو التاريخ ، بل هدفه استخلاص العبرة منها فقط ، وهو أمر يحصل حتى لو لم تكن هذه الحوادث صادقة أو دقيقة[1] .

وقد ناقش العلّامة الطباطبائي هذا الرأي بشيء من التفصيل ، فقال

(١) تفسير المنار ١ : ٣٩٩ ، وكذلك الميزان ٧ : ١٦٥ ـ ١٦٧ نقلاً عن بعض الباحثين .

ما ملخصه:

«إنّ القرآن الكريم ليس كتاباً تاريخياً ولا صحيفة من الصحف القصصيّة التخيلية، وإنّما هو كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ كما نصّ على ذلك ـ وإنّه لا يقول إلّا الحقّ، وليس بعد الحقّ إلّا الضلال.

وليس هذا لأنّ مقتضى الايمان باللّه ورسوله أن ينفي عن القرآن اشتماله على الباطل والكذب، بل لأنّ القرآن كتاب يدّعي لنفسه أنّه كلام إلٰهي موضوع لهداية الناس إلى حقيقة سعادتهم وإلى الحقّ، ومن الواجب على من يفسر كتاباً هذا شأنه أن يفترضه صادقاً في حديثه مقتصراً على ما هو الحقّ الصريح في خبره»[1].

ج ـ التربية على الأخلاق الإنسانية العالية، في مقابل التركيز على الأحاسيس والانفعالات في شخصية الإنسان، والتربية على الاهتمام بالغرائز.

وإنّما اتّصفت في القرآن (بالأخلاقية)؛ لأنّ المسيرة والحركة التكاملية للإنسان ـ سواءٌ على مستوى الفرد أو الجماعة ـ إنّما تقوم على أساس الأخلاق بعد العقيدة باللّه تعالى والرسالات واليوم الآخر، بل إنّ الاتصاف بالأخلاق العالية هو الذي يمثل عنصر التكامل الحقيقي في حركة الإنسان الفردية والجماعية، ولذا كانت قاعدة المجتمع الإنساني في نظر الإسلام قاعدة أخلاقية، والسلوك الراقي للإنسان هو السلوك الأخلاقي. وقد ورد عن رسول اللّه ﷺ قوله: «إنّما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق».

لذا جاءت القِصّة في القرآن الكريم ذات طابع أخلاقي وللتربية على الإيمان باللّه والأخلاق، مثل الإيمان بالغيب، أو على التسليم والخضوع للّه تعالى والحكمة

---

(١) الميزان : ١٦٧ ـ ١٦٨.

الإلهية، أو على الأخلاق الإنسانية العالية، كالصبر والإخلاص والحبّ لله تعالى والتضحية في سبيله والشجاعة والاستقامة في العمل والقدوة الحسنة.

ولعل هذا هو معنى (الهدى والرحمة) في الآية السابقة من سورة يوسف عليه السلام.

د ـ الحكمة، وكشف الحقائق الكونية، والسنن التاريخية، والقوانين والأسباب التي تتحكم أو تؤثر في مسيرة الإنسان، وعلاقاته الاجتماعية، والحياة الكونية المحيطة به؛ لأنّ هذه الحقائق الكونية لها علاقة بمسيرة الإنسان التكاملية ما دام الله ـ تعالى ـ أراد لهذا الإنسان أن يكون مختاراً في حياته ومستخدماً للعلم والحكمة في مسيرته.

ولذا كان من أهداف (النبوة) تعليم الكتاب والحكمة حتى ينتفع بها الإنسان في مسيرته. وسوف نشير إلى بعض هذه السنن والقوانين والحقائق في بحث أغراض القِصّة.

ولكن هنا لا بدّ أن نشير إلى أنّ القرآن الكريم ـ باعتبار هذه الخصوصية ـ يقتصر في ذكر الحوادث التاريخية على ما يكون له علاقة بهذه الصفة وهذا الهدف.

ولعله لهذه الصفة أشارت الآية السابقة من سورة يوسف بقوله تعالى: ﴿... وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ...﴾ إلى قاعدة (ينفتح من كل باب ألف باب) وعلى وزن قوله تعالى: ﴿... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1] ما ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام أنّه جاء في القرآن كلّ شيء.

وهذا بخلاف ما لو كانت القِصّة في القرآن الكريم لمجرد التسلية أو لتدوين الحوادث والوقائع التاريخية، كما هو شأن كتب التاريخ، فإنّ ذلك قد يتطلب التوسع

(١) النحل: ٨٩.

بذكر الحوادث والتفاصيل خصوصاً المثيرة والمسلّية.

وقد حاول الشيخ محمد عبده أن يضيف سبباً آخر يفسر فيه عدم تعرض القرآن الكريم لذكر التفاصيل في القصص القرآني؛ وهو: «أنّ تسجيل الحوادث التاريخية بتفاصيلها يؤدّي في النهاية إلى الوقوع في الأخطاء الكثيرة، وهذا ما تجنبه القرآن، ولذا اقتصر على ذكر الكليات والعموميات»[1] ولكن هذه المحاولة غير صحيحة؛ لسببين:

الأوّل: أنّ القرآن الكريم هو وحيٌ إلهيٌ ولا يمكن أن نتصوّر فيه الخطأ والاشتباه سواءٌ تناول الجزئيات أو الكليات.

الثاني: أنّ القرآن الكريم تناول ـ أحياناً ـ بعض التفاصيل الصغيرة في قصص الأنبياء لأغراض معينة، مثل: تأكيد عدم صلب المسيح وكيفية ولادته، أو تفاصيل الحياة الشخصية لموسى في ولادته وتربيته، وخروجه من مصر، وهجرته ورجوعه.

يقول العلّامة الطباطبائي في تأكيد هذا الجانب من النظرية والفهم:

«والقرآن الكريم كتاب دعوة وهداية لا يتخطى عن صراطه ولو خطوة، وليس كتاب تاريخ ولا قصّة، وليست مهمته مهمة الدراسة التاريخية، ولا مسلكه مسلك الفن القصصي، وليس فيه هوى ذكر الأنساب، ولا مقدرات الزمان والمكان، ولا مشخصات أُخر لا غنى للدرس التاريخي والقصّة التخيلية عن إحصائها وتمثيلها»[2].

---

(١) المنار ٣: ٤٧٠.

(٢) الميزان ٧: ١٦٧.

هذا كلّه في ميزات القِصّة من حيث مضمونها.

وأمّا الحديث عن الأُسلوب فسوف نتناوله في دراسة ظواهر عامّة في القِصّة القرآنية.

الفصل الثاني

أغراض القِصّة في القرآن الكريم

الأغراض الرسالية .

الأغراض التربوية .

الأغراض الاجتماعية والتاريخية .

لقد جاءت القِصّة في القرآن الكريم لتساهم في عملية التغيير الإنساني بجوانبها المتعدّدة، فما هي الأغراض ذات الأثر الرسالي التي استهدفتها القِصّة القرآنية ؟

وبهذا الصدد نجد القِصّة القرآنية تكاد تستوعب في مضمونها وهدفها جميع الأغراض الرئيسة التي جاء من أجلها القرآن الكريم، ونظراً لكثرةِ هذه الأغراض وتشعبها نجد من المستحسن أن نقتصر في عرضنا لأغراض القِصّة في القرآن على الأغراض القرآنية المهمة؛ لنتعرّف من ذلك على أهمية ذكر القِصّة في القرآن الكريم والفوائد التي تترتب عليها. وتنقسم هذه الأغراض إلى أقسام ثلاثة[1]:

الأوّل ـ الأغراض الرسالية :

أ ـ إثبات الوحي والرسالة، وأنّ ما جاء به القرآن الكريم لم يكن من عند

---

(١) راجع في بحث أغراض القِصّة ما كتبه سيد قطب في كتابه التصوير الفني في القرآن: ١٢٠ ـ ١٤١، وما سجّله السيد رشيد رضا في مواضع مختلفة في كتابه: تفسير المنار.

محمد ﷺ وإنّما هو وحيٌ أوحاه اللّه ـ تعالى ـ إليه وأنزله هدايةً للبشرية.

وقد أشرنا إلى هذا الهدف القرآني من القصّة عند بحثنا عن إعجاز القرآن الكريم، حيث عرفنا: أنّ حديث النبي محمّد ﷺ عن أخبار الأُمم السالفة وأنبيائهم ورسلهم بهذه الدقة والتفصيل والثقة والطمأنينة ـ مع ملاحظة ظروفه الثقافية والاجتماعية ـ يكشف عن حقيقة ثابتة، وهي: تلقّيه هذه الأنباء والأخبار من مصدر غيبي مطّلع على الأسرار، وما خفي من بواطن الأُمور، وهذا المصدر هو: اللّه سبحانه وتعالى.

وقد نصّ القرآن الكريم على أنّ من أهداف القِصّة هو هذا الغرض السامي، وذلك في مقدّمة بعض القصص القرآنية أو ذيلها.

فقد جاء في سورة يوسف: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾[1].

كما أشار إلى ذلك في نهاية القِصّة من نفس السورة: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾[2].

وجاء في سورة القصص بعد عرضه لقصة موسى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[3].

---

(١) يوسف: ٣.

(٢) يوسف: ١٠٢.

(٣) القصص: ٤٤ ـ ٤٦.

وجاء في سورة آل عمران في مبدأ قصّة مريم: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾[1].

وجاء في سورة (ص) قبل عرضه لقصّة آدم: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾[2].

وجاء في سورة هود بعد قصّة نوح: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[3].

فكلّ هذه الآيات الكريمة وغيرها تشير إلى أنّ القصّة إنّما جاءت في القرآن تأكيداً لفكرة الوحي التي هي الفكرة الأساس في الشريعة الإسلامية.

ب ـ وحدة الدين والعقيدة لجميع الأنبياء، وأنّ الدين كلّه من الله سبحانه، وأنّ الأساس للدين الذي جاء به الأنبياء المتعددون، هو أساس واحد لا يختلف بين نبي وآخر. فالدين واحد، ومصدر الدين واحد أيضاً. وجميع الأنبياء أمّة واحدة تعبد هذا الإله الواحد وتدعو إليه.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في عدّة مواضع:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[4].

---

(١) آل عمران: ٤٤.

(٢) سورة ص: ٦٧ ـ ٧٠.

(٣) هود: ٤٩.

(٤) النحل: ٣٦.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ ... ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾[3].

وهذا الغرض يهدف فيما يهدف إلى:

١ ـ إبراز الصلة الوثيقة بين الإسلام الحنيف وسائر الأديان الإلهيّة الأُخرى التي دعا إليها الرسل والأنبياء الآخرون، وأنّ الإسلام يمثل امتداداً لها، ولكنّه يحتل منها مركز الخاتمة التي يجب على الإنسانية أن تنتهي إليها، وبذلك يسدّ الطريق على الزيغ الذي يدعو إلى التمسك بالأديان السابقة؛ على أساس أنّها حقيقة موحاة من قبل الله تعالى؛ لأنّ الإسلام يصدقها بذلك، ولكنّه جاء في نفس الوقت مهيمناً عليها ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ... ﴾[4].

٢ ـ مضافاً إلى ذلك تظهر الدعوة على أنّها ليست بدعاً في تأريخ الرسالات،

---

(١) النحل: ٨٩.

(٢) المائدة: ٤٤.

(٣) البينة: ٥.

(٤) المائدة: ٤٨.

وإنّما هي وطيدة الصلة بها في أهدافها وأفكارها ومفاهيمها ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدعاً مِنَ الرّسل وَمَا أدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ...﴾[1]، بل إنّها تمثل امتداداً لهذه الرسالات الإلهيّة. وتلك الرسالات تمثل الجذر التاريخي للرسالة الإسلامية. فهي رسالة (أخلاقية) وتغييريّة، لها هذا الامتداد في التأريخ الإنساني، ولها هذا القدر من الأنصار والمضحّين والمؤمنين.

وعلى أساس هذا الغرض تكرر ورود عدد من قصص الأنبياء في سورة واحدة، ومعروضة بطريقة خاصة؛ لتؤكد هذا الارتباط الوثيق بينهم في الوحي والدعوة التي تأتي عن طريق هذا الوحي. ولنضرب لذلك مثلاً ما جاء في سورة الأنبياء:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ * الّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السّاعَةِ مُشْفِقُونَ * وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنّا بِهِ عَالِمِينَ * إذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التّماثِيلُ الّتِي أنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ الى قوله:

﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأخْسَرِينَ * وَنَجّيْنَاهُ وَلُوطاً إلَى الْأرْضِ الّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أئِمّةً يَهْدُونَ بِأمْرِنَا وَأوْحَيْنَا إلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإقَامَةَ الصّلَاةِ وَإيتَاءَ الزّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾.

﴿ وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجّيْنَاهُ مِنْ الْقَرْيَةِ الّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إنّهُمْ

---

(١) الاحقاف: ٩، راجع ـ أيضاً ـ الآيات ٤٣ ـ ٥٠.

كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾.

﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ * وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾.

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ * وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾.

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾.

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾.

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾.

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾.

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾[1].

ويبدو أنّ القرآن الكريم يريد أن يشير إلى الغرض من هذا الاستعراض لقصص الأنبياء بالآية الخاتمة المعبِّرة عن هذه الوحدة العميقة الجذور في القدم للأمّة المؤمنة بالإله الواحد... وتأتي بقية الأغراض الأُخرى في ثنايا هذا الاستعراض أيضاً، ولا يبعد أن يكون من أهم هذه الأغراض في هذا الاستعراض هو بيان الاشتراك بين الأنبياء في النعم الإلهيّة، كما هو واضح من السياق والمضمون.

ومثال آخر يوضح وحدة العقيدة الاساسية التي استهدفها الأنبياء في تأريخهم الطويل وفي نضالهم المتواصل، هذه العقيدة التي تدعو إلى الإيمان بالله سبحانه إلهاً واحداً لا شريك له في ملكه، وذلك ما جاء في سورة الاعراف:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ... ﴾.

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ... ﴾.

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ... ﴾[2].

فإنّ الابتداء بقصّة كلّ نبي بهذه الطريقة يؤكد وحدة العقيدة والدين لجميع هؤلاء الأنبياء.

---

(١) الأنبياء: ٤٨ـ٥٣ و ٧٠ـ٩٢.

(٢) الأعراف: ٥٩ و ٦٥ و ٨٥.

فالإله واحد، والعقيدة واحدة، والأنبياء أُمّة واحدة، والدين واحد، وكلّه لواحد، هو اللّه سبحانه، وإن كان هناك أغراض أُخرى قد تترتب على هذا الاستعراض كما سوف نلاحظ.

ج ـ بيان أنّ وسائل الأنبياء وأساليبهم في الدعوة واحدة، وطريقة مجابهة قومهم لهم واستقبالهم متشابهة. وأنّ العوامل والأسباب والظواهر التي تواجهها الدعوة واحدة، وقد أكّد القرآن الكريم في عدة مواضع هذه الحقيقة، وأشار إلى اشتراك الأنبياء في قضايا كثيرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ... ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾(٢).

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾(٣).

ويتحدّث القرآن الكريم ـ أحياناً ـ عن الرسل حديثاً عاماً؛ ليؤكد هذه الوحدة بينهم في الوسائل والأساليب... كما جاء في سورة إبراهيم ﴿ ...جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ... ﴾(٤).

---

(١) آل عمران: ١٤٦.

(٢) الانعام: ١١٢.

(٣) الزخرف: ٦ ـ ٧.

(٤) إبراهيم: ٩.

والسبب وراء تأكيد القرآن لهذه الحقيقة هو: بيان صحة هذه المواقف الرسالية وأساليبها من ناحية، ونتائجها وآثارها من ناحية أُخرى، والتثبيت عليها من ناحية ثالثة.

وتبعاً لهذه الأهداف ترد قصص كثيرة من الأنبياء مجتمعة مكررة فيها طريقة الدعوة على نحو ما جاء في سورة هود:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾. إلى أن يقول: ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ... ﴾ إلى أن يقول له: ﴿ ... يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[1].

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ * يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴾[2].

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ *

---

(١) هود: ٢٥ ـ ٢٧ و ٢٩ و ٣٢.

(٢) هود: ٥٠ ـ ٥١ و ٥٣ ـ ٥٥.

قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[1].

ومثل هذه المواقف نجدها في سورة الشعراء أيضاً.

د ـ تصديق التبشير والتحذير، فقد بشر الله ـ سبحانه ـ عباده بالرحمة والمغفرة لمن أطاعه منهم، وحذّرهم من العذاب الأليم لمن عصاه منهم. ومن أجل إبراز هذه البشارة والتحذير بصورة حقيقية متمثلة في الخارج، عرض القرآن الكريم بعض الوقائع الخارجية التي تتمثل فيها البشارة والتحذير، فقد جاء في سورة الحجر التبشير والتحذير أوّلاً، ثمّ عرض النماذج الخارجية لذلك ثانياً:

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾[2].

وتصديقاً لهذه أو تلك، جاءت القصص على النحو التالي:

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ﴾[3]. وفي هذه القصّة تبدو الرحمة والبشارة.

ثمّ ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ

---

(١) هود: ٦١ ـ ٦٢.

(٢) الحجر: ٤٩ ـ ٥٠.

(٣) الحجر: ٥١ ـ ٥٣.

الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾[١]، وفي هذه القِصّة تبدو (الرحمة) في جانب لوط، ويبدو (العذاب الأليم) في جانب قومه المهلكين.

ثمّ ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[٢]، وفي هذه القِصّة يبدو (العذاب الأليم) للمكذبين، وهكذا يصدق الأنباء ويبدو صدقه في هذه القصص الواقع بهذا الترتيب.

هـ ـ بيان نعمة اللّه على أنبيائه، ورحمته بهم، وتفضله عليهم؛ وذلك توكيداً لارتباطهم وصلتهم به؛ لأنّ القرآن أكّد هذا المفهوم في عدّة مواضع:

منها قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقاً ﴾[٣].

وقد جاءت بعض قصص الأنبياء لتأكيد هذا المفهوم، كبعض قصص سليمان وداوود وإبراهيم ومريم وعيسى وزكريا ويونس وموسى.

ذلك أنّ الأنبياء يتعرضون ـ عادة ـ إلى مختلف الوان الآلام والمحن والعذاب، وقد يتوهم السذج والبسطاء من الناس أنّ ذلك إعراض من اللّه ـ تعالى ـ عنهم، فيأتي الحديث عن هذه النعم والألطاف الإلهيّة بهم تأكيداً لعلاقة اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ بهم، ولذلك نشاهد أنّ بعض الحلقات من قصص هؤلاء الأنبياء تبرز فيها

---

(١) الحجر: ٦١ ـ ٦٦.

(٢) الحجر: ٨٠ ـ ٨٤.

(٣) النساء: ٦٩.

النعمة في مواقف شتى، ويكون إبرازها هو الغرض الأوّل منها، وما سواه يأتي في هذا الموضوع عرضاً.

ومن مصاديق ذلك: ما أشرنا إليه سابقاً ممّا ورد في سورة الأنبياء.

ومثال آخر على ذلك: ما ورد في القرآن الكريم من استعراض قصص الأنبياء وفي سورة مريم، حيث يختم الاستعراض بقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾[1].

و ـ بيان غواية الشيطان للإنسان، وعداوته الأبدية له، وتربصه به الدوائر والفرص، وتنبه بني آدم لهذا الموقف المعين منه، ولا شك أنّ إبراز هذه المعاني والعلاقات بواسطة القِصّة يكون أوضح وأدعى للحذر والالتفات؛ لذا نجد قِصّة آدم تتكرر بأساليب مختلفة تأكيداً لهذا الغرض، بل يكاد أن يكون هذا الغرض هو الهدف الرئيس لقِصّة آدم كلها.

ز ـ بيان الغايات والأهداف من إرسال الرسل والأنبياء وأنّ ذلك إنّما هو من أجل إبلاغ رسالات اللّه، وهداية الناس، وإرشادهم وتزكيتهم، وحل الاختلافات، والحكم بالعدل بينهم، ومحاربة الفساد في الارض، وفوق ذلك كلّه هو إقامة الحجة على الناس، ولذا جاء استعراض قصص الأنبياء بشكل واسع لبيان هذه الحقائق.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الهدف من القِصّة في عدة مواضع:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ

---

(١) مريم: ٥٨.

﴿الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ...﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٣).

فإنها وردت في سياق قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً * وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً﴾(٥).

وكذلك ما ورد في تعقيب قصص الأنبياء من سورة الشعراء من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(٦).

---

(١) البقرة: ٢١٣.

(٢) النساء: ١٦٥.

(٣) الانعام: ٤٨.

(٤) الانعام: ٤٢.

(٥) الكهف: ٥٥ ـ ٥٦.

(٦) الشعراء: ٨ ـ ٩.

الثاني ـ الأغراض التربوية :

فقد استهدف القرآن بشكل رئيس :

أ ـ تربية الإنسان على الإيمان بالغيب ، حيث وصف المتقين الذي استهدف القرآن الكريم هدايتهم بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۞ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۞ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1] ، وقد جاءت قصص الملائكة والجن والمعاجز الإلهيّة لتؤكّد هذا الجانب في التربية الروحية .

ب ـ تربية الإنسان على الإيمان بالقدرة الإلهيّة المطلقة ، كالقصص التي تذكر الخوارق ، مثل : قِصّة آدم ، ومولد عيسى ، وقِصّة البقرة ، وقِصّة إبراهيم مع الطير الذي آب إليه بعد أن جعل على كلّ جبل جزءاً منه ، وقِصّة ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ... ﴾[2] وإحياء اللّه له بعد موته مئة عام .

فإنّنا نلاحظ أنّ القرآن الكريم أكّد في مواضع عديدة شمول هذه القدرة للأشياء كلها ، ومنها القدرة على إعادة خلق الإنسان مرة أُخرى في يوم النشور للحساب والثواب والعقاب .

ج ـ تربية الإنسان على الأخلاق الفاضلة وفعل الخير والأعمال الصالحة وتجنبه الشر والفساد ، وذلك ببيان العواقب المترتبة على هذه الأعمال ، كقِصّة ابني آدم ، وقِصّة صاحب الجنتين ، وقصص بني إسرائيل بعد عصيانهم ، قِصّة سد مأرب ،

---

(١) البقرة : ٣ ـ ٥ .

(٢) البقرة : ٢٥٩ .

وقِصّة أصحاب الجنة، وكذلك التربية على الصبر والصمود كقِصّة أصحاب الأُخدود.

د ـ التربية على الاستسلام للمشيئة الإلهيّة، والخضوع للحكمة التي أرادها الله ـ سبحانه ـ من وراء العلاقات الكونية والاجتماعية في الحياة الدنيا، والحكمة الإنسانية القريبة العاجلة، كما جاء في قِصّة الإيحاء إلى أم موسى أن تلقيه في اليم، وكذلك في قِصّة موسى التي جرت مع عبد ﴿...عَبْداً مَنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مَنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاه مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾[١] التي وردت في سورة الكهف، إلى آخر ذلك من الأغراض الوعظية والتربوية الأُخرى التي سوف نطلع على بعضها في دراستنا التفصيلية لقصة موسى عليه السلام.

الثالث ـ الأغراض الاجتماعية والتاريخية:

أي بيان السنن التاريخية في حركة الإنسان والمجتمع الإنساني.

فالمجتمع الإنساني يخضع في حركته وتطوره إلى قوانين وسنن، وقد تحدّث القرآن الكريم عن بعض هذه القوانين والسنن، وأكّد أهميتها، وجاءت القِصّة في القرآن الكريم من أجل تجسيد هذه السنن في الوقائع والأحداث.

ونشير هنا إلى بعض هذه السنن التي تحدّث عنها القرآن الكريم مع ذكر القصص والحوادث ذات العلاقة بها:

الأُولى: سُنّة ارتباط تغيير الأوضاع الاجتماعية والحياتية للناس بتغيير المحتوى النفسي والروحي لهم. وقد تحدّث القرآن الكريم عن هذه السنة في عدّة مواضع:

---

(١) الكهف: ٦٥.

منها: قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ... ﴾(١).

﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾(٢).

وقوله تعالى في سورة الرعد: ﴿ ...إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾(٣).

وقوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(٤).

وقوله تعالى في سياق القصص القرآني: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴾(٥).

ولعلّ من الأمثلة الواضحة على هذا الغرض للقصّة ما جاء في سورة الأعراف؛ لأنّنا نلاحظ أنّ استعراض قصص (نوح) و(هود) و(صالح) و(لوط) و(شعيب) وما جرى لهم مع أقوامهم يختم بهذه القاعدة الكلية:

---

(١) الأنفال: ٥٣.

(٢) الأنفال: ٥٤.

(٣) الرعد: ١١.

(٤) الأعراف: ٩٦.

(٥) الروم: ٤١ ـ ٤٢.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(١).

وكذلك ما ورد في قِصّة فرعون وموسى وفق ما أشار إليه القرآن الكريم في سورة الأنفال من قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ...﴾ ولكن يذكره بشكل أكثر وضوحا في قِصّة موسى في سورة الأعراف التي نزلت قبل الأنفال، ويمكن أن نعرف ذلك من وجوه:

١ ـ إنّ هذه القِصّة جاءت في سياق الآيات السابقة التي تحدّثت عن هذه السُنّة.

٢ ـ إنّ مضمون القِصّة يؤكّد ذلك من خلال ما ورد فيها من الأمر بالصبر والاستعانة بالله، ثمّ إصرار الفرعونيين على التكذيب والطغيان، وكيف أنّ اللّه ـ تعالى ـ أخذ آل فرعون بالسنين، ثمّ وراثة الأرض لبني إسرائيل. وسوف يأتي مزيد من التوضيح لذلك عند دراسة قِصّة موسى عليه السلام.

الثانية: سُنّة انتصار الحقّ على الباطل، حيث أكّد القرآن الكريم هذه الحقيقة في عدّة مواضع: منها قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾(٢).

وبهذا الصدد نجد القرآن الكريم يؤكّد ـ أيضاً ـ نصرة اللّه ـ تعالى ـ للانبياء،

---

(١) الأعراف: ٩٤ ـ ٩٦.

(٢) الإسراء: ٨١.

وأنّ نهاية المعركة بينهم وبين أقوامهم تكون لصالحهم مهما لاقوا من العنت والجور والتكذيب، حيث دلت بعض الآيات القرآنية على ذلك بشكل مباشر ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾[1] وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾[2] كل ذلك تثبيتاً لرسوله محمد ﷺ وأصحابه وتأثيراً في نفوس من يدعوهم إلى الإيمان.

وقد نصّ القرآن الكريم على هذا الهدف الخاص للقصّة ـ أيضاً ـ بمثل قوله تعالى: ﴿ وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3].

وتبعاً لهذا الغرض وردت بعض قصص الأنبياء مؤكّدة هذا الجانب، بل جاءت بعض هذه القصص مجتمعة ومختومة بمصارع من كذّبوهم. وقد يتكرّر عرض القصّة نتيجة لذلك، كما جاء في سورة هود والشعراء والعنكبوت، ولنضرب مثلا من سورة العنكبوت:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ * وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[4].

---

(١) الأنبياء: ١٠٥.

(٢) غافر: ١٥٠.

(٣) هود: ١٢٠.

(٤) العنكبوت: ١٤ ـ ١٦.

إلى أن يقول : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(١).

﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾(٢).

إلى أن يقول : ﴿ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَد تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ * وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(٣).

فهذه هي النهاية الحتمية التي يريد أن يصورها القرآن الكريم لمعارضي الأنبياء والمكذبين بدعوتهم.

الثالثة : سُنة الابتلاء وعموم الامتحان.

ومن السنن الالهيّة في حركة الإنسان ووجوده هي : سُنّة الابتلاء والامتحان،

---

(١) العنكبوت : ٢٤.

(٢) العنكبوت : ٢٨.

(٣) العنكبوت : ٣٤ ـ ٤٠.

وهي سُنّة عامة وشاملة. قال تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنَ عَمَلاً... ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾[2].

كما أنّ الامتحان له أهدافه:

١ ـ التمحيص والتمييز، فالامتحان يسير مع الإنسان في حركته التكاملية، وعندما يصبح الإنسان مؤمناً أو مجاهداً يبتلى ويمتحن من أجل التمحيص والتمييز. ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ... ﴾[3].

﴿ ... وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ❊ وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ❊ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾[4].

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴾[5].

٢ ـ الكمال والتربية:

«إنّ الله إذا أحبّ عبداً غته بالبلاء غتاً، وصبّ عليه البلاء صباً، فلا يخرج من غمّ إلّا وقع في غمّ».

---

(١) الملك: ٢.

(٢) الإنسان: ٢.

(٣) آل عمران: ١٧٩.

(٤) آل عمران: ١٤٠ ـ ١٤٢.

(٥) محمّد: ٣١.

٣ ـ العقوبة والتذكير:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[1].

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ العَذَابِ الأَدْنَى دُونَ العَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرجِعُونَ﴾[2].

ولعل من أوضح الأمثلة في قصص القرآن التي سيقت لموضوع البلاء بجوانبه المتعدّدة وهذه السُنّة الشاملة ما ورد في سورة (المؤمنون):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ المَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ * فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الفُلْكِ فَقُلْ الحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنْ القَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُلْ رَبِّ أَنزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ المُنْزِلِينَ * إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾[3].

حيث يلاحظ أنّ هذه الآيات جاءت في سياق بيان خلق الإنسان والنعم الإلهيّة، وختمت بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾.

ثمّ تتحدّث السورة عن الرسل الآخرين والقرون الأُخرى، وكيف كان

---

(١) الأعراف: ١٣٠.

(٢) السجدة: ٢١.

(٣) المؤمنون: ٢٣ ـ ٣٠.

الابتلاء بالرسالة والأخذ بالعذاب بعد التكذيب، ثمّ الإشارة إلى (موسى وعيسى عليهما السلام) وتخاطب الرسل بالأكل من الطيبات والعمل الصالح، وتؤكّد ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[1].

ثمّ تشير إلى الاختلاف بين الناس والإملاء والإمداد بالأموال والأولاد الذي هو نوع من الابتلاء والامتحان، والنتائج المترتبة على ذلك.

٤ ـ سُنّة أنّ النصر الإلهيّ لا يتحقق إلّا بعد التعرض للبأساء والضراء والصبر على البلاء.

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ

---

(١) المؤمنون: ٥٢.

(٢) البقرة: ٢١٤.

(٣) يوسف: ١١٠.

وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[١].

ويمكن أن نلاحظ عدّة قصص في القرآن الكريم تؤكِّد هذه الحقيقة والسُنّة :

منها : قِصّة الحواريين وقتالهم في سياق الآيات السابقة من سورة الصف ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أنصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾[٢].

ومنها : قِصّة الملأ من بني إسرائيل ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً

---

(١) الصف : ١٠ ـ ١٣.

(٢) الصف : ١٤.

كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[1].

ومنها: قِصّة نوح عليه السلام في سورة هود إذ جاءت في سياق قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[2].

وكذلك ما عرفناه في سُنّة نصرة اللّه لأنبيائه، وما سوف نعرفه في دراستنا لقِصّة موسى عليه السلام القسم الرابع عندما نتناول الموضوع الرابع عشر من سورة القصص.

---

(١) البقرة: ٢٤٦ ـ ٢٥١.

(٢) هود: ٢٤.

الفصل الثالث

ظواهر عامّة في القِصّة القرآنية

تكرار القِصّة في القرآن .

اختصاص القِصّة بأنباء الشرق الأوسط .

تأكيد قِصّة إبراهيم وموسى .

أُسلوب القِصّة .

وقِصّة عيسى إلى قوم وقِصّة نوح إلى آخرين، فأراد الله بلطفه ورحمته أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض، ويلقيها في كلّ سمع، ويثبّتها في كلّ قلب، ويزيد الحاضرين في الإفهام».

فالشيخ الطوسي يفسِّر التكرار بعاملين:

الأوّل: معالجة التفرّق في القطع القرآنية؛ ليكون تكرار القِصّة موجباً لوصولها إلى الجميع.

والثاني: زيادة إفهام الحاضرين الذين يصلهم القرآن الكريم بكامله.

وعبارة الشيخ الطوسيّ ربما لا تعالج المسألة بشكل أساس، غير أنّها تدلّ على أنّ الموضوع طُرِحَ في الدراسات القرآنية عند القدماء أيضاً.

ونحن هنا نذكر بعض الوجوه التي يمكن أن تكون تفسيراً لتكرار القِصّة الواحدة في القرآن الكريم:

الأوّل: أنّ التكرار إنّما يكون بسبب تعدّد الغرض الدينيّ الذي يترتب على القِصّة الواحدة، وقد عرفنا في بحثنا السابق لأغراض القِصّة[1] أنّ أهداف القِصّة متعدّدة، فقد تأتي القِصّة في موضع لأداء غرض معين، وتأتي في موضع آخر لأداء غرض آخر وهكذا.

الثاني: أنّ القرآن الكريم اتّخذ من القِصّة أُسلوباً لتأكيد بعض المفاهيم الإسلامية لدى الأُمّة المسلمة، وذلك عن طريق ملاحظة الوقائع الخارجية التي كانت تعيشها الأُمّة، وربطها بواقع القِصّة من حيث وحدة الهدف والمضمون.

وهذا الربط بين المفهوم الإسلامي في القِصّة والواقعة الخارجية المعاشة

---

(١) لزيادة الإيضاح انظر سيد قطب: التصوير الفني في القرآن: ١٢٨ ـ ١٣٤.

للمسلمين قد يؤدّي إلى فهم خاطئ للمفهوم المراد إعطاؤه للأُمة، فيفهم انحصاره في نطاق الواقعة التي عاشتها القِصّة وظروفها الخاصّة. فتأتي القِصّة الواحدة في القرآن الكريم مكررة من أجل تفادي هذا الحصر والتضييق في المفهوم، وتأكيد شموله واتّساعه لكلِّ الوقائع والأحداث المشابهة؛ ليتّخذ صفة القانون الأخلاقي أو التاريخي الذي ينطبق على كلِّ الوقائع والأحداث.

الثالث: أنّ التكرار يكون سبباً في فاعلية القِصّة كمنبّه للأُمّة على علاقة القضية الخارجية التي تواجهها - في عصر النزول أو بعده - بالمفهوم الإسلامي؛ لتستمدّ منه روحه ومنهجه. فيكون تكرار القِصّة بياناً للمنبّه عند الحاجة إليه.

ولعلّ هذا السبب والسبب الذي قبله هو ما يمكن أن نلاحظه في تكرار قِصّة موسى، والفرق بين روحها العامة في القصص المكّي وروحها في القصص المدنيّ، فإنّها تؤكّد في القصص المكّي منها على العلاقة العامة بين موسى من جانب وفرعون وملائه من جانب آخر، دون أن تذكر أوضاع بني إسرائيل تجاه موسى نفسه، إلّا في موردين يذكر فيهما انحراف بني إسرائيل عن العقيدة الإلهيّة بشكل عام. وهذا بخلاف الروح العامة لقِصّة موسى في السور المدنية؛ فإنّها تتحدّث عن علاقة موسى مع بني إسرائيل، وتتحدّث عن هذه العلاقة وارتباطها بالمشاكل الاجتماعية والسياسية.

وهذا قد يدلّنا على أنّ هذا التكرار للقِصّة في السور المكية إنّما كان لمعالجة روحية تتعلق بحوادث مختلفة واجهت النبي والمسلمين، ومن أهداف هذه المعالجة توسعة نطاق المفهوم العام الذي تعطيه قِصّة موسى في العلاقة بين النبي والجبارين من قومه، أو القوانين التي تحكم هذه العلاقة، وأنّ هذه العلاقة مع نهايتها لا تختلف فيها حادثة عن حادثة أو موقف عن موقف.

ولعلّ إلى هذا التفسير تشير الآيات الكريمة التي جاءت في سورة الفرقان:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً * الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً﴾[1].

الملاحظ في هذه الآيات أنّ القرآن يذكر أنّ سبب التدرج والترتيب في القرآن الكريم هو: التثبيت للنبيّ من ناحية، الإتيان بالحقّ والتفسير الأفضل للوقائع والأحداث والأمثال من ناحية اُخرى، ثُمّ يأتي بهذا التفسير الأحسن من قصّة موسى عليه السلام.

الرابع: أنّ الدعوة الإسلامية مرّت بمراحل متعدِّدة في سيرها الطولي، وقد كان القرآن الكريم يواكب هذه المراحل ويعايشها في عطائه وطبيعة اُسلوبه، وهذا كان يفرض أن تُعرَضُ القِصّة الواحدة بأساليب متفاوتة في الطول والقصر نظراً لطبيعة الدعوة، وطريقة بيان المفاهيم والعبر فيها، كما نجد ذلك في قصص الأنبياء حين تعرض في السورة القصيرة المكية، ثُمّ يتطوّر العرض بعد ذلك إلى شكل أكثر تفصيلاً في السور المكية المتأخِّرة أو السورة المدنية.

الخامس: أنّ تكرار القِصّة لم يأت في القرآن الكريم بشكل يتطابق فيه نصّ القِصّة مع نَصٍّ آخر لها، بل كان فيها شيءٌ من الزيادة والنقيصة، وإنّما تختلف الموارد في بعض التفاصيل وطريقة العرض؛ لأنّ طريقة عرض القِصّة القرآنية قد تستبطن مفهوماً دينياً يختلف عن المفهوم الدينيّ الآخر الذي تستبطنه طريقة عرض اُخرى.

---

(١) الفرقان: ٣٢ ـ ٣٥.

هذا الأمر الذي نسميه بالسياق القرآنيّ يقتضي التكرار أيضاً؛ لتحقيق هذا الغرض السياقيّ الذي يختلف عن الغرض السياقيّ الآخر لنفس القِصّة، وسوف تتضح معالم هذه النقاط بشكل أكثر عند دراستنا التطبيقية التالية لقِصّة موسى عليه السلام في القرآن الكريم.

وقد ذكر السيوطيّ في الإتقان عدّة أسباب أُخرى ينسبها إلى (البدر بن جماعة) في كتابه المقتنص في فوائد التكرار القصص:

ومنها: ما ذكره الشيخ الطوسيّ آنفاً.

ومنها: أنّ ذلك كان من وسائل التحدي بالقرآن؛ لاختلاف القِصّة بالنظم، ومع ذكل عجز العرب عن الإتيان بمثله.

وذكر أسباباً أُخرى فيها تكرار هذه الأسباب[1].

اختصاص القِصّة بأنبياء الشرق الأوسط:

وثمّة ظاهرة أُخرى، هي: أنّ القرآن الكريم تحدّث عن مجموعة من الأنبياء كانوا يعيشون جميعاً في منطقة الشرق الأوسط، أي: المنطقة التي كان يتفاعل معها العرب الذين نزل القرآن في محيطهم ومجتمعهم. وقد تُفسّر هذه الظاهرة بأَنّ النبوّات كانت بالأصل في هذه المنطقة، ومن خلالها انتشر الهدى في جميع أنحاء العالم، ويؤيد ذلك الاستعراض التاريخيّ للنبوّات وتاريخ الإنسان في التوراة، وبعض الأبحاث الآثارية والروايات الدينية خصوصاً الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، وحينئذٍ يصبح تفسير هذه الظاهرة واضحاً، وهو: أنّ الواقع التاريخيّ للحياة الإنسانية فرض هذه الظاهرة.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٣: ٢٣٠ ـ ٢٣١ تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

ولكن توجد شواهد في القرآن الكريم تنفي هذا التفسير لهذه الظاهرة، فالقرآن يشير في بعض آياته إلى أنّ هناك مجموعة أُخرى من الأنبياء لم يتحدّث عنهم القرآن الكريم، مع أنّ حياتهم لا بدّ أنّها كانت زاخرة بالأحداث، شأنهم في ذلك شأن الأنبياء الآخرين:

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً * وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾[١].

كما أنّ هذا المضمون جاء ـ أيضاً ـ في سورة (غافر / ٧٨)، علماً بأنّ سورة النساء من السور المدنية المتأخرة، ومن هنا فلا مجال لاحتمال أنّ هذه الآية نزلت في فترة زمنية لم يكن القرآن قد تعرّض فيها إلى جميع قصص الأنبياء التي وردت في القرآن الكريم.

وهناك مجموعة من الآيات تدلّ على أنّ الأنبياء والرسل كانوا يُبعثون إلى كل قرية ومدينة؛ لاقامة الحجّة من الله على الناس، كما نفهم من الآية (١٦٥) من سورة النساء التي جاءت في سياق الآيتين السابقتين. ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾[٢].

وبالإضافة إلى موارد أُخرى لها هذه الدلالة:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ

---

(١) النساء: ١٦٣ ـ ١٦٤.

(٢) النساء: ١٦٥.

هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[1].

﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ... ﴾[2].

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[3].

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[4].

وجاء التعبير في بعض الآيات عن ذلك بوجود الشهيد في كلِّ أُمة (النساء / ٤١، النحل / ٨٤، القصص / ٧٥).

ومن هنا فلا بدّ من تفسير هذه الظاهرة بتفسير آخر كأن يكون الغرض الأساس من القِصّة ـ كما ذكرنا ـ هو انتزاع العبرة واستنباط القوانين والسنن التأريخية منها، ولم يكن الغرض من القِصّة السرد التأريخي لحياة الأنبياء أو كتابة تأريخ الرسالات، ولذلك يتحدّث القرآن عن الأُمور العامّة المشتركة بين هؤلاء الأنبياء، عدا بعض الموارد التي يكون هناك غرض خاص في طرح بعض القضايا فيها.

ولـمّا كان تأثير القِصّة في تحقيق هذه الأغراض يرتبط بمدى إيمان الجماعة بواقعيتها وإدراكهم لحقائقها، ومدى انطباق ظروفها على ظروف الجماعة نفسها؛ لذا

---

(١) النحل: ٣٦.

(٢) التوبة: ١١٥.

(٣) يونس: ٤٧.

(٤) فاطر: ٢٤.

بعض، ويظهر من القرآن الكريم أنّ هذا الأفضل هو: نوح، وإبراهم، وموسى، وعيسى عليهم السلام باعتبارهم أنبياء أولو العزم، ولكنْ لا يعني ذلك ارتباط تأكيد القرآن هؤلاء الأنبياء بأفضليتهم؛ لأنّ القرآن بالأصل ليس بصدد تقويم عمل هؤلاء الأنبياء والحديث عن التفاضل بينهم، وإنّما الأهداف الأصلية للقِصّة التي أشرنا إليها وذكرها القرآن هي: العبرة والموعظة وتصديق النبوّات والتثبيت وإقامة الحجّة والبرهان على صدق نبوّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ومضمون رسالته، كما تشير إليه الآيات القرآنية:

﴿ وَكُلّاً نَقُصّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرّسُلِ مَا نُثَبّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[2].

﴿ رُسُلاً مُبَشّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلّا يَكُونَ لِلنّاسِ عَلَى اللهِ حُجّةٌ بَعْدَ الرّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾[3].

ولذلك يمكن أنّ نقول: إنّ السبب في تأكيد القرآن لشخصية هؤلاء الأنبياء في حديثه عنهم لأسباب أُخرى يأتي في مقدماتها: أنّ هؤلاء الأنبياء أتباعاً وأقواماً يرتبطون بهم ـ روحياً وعقائدياً ـ في المجتمع الذي كان يتفاعل القرآن معه عند نزوله من العرب والأقوام الأُخرى المحيطة بهم، وهذا الأمر كان يفرض ـ من أجل

---

(١) هود: ١٢٠.

(٢) يوسف: ١١١.

(٣) النساء: ١٦٥.

إيجاد القاعدة الرسالية ـ أنّ يتحدّث عنهم القرآن بإسهاب.

مضافاً إلى أسباب أُخرى ذات علاقة بالهدف العام للقرآن الكريم الذي أشرنا إليه سابقاً.

ولكن بالنسبة للنبي إبراهيم عليه السلام فيمكن أن نجد الأسباب التالية لتوسع القرآن في الحديث عنه:

١ ـ كان إبراهيم عليه السلام يعتبر لدى كل القاعدة التي نزل فيها القرآن الكريم (المشركين واليهود والنصارى) أباً لجميع الأنبياء، ويحظى باحترام الجميع له.

٢ ـ إن تأكيد القرآن ارتباط الإسلام وشعائره بإبراهيم له أهمية خاصة في إعطاء الرسالة الاسلامية جذراً تاريخياً ممتداً إلى ما هو أبعد من الديانتين اليهودية والنصرانية، ويحقّق لها استقلالاً عنهما من ناحية، والوحدة مع هذه الديانات في المصدر التشريعي لها ـ وهو اللّه تعالى ـ من ناحية أُخرى.

٣ ـ إعطاء فكرة (التوحيد) التي طرحها القرآن على المشركين أصلاً وانتماءً يرتبط به هؤلاء المشركون في تأريخهم بحيث يكون الشرك والوثنية انحرافاً عن هذا الأصل الصحيح، وبذلك يعالج القرآن الكريم الحاجز النفسي الذي كان يعيشه المشركون في موضوع العدول عن دين الآباء والأجداد.

قال تعالى: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾[1].

---

(١) الحج: ٧٨.

٤ ـ ويتجلى هذا الربط التأريخي بشكل أوضح عندما يصبح إبراهيم عليه السلام هو المبشر بالنبي العربي الأمي، حيث يكون هذا الرسول هو الأمل المنقذ، وتكون بعثة الرسول محمّد صلى الله عليه وآله وسلم استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام وذلك في مثل قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[1].

٥ ـ إعطاء الرسالة الإسلامية شيئاً من الاستقلال عن اليهودية والنصرانية يحرّر القاعدة التي يتفاعل معها القرآن من الشعور بالتبعية روحياً ومعنوياً ودينياً لعلماء اليهود والنصارى؛ لأنّها كانت تنظر إلى علماء اليهود والنصارى بأنهم أهل الذكر والكتاب والمعرفة بالأديان والرسالات السماوية، أو ترى أنّ الأصل في الديانات هو اليهودية والنصرانية وسوف نشير إلى ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[2].

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[3].

---

(١) البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩.

(٢) آل عمران: ٦٧ ـ ٦٨.

(٣) البقرة: ١٣٥.

ومن هنا نفهم أهمية تأكيد القرآن قِصّة بناء إبراهيم للكعبة، وندائه بالحج؛ لأنّ هذه الشعائر الدينية ليس لها وجود عند الملتزمين بالديانة اليهودية والمسيحية من ناحية، وللموقع الخاص الذي كانت تحتله الكعبة بين العرب عامّة من ناحية أُخرىٰ، وللقرار الذي كان القرآن قد اتّخذه بجعل الكعبة قبلة للمسلمين؛ تأكيداً لاستقلالية الرسالة في كلِّ معالمها من ناحية ثالثة. وصرف الأنظار عن الأرض المقدسة وبيت المقدس ـ الذي يحظى بالقدسية الخاصة بسبب نشوء الديانات المختلفة فيه ـ ووجود إبراهيم وأنبياء بني اسرائيل كلّهم في هذه الأرض، يحتاج في إعطاء هذه الأهمية للبيت والكعبة المشرفة إلى هذا الانتساب الأصيل إلى إبراهيم عليه السلام.

وأمّا النبيّ موسى عليه السلام فإنّنا يمكن أنّ نجد الأُمور التالية ـ أيضاً ـ في تأكيد قِصّته:

١ ـ موقعه من الديانة اليهودية والشعب الإسرائيلي، والإنجاز السياسي والاجتماعي الذي حقّقه لهم، وكذلك ما تحقّق من خلال التوراة من تشريع وحكمة وقانون.

٢ ـ إنّ المعاناة الطويلة التي مرّ بها موسى عليه السلام كانت تشبه معاناة رسول الله صلى الله عليه وآله سواءٌ تجاه الطغاة الفراعنة أم المنافقين من الإسرائيليين، أم في توطيد دعائم الحكم الإلهي في الأرض.

٣ ـ إنّ موقع موسى عليه السلام من الديانتين اليهودية والنصرانية كان موقعاً متميزاً؛ لأنّ النصرانية ـ أيضاً ـ كانت ترى أنّ الأصل في الدين هو موسى عليه السلام وما جاء به من نور أو تشريعات وقوانين، وأنّ النصرانية هي عملية تصحيح للانحرافات اليهودية، وأيضاً كانت تعترف بالتوراة القائمة (العهد القديم).

٤ ـ إنّنا نجد ملامح الظروف الموضوعية القائمة التي كانت تحيط بالرسالة

الإسلامية والقرآن الكريم في موطن نزوله، وبالمجتمع الذي يعمل على تغييره موجودة في كلِّ هذه الأُمور المرتبطة بهذين النبيين العظيمين؛ لأنّ القرآن كان يعايش ويتفاعل باستمرار مع أهل الكتاب وعلمائهم وأقوامهم، وكان بحاجة إلى هذا التفصيل، والحديث ـ أحياناً ـ حتى عن الحياة الشخصية لموسى عليه السلام؛ لما في ذلك من التأثير في أوساطهم.

٥ ـ إنّ العرب المشركين كانوا ينظرون إلى علماء اليهود ـ الذين يتصلون بهم أحيانا ـ أنّهم أهل الذكر والكتاب والوحي الإلهي والمعرفة بالرسالات الإلهية، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك:

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنْ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴾[2].

ولا شك أنّ القرآن يكون أكثر تأثيراً في هذه الأوساط ـ أيضاً ـ عندما يتحدّث عن النبي موسى عليه السلام حديث العارف بكلِّ الخصوصيات والأُمور بحيث يفوق كتب العهدين بذلك.

٦ ـ القرآن يسعى جاداً لإعطاء فكرة أنّ هذه الرسالات إنّما تمثل امتداداً واحداً في الوحي الالهي وانتساباً واحداً إلى السماء، في الوقت نفسه يؤكّد استقلالية الرسالة الاسلامية، بمعنى: أنّها ليست تابعة ومتشعبة عن التحرك الرسالي أو

---

(١) النحل: ٤٣.

(٢) النساء: ٥١.

السياسي للرسالات الأُخرى، كما أنّها ليست عملاً إصلاحياً في إطار تلك الرسالات، بل هي من جانب مصدقة لها؛ لأنّها تمثل امتداداً للرسالات الالهية في التأريخ البشري، ولكنّها من جانب آخر وفي الوقت نفسه مهيمنة عليها أو مستقلة عنها.

قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[1].

ويتضح ذلك بشكل أفضل بملاحظة سياق الآيات السابقة عليها، والتي يشير فيها القرآن الكريم إلى نزول التوراة والإنجيل والنسبة بينهما، والتي تختلف عن نسبة القرآن إليهما.

وحديث القرآن عن عيسى عليه السلام يأتي لإزالة ما علق في أذهان الجماعة التي نزل فيها القرآن من أفكار وتصورات منحرفة عن الأنبياء تتنافى مع عصمتهم أو علاقتهم بالله أو طبيعة شخصيتهم، من هنا تحدّث القرآن الكريم عن شخصيته وظروفها أكثر ممّا تحدّث عن أعماله ونشاطاته. وهذا يمثل غرضاً وهدفاً آخر بالاضافة إلى الأغراض السابقة التي أشرنا إليها في الفصل السابق.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ

---

(١) المائدة: ٤٨.

نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(١).

وكذلك ما جاء من الحديث في القرآن عن حياة مريم وولادة عيسى في سورة آل عمران وفي سورة مريم، أو الاهتمام بمناقشة فكرة أُلوهية التي جاءت في عدّة موارد، منها ما جاء في سورة المائدة:

﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾(٢).

أُسلوب القِصّة:

لا شك أنّ أُسلوب القِصّة في القرآن الكريم جاء متميزاً عن الأُسلوب المعروف للقِصّة في التراث الأدبي والإنساني، حيث يكتفي القرآن الكريم بذكر الأحداث بشكل إجمالي أحياناً وبدون ترتيبها الزماني أحيانا أُخرى، أو الانتقال فيها من حدث إلى آخر باقتطاع جانب من الأحداث ثالثة، مضافاً إلى الاستطراد في التعرض إلى المفاهيم والحقائق والموضوعات العقائدية أو الأخلاقية أو الكونية أو الشرعية. وغير ذلك من الامتيازات والخصوصيات التي قد تثير ملاحظة كبيرة حول أُسلوب القِصّة في القرآن الكريم، تخرج القِصّة فيه عن كونها عملاً فنياً مستقلاً له أهدافه الخاصة، وتفقد بذلك القِصّة في القرآن الكريم هويتها الخاصة.

والحديث حول هذا الموضوع له جانبان:

---

(١) آل عمران: ٥٩ ـ ٦٢.

(٢) المائدة: ١١٦.

أحدهما : الجانب الفني لأُسلوب القِصّة الذي يمكن من خلاله أن يتبين أنّ القِصّة القرآنية تشتمل على جميع العناصر الأساسية في هذا العمل الأدبي الفني.

ثانيهما : تفسير وجود هذا الخلاف وهذه الظاهرة في أُسلوب القِصّة في القرآن الكريم.

أما الحديث عن الجانب الأوّل فهو حديث واسع ذو طبيعة أدبية وفنية، وقد تناولته بعض الدراسات القرآنية الأدبية الخاصة، أو أشارت إليه بعض الدراسات القرآنية العامة قديماً أو حديثاً[1]. وهو خارج عن حدود هذا البحث القرآني وأهدافه المحدودة.

وأمّا الحديث عن الجانب الثاني فانّ الملاحظة الرئيسة التي يمكن أن نذكرها ونؤكّدها هنا هي : أنّ أُسلوب القِصّة في القرآن الكريم جاء منسجماً ـ بطبيعة الحال ـ مع الأُسلوب العام للقرآن الكريم الذي يمكن التعرف على ميزاته من خلال الدراسات التي تناولت هذا الجانب في إعجاز القرآن، وهي أكثر الدراسات القديمة في الإعجاز. ويأتي في مقدّمة هذه المميزات والخصائص :

١ ـ أُسلوب مزج الموضوعات والمفاهيم المتعددة بعضها ببعضها في مقطع واحد، وذلك من أجل الخروج بصورة متكاملة لهذه المضامين مرة واحدة؛ لما ذكرنا من أنّ القرآن ليس كتاباً علمياً، بل هو كتاب تغيير وهداية ورحمة، فهو يمزج الحقائق الكونية بالمعارف العقائدية، وبالأحكام الشرعية السلوكية، وبالموعظة والإرشاد والتبشير والتحذير، والعواطف والمشاعر والأحاسيس بالعقل والإدراك من أجل أنّ يزكّي ويعلّم ليعمل الإنسان ويلتزم طريق الحقّ ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ

---

(١) انظر كتاب التصوير الفني في القرآن الكريم لسيد قطب، وكتاب الإسلام والفن، للدكتور محمود البستاني.

وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾[1].

٢ ـ تكرار الموضوعات والمفاهيم بصيغ متعددة وفي سياقات مختلفة؛ لتأكيدها أو لتحقيق مزيد من الأغراض والأهداف المتعددة، كما لاحظنا ذلك في بحث أغراض القِصّة، وفي تفسير ظاهرة تكرار القِصّة. وسوف نتبين مزيداً من ذلك عند دراسة قِصّة موسى عليه السلام بحسب مواضعها في القرآن الكريم في الفصل الآتي.

٣ ـ اختلاف أُسلوب القرآن في عرض الموضوعات بحسب الإيجاز والقصر والإطناب والتفصيل، وكذلك بحسب الإيقاع الصوتي والتركيب اللفظي للآيات الكريمة؛ وذلك مراعاة للمراحل التي مرّت بها الرسالة الإسلامية، أو في محاولة للتأثير النفسي والروحي في المخاطبين، ممّا جعل أُسلوب القرآن الكريم أُسلوباً يختلف فيه عن كلّ من النثر والشعر العربي.

٤ ـ انّ أُسلوب القرآن الكريم تأثر بالهدف العام لنزول القرآن الكريم، فإنّ هذا الهدف كما كان له تأثير على المضمون القرآني ـ كما أشرنا إليه سابقاً ـ كان له تأثير على أُسلوب القرآن الكريم أيضاً. وجاء الأُسلوب أداة موظّفة لتحقيق هذا الهدف العام.

٥ ـ نلاحظ ـ دائماً ـ أنّ ذكر القِصّة في القرآن الكريم يأتي ـ دائماً ـ مرتبطاً بسياقها والآيات السابقة أو اللاحقة لها أو كليهما، وهذا يعني: أنّ القِصّة ترتبط بشكل مباشر وتفصيلي بالقرآن الكريم أُسلوباً ومضموناً. فالارتباط هنا والتفاعل ليس على المستوى العام للهدف فحسب، بل هو ارتباط على مستوى التفاصيل في تطبيقات هذا الهدف أيضاً.

---

(١) الملك: ٢.

الفصل الرابع

قصّة عيسى عليه السلام في القرآن

قوم عيسى .

شخصيّة عيسى .

حياة عيسى .

ملاحظات عامة .

تمهيد :

بعد دراسة الظواهر الأربع السابقة للقِصّة في القرآن الكريم يحسن بنا أن نتناول قصص الأنبياء واحدة بعد أُخرى كموضوع من موضوعات التفسير الموضوعي.

ومن هذا المنطلق نجد أمامنا أبعاداً كثيرة لدرسة القِصّة في القرآن الكريم من أهمها : البعد الأدبي والتصوير، وكذلك البعد الذي يرتبط ببيان أغراض القِصّة في هذا الموضع أو ذاك، إضافة إلى الجانب التاريخي، أو السنن التي يمكن استنتاجها من القِصّة، أو المفاهيم الاجتماعية والفكرية والأخلاقية التي يمكن استنباطها منها.

وبهذا الصدد نجد أمامنا عدداً من المناهج يمكن دراسة القِصّة من خلالها، مثل :

المنهج (التقليدي) الذي سار عليه المفسرون باستعراض آيات القِصّة في القرآن الكريم وتفسيرها، وذكر الحوادث المرتبطة بها مع بيان الآراء المتعددة فيها.

والمنهج (التحليلي) للمواضع التي وردت فيها القِصّة من ناحية الهدف العام والخاص، وأسباب التكرار والأُسلوب.

والمنهج (النظري) الذي يحاول أن يستخلص النظرية العامة في القِصّة من خلال تحليل مفرداتها والجمع بينها في تصوير نظري متكامل.

والمنهج (الاجتماعي) الذي يحاول من خلال دراسة القِصّة تصوّر الحركة التغييرية السياسية والاجتماعية التي يقوم بها.

والمنهج (التاريخي) الذي يحاول عرض الأحداث التي ذكرتها القِصّة مرتبة حسب تسلسلها الزمني وكوقائع تاريخية.

وسوف نحاول في الفصول الآتية وفي القسم الثاني من الكتاب أن نطبق هذه المناهج، ولكن ضمن نماذج مختارة من القِصّة.

وفي هذا الفصل (الرابع) سوف نتناول قِصّة (موسى) كنموذج ومثال تطبيقي للمنهج التحليلي في دراسة القِصّة. وإنّما وقع الاختيار عليها؛ لأنّها أكثر قصص الأنبياء وروداً وتفصيلاً في القرآن الكريم[1].

ويمكن تطبيق هذا المنهج في دراسة تفصيلية على جميع قصص الأنبياء في القرآن الكريم. وسوف ندرس المواضع والموارد التي تحدّث القرآن الكريم فيها عن علاقة موسى مع فرعون، أو علاقته مع قومه، كحالة اجتماعية قارنت عصره، وهي: تسعة عشر موضعاً في القرآن الكريم.

كما أنّنا سوف نأخذ في هذه الدراسة الأبعاد التالية:

---

(١) سوف ندرس هذه القِصّة ـ أيضاً ـ على أساس المنهج (التاريخي) و(الاجتماعي) ـ أيضاً ـ من القسم الثاني من هذا الكتاب. كما سوف ندرس قِصّة (آدم) في الفصل الخامس من هذا القسم على أساس المنهج النظري. وقصص نوح وإبراهيم وعيسى في القسم الثاني على أساس المنهج الاجتماعي.

١ ـ التنبيه إلى أسرار تكرار القِصّة في ذلك الموضع.

٢ ـ التنبيه إلى الغرض العامّ أو الخاصّ التي سيقت له القصّة في ذلك الموضع.

٣ ـ بيان تغاير الأُسلوب في العرض والمضمون.

٤ ـ بيان العلاقة بين القِصّة في موضعها الخاص وسياقها القرآني.

٥ ـ تحليل لمضمون المقطع الذي يتحدّث عن القِصّة.

ونكتفي في هذه الدراسة بالحديث الإجمالي، ونترك معالجة التفاصيل والابعاد الأُخرى إلى الدراسات المستوعبة.

الموضع الأوّل:

الآيات التي جاءت في سورة البقرة، والتي تبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾[1] إلىٰ أن يختم بقوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[2].

---

(١) البقرة: ٤٩ ـ ٥١.

(٢) البقرة: ٧٤.

والملاحظ في هذا المقطع:

أوّلاً: جاء في سياق قوله تعالىٰ: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾[١].

ثانياً: أنّه يتناول أحداثاً معينة أنعم الله بها علىٰ بني إسرائيل مرة بعد الأُخرىٰ، مع الإشارة إلىٰ ما كان يعقب هذه النعم من انحراف في الإيمان بالله تعالىٰ، أو في الموقف العبادي الذي تفرضه طبيعة هذا الإيمان.

ثالثاً: أنّ القرآن الكريم بعد أن يختم هذا المقطع يأتي ليعالج المواقف الفعلية العدائية لبني إسرائيل من الدعوة، ويربط هذه المواقف بالمواقف السابقة لهم بقوله تعالىٰ:

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ... وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[٢].

وعلىٰ أساس هذه الملاحظة يمكننا أن نقول: إنّ هذا المقطع جاء يستهدف غرضاً مزدوجاً وهو: تذكير بني إسرائيل بنعم الله المتعدّدة عليهم، وذلك موعظة وعبرة لهم تجاه موقفهم الفعلي من ناحية، ومن ناحية أُخرىٰ كشف الخصائص الاجتماعية والنفسية العامّة التي يتصف بها الشعب الإسرائيلي للمسلمين؛ لئلّا يقع المسلمون في حالة الشك والريب في هذه المواقف، فيتصور بعضهم أنّها تنجم من رؤية موضوعية تجاه الرسالة، الأمر الذي جعل اليهود يتوقفون عن الإيمان بها، خصوصاً وأنّ اليهود هم أهل الكتاب في نظر عامة المسلمين، فأراد القرآن هنا أن

---

(١) البقرة: ٤٠.

(٢) البقرة: ٧٥ ـ ١٢٢.

يبين أنّ هذا الموقف إنّما هو موقف نفسي وذاتي ومتأثر بهذه الخصائص الروحية والاجتماعية.

وهذا الغرض فرض أُسلوباً معيناً علىٰ استعراض الأحداث؛ إذ اقتصر المقطع علىٰ ذكر الوقائع التي تلتقي مع هذا الغرض وتتناسب مع هذا الهدف، دون أن يعرض التفصيلات الأُخرىٰ للأحداث التي وقعت لموسىٰ عليه‌السلام مع فرعون أو الإسرائيليين.

الموضع الثاني:

الآيات التي جاءت في سورة النساء، والتي تبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُبِيناً ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾[1].

والملاحظ في هذا المقطع:

أوّلاً: أنّه جاء ضمن سياق عرض عام لمواقف فئات ثلاث من أعداء الدعوة الإسلامية تجاهها، وهو: موقف المنافقين، وموقف اليهود من أهل الكتاب، وموقف النصارىٰ من أهل الكتاب، وعرض الموقف الأوّل يبدأُ بقوله تعالىٰ: ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾[2] وعرض الموقف الثاني يبدأُ بقوله تعالىٰ:

---

(١) النساء: ١٥٣ ـ ١٦١.

(٢) النساء: ١٣٨.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ﴾[١].

وعرض الموقف الثالث يبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ... ﴾[٢].

ثانياً: أنّ المقطع يتناول بعض الأحداث ذات الدلالة علىٰ نبوّة موسىٰ عليه السلام، والمواثيق الغليظة المأخوذة علىٰ اليهود بصدد الامتثال والطاعة، وموقف اليهود من ذلك والمخالفات التي ارتكبوها، سواءٌ فيما يتعلق بالجانب العقيدي من الفكرة أو بالجانب العملي التطبيقي منها.

وعلىٰ أساس هاتين الملاحظتين يمكن أن نستنتج:

أنّ هذا المقطع من القِصّة جاء ليوضح أنّ موقف اليهود من الدعوة بطلبهم المزيد من الآيات والبينات ليس نابعاً من الشك بالرسالة، وإنّما هو موقف شكلي ذرائعي يستبطن الجحود والطغيان؛ ولذا نجد المقطع يكتفي بعرض هذا الطلب العجيب الذي تقدّم به اليهود الىٰ موسىٰ عليه السلام، ويضيف إلىٰ ذلك المواثيق التي أُخذت منهم في الطاعة ونكولهم عنها بمخالفاتهم العديدة، الأمر الذي يكشف عن إصرارهم علىٰ الجحود والطغيان وأنّهم يتذرعون بمثل هذه المطالب.

وقد فرض السياق العام للسورة الكريمة تكرار القِصّة علىٰ أساس إيضاح

(١) النساء: ١٥٠.

(٢) النساء: ١٧١.

ومعالجة موقف اليهود من الدعوة إلىٰ جانب إيضاح ومعالجة موقف المنافقين والنصارىٰ من أهل الكتاب؛ لأنّ هذه المواقف هي المواقف الرئيسة التي كانت تواجهها الدعوة الإسلامية حينذاك.

الموضع الثالث:

الآيات التي جاءت في سورة المائدة، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾[1].

ويلاحظ في هذا المقطع:

أوّلاً: أنّه جاء في سياق دعوة عامّة لأهل الكتاب إلىٰ الإيمان بالرسول الجديد، مع إيضاح حقيقة رسالته، ومناقشة ما يقوله اليهود والنصارىٰ، وإقامة الحجّة عليهم بذلك؛ إذ يختم هذا السياق بقوله تعالىٰ:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2].

ثانياً: أنّ المقطع يكتفي بأن يذكر دعوة موسىٰ لقومه إلىٰ دخول الأرض المقدسة؛ لأنّ دخولها كان منتهىٰ آمالهم، ولكنّهم يأبون ذلك، فيكون مصيرهم التيه أربعين سنة.

---

(١) المائدة: ٢٠ ـ ٢٦.

(٢) المائدة: ١٩.

وعلىٰ أساس هاتين الملاحظتين يمكن أن نستنتج : أنّ القرآن الكريم يبدو وكأنّه يريد أن يذكر أهل الكتاب ويفتح الطريق أمامهم؛ ليحقّقوا أهدافهم الصحيحة من وراء الدين والشريعة باستجابتهم لدعوة الإسلام، ولا يكون موقفهم كموقف قوم موسىٰ حين دعاهم إلىٰ دخول الأرض المقدسة، مع أنّها أُمنيتهم وهدفهم، فتفوتهم الفرصة السانحة، ويصيبهم التيه الفكري والعقائدي والاجتماعي في عصر نزول الرسالة، كما أصابهم التيه السياسي والاجتماعي من قبل.

ومن هنا نعرف السر الذي كان وراء اكتفاء القرآن الكريم بذكر هذا الموقف الخاص لبني إسرائيل دون غيره؛ لأنّه هو الذي يحقّق هذا الغرض خصوصاً إذا عرفنا أنّ هذه القِصّة ممّا يؤمن به اليهود والنصارىٰ. كما أنّ هذا الجانب من القِصّة لم يُذكر في القرآن الكريم إلّا في هذا الموضع.

الموضع الرابع :

الآيات التي جاءت في سورة الأعراف، والتي تبدأ بقوله تعالىٰ :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ والتي تختم بقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1].

ونلاحظ في هذا الموضع من القِصّة عدّة أُمور :

الأوّل : أنّ القِصّة جاءت في عرض قصصي مشترك مع قِصّة نوح، وهود، ولوط، وشعيب عليهم السلام، تكاد تتحدّد فيه صيغة الدعوة والتكذيب والعقاب الذي ينزل بالمكذبين.

---

(١) الاعراف : ١٠٣ و ١٧١.

الثاني: أنّ هذا العرض القصصي العام يأتي في سياق بيان القرآن الكريم لحقيقة حشر المخلوقات وصورته، وأنّهم يحشرون أُمماً بكاملهم من الجن والأنس، وعلىٰ صعيد واحد يتلاعبون بينهم، أو يتحابون: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2]. ثمّ يعرض القرآن الكريم مشاهد متعدّدة من هذا الحشر، وبعض العلاقات التي تسود الناس فيه، وأنّه تصديق لدعوة الرسل وما بشروا وأُنذروا منه.

الثالث: أنّ القِصّة علىٰ ما جاء فيها من التفصيل واستعراض للحوادث تبدأ في سرد الوقائع من حين بدء البعثة والدعوة، كما أنّها تذكر الوقائع في حدود المجابهة - التي كان يواجهها الرسول - الخارجية مع فرعون وملئه، والداخلية مع بني إسرائيل وفي إطار بيان ما ينزل بالمكذبين والمنحرفين من عذاب وعقاب واضرار.

الرابع: أنّ القِصّة تتناول في معرض حديثها عن الحوادث جوانب من المفاهيم الإسلامية العامّة والسنن التأريخية، كتأكيد أهمية (الصبر)، و(وراثة المتقين

---

(١) الأعراف: ٣٨.

(٢) الأعراف: ٤٢ - ٤٣.

للأرض)، وأنّ الرحمة لا تنال إلّا الذين اتقوا، وآتوا الزكاة، وآمنوا بآيات الله، واتّبعوا الرسول الأُمّي الذي يجدونه مكتوباً عندهم.

وعلىٰ أساس هذه الملاحظة يمكن أن نستنتج:

أنّ القِصّة جاءت منسجمة مع السياق العام للعرض القصصي، ومحقّقة لأغراضه علىٰ ما أشرنا إليه في حديثنا عن أغراض القِصّة. ومع ذلك فإنّها لا تغفل الفرصة المناسبة لتأكيد المفاهيم الإسلامية العامّة منسجمة مع الهدف القرآني العام في التربية.

كما أنّها تؤكّد بصورة خاصة نبوّة محمّد ﷺ، وكأنّها سيقت بتفاصيلها لتحقيق ربط هذه الدعوات والرسالات بهذه النهاية الخاتمة لها، وأنّ هذه المفاهيم والسنن والأهداف التي عاشتها هذه الرسالات سوف تتحقّق في نهاية المطاف في اتّباع رسالة الإسلام: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ... ﴾[1].

علىٰ أنّ هناك شيئاً تجدر الإشارة إليه، وهو: أنّ القرآن الكريم يهتم عادة بتفصيل قصص الرسل الذين هم من أُولي العزم: كنوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ عليهم السلام؛ ذلك لأغراض متعدّدة[2] يمكن أن يكون من جملتها:

أ ـ أنّ هؤلاء الأنبياء يمثلون مراحل مختلفة لرسالة السماء، وأنّهم مع صلة

---

(١) الأعراف: ١٥٧.

(٢) تحدّثنا عن هذا الموضوع بشيءٍ من التفصيل في بداية هذا الفصل.

القربىٰ والوحدة في دعوتهم نجدهم يشكّلون مواضع فاصلة في تطوّر الدعوة الدينية النازلة من السماء.

ب ـ أنّ لبعض هؤلاء الأنبياء أتباعاً وأُمماً عاشت حتىٰ نزول رسالة الإسلام ممّا يفرض الاهتمام بمعالجة أوضاعهم وعلاقتهم بدعوة الإسلام الجديدة.

ج ـ أنّ أحداثاً مفصلة ومختلفة عاشها هؤلاء مع أُممهم وأقوامهم تمثل جوانب عديدة ممّا تعيشه كلّ دعوة دينية عامّة واسعة النطاق تستهدف تغييراً جذرياً لواقع ذلك المجتمع.

الموضع الخامس:

الآيات التي جاءت في سورة يونس، والتي تبدأ بقوله تعالىٰ: ﴿ ثُمّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ ﴾[1] والتي تختم بقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَوّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطّيّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنّ رَبّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[2].

وتلاحظ في هذا المقطع القرآني من القِصّة الأُمور التالية:

أوّلاً: أنّ المقطع جاء بعد مقارنة عرضها القرآن الكريم بين مصير أتباع الحقّ والمؤمنين بالله وبالرسل والمصدقين بهم، ومصير اتباع الباطل والمفترين علىٰ الله والمكذبين بالرسل: ﴿ الّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدّنْيَا وَفِي

(١) يونس: ٧٥.

(٢) يونس: ٩٣.

الآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ... قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾(١).

ثانياً: أنّ هذا المقطع من القِصّة جاء بعد إشارة قصيرة إلىٰ نبأ نوح وقومه، تتبعها لمحة عامّة عن الرسل من بعد نوح وموقف قومهم منهم.

ثالثاً: أنّ المقطع لا يتناول من التفاصيل إلّا القدر الذي يرتبط بموقف فرعون وملئه من موسىٰ والمصير الذي لاقاه هؤلاء؛ نتيجة لإعراضهم عن الدعوة وتكذيبهم بها. كما أنّه يشير إلىٰ نهاية بني إسرائيل الطيبة بعد معاناتهم الطويلة في المجتمع الفرعوني.

وبعد هذه الملاحظة يمكن أن نستنتج:

أنّ القِصّة إنّما جاءت هنا من أجل تصديق (الحقيقة) التي ذكرها القرآن الكريم في مقارنته بين الذين آمنوا والذين يفترون علىٰ الله الكذب.

كما أنّ السياق العام هو الذي فرض مجيء القِصّة بشيء من التفصيل؛ لأنّ قِصّة موسىٰ تمثل بتفاصيلها الانقسام بين جماعتين: إحداهما مؤمنة به، والأُخرىٰ كافرة بدعوته، حيث يقع الصراع بينهما، وينتهي بغلبة المؤمنين علىٰ الكافرين، بخلاف قصص الأنبياء الآخرين، فإنّها تُعرَض في القرآن الكريم علىٰ أساس أنّ النبي لم يؤمن به إلّا النزر اليسير من الناس، ولذلك ينزل العذاب بقومه بشكل عام، فهذه القصص تمثل جانباً واحداً من المقارنة، وهو: جانب المصير الذي يواجهه المكذبون والمنحرفون، بخلاف قِصّة موسىٰ فإنّها تمثل الجانبين معاً: جانب المؤمنين

---

(١) يونس: ٦٣ ـ ٧٠.

وجانب المكذبين، ومن هنا يمكن أن نفسر مجيء قِصّة نوح في هذا الموضع مختصرة مع الإشارة العامّة لموقف بقية الأنبياء.

إضافة إلىٰ أنّ نوحاً عليه السلام يمثل بداية الأنبياء الذي لاقىٰ قومهم العذاب في قصص القرآن، وموسىٰ عليه السلام يمثل نهايتهم وختامهم.

ويؤكّد هذا التفسير لسياق القِصّة ما أشرنا إليه في الملاحظة الثالثة: من أنّ التفاصيل التي تناولها المقطع انحصرت في بيان التزام بني إسرائيل الحق، دون أن تتعرض الىٰ الجوانب الأُخرىٰ لموقفهم، والتي تمثل الانحراف والعصيان لأوامر موسىٰ عليه السلام. وهذا الالتزام يكاد يشعرنا أنّ القِصّة سيقت لإبراز صدق هذه المقارنة في التأريخ الإنساني، والتي كانت تتحكم في المواجهة التي يلاقيها الأنبياء.

ومن الممكن أن نلاحظ في تكرار القِصّة بهذا المقطع ملامح السبب الرابع من أسباب التكرار التي ذكرناها سابقاً؛ لأنّ طريقة عرض القِصّة في هذا المقطع حققت غرضاً معيناً ما كان يحصل لو عرضت القِصّة بجميع تفاصيلها كما أشرنا.

الموضع السادس:

الآيات التي جاءت في سورة هود، وهي قوله تعالىٰ:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ * وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾[1].

ويلاحظ في هذا المقطع القرآني من القِصّة ما يلي:

(١) هود: ٩٦ ـ ٩٩.

أوّلاً: أنّه جاء في عرض قصصي عام يبدأ بنوح عليه السلام ويختم بهذه اللمحة عن قِصّة موسىٰ عليه السلام.

ثـانياً: أنّ هـذا العـرض العـام جـاء في سياق الحـديث عـن مكـذّبي الرسول صلى الله عليه وآله، وما يجب أن يكون الموقف العام منهم، والمصير الذي ينتظرهم في الآخرة، كما أنّه يختم العرض بما يشبه بيان الغاية منه، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِـهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ * وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[1].

ثالثاً: أنّ المقطع جاء لمحة عابرة عن القِصّة ونهايتها عـلىٰ خـلاف قصص الأنبياء الآخرين التي جاءت في شيء من التفصيل.

ومن هنا يمكن أن نستنتج: أنّ الإتيان بهذا المقطع من القِصّة كان من أجل إكمال الصورة التي بدأها بنوح عليه السلام، وأراد القرآن الكريم أن يختمها بموسىٰ عليه السلام؛ ليظهر بذلك الارتباط الوثيق بين أُسلوب الأنبياء في الدعوة إلىٰ الله وجهودهم في سبيل هذه الغاية والمواجهة التي كانوا يلاقونها من أُممهم وأقوامهم، والنتيجة الحاسمة التي كان ينتهي إليها مصير هذه الأُمم من العذاب الشديد والعقاب القاسي.

الموضع السابع:

الآيات التي جاءت في سورة إبراهيم، وهي قوله تعالىٰ:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ

---

(١) هود: ١٠٠ ـ ١٠٢.

بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلاَءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ * وَقَالَ مُوسَىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾[١].

ويلاحظ في هذا المقطع القرآني من القِصّة ما يلي:

أوّلاً: أنّ القرآن الكريم قد مهد لهذه الإشارة بقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[٢].

ثانياً: أنّ القرآن يتحدّث بعد هذا المقطع من القِصّة عن المفاهيم العامّة التي كان يطرحها الرسل، والأساليب التي كانوا يسلكونها لتحقيق أغراضهم الرسالية.

ثالثاً: أنّ الحديث عن القِصّة في المقطع جاء بشكل مختصر، وقد أكّد المشكلة العامّة التي كان يعانيها الإسرائيليون، والنعمة العامّة التي تفضّل بها عليهم، والدعوة لشكر النعمة، وأنّ الله لا يضرّه كفرانها.

ومن هنا يمكن أن نستنتج:

أنّ المقطع قُصد به التمثيل على صدق الحقيقة التي أشار إليها القرآن الكريم من مجيء كلّ رسول بلسان قومه، حيث قد يراد بلسان القوم اللغة التي يتكلم بها القوم، ولعلّه هو الظاهر ولكن قد يراد من اللسان ـ كما يشير إليه السياق ـ هو الجوانب

---

(١) إبراهيم: ٥ ـ ٨.

(٢) إبراهيم: ٤.

والمشاكل الاجتماعية والسياسية والإنسانية المثيرة التي تستقطب اهتمام الأُمة ونظرتها ومشاعرها، فيكون تأكيدها أُسلوباً ولساناً لالفات نظر الأُمة إلىٰ الدعوة وقيمتها الروحية والاجتماعية، ولذا جاءت قِصّة موسىٰ مثالاً لهذه الحقيقة؛ لأنّه دعا لإنقاذ قومه من مشكلة اجتماعية عامّة كانوا يعانونها.

ولعل ما يؤكّد هذا القصد هو: أنّ العرض جاء بلسان الخطاب إلىٰ القوم لا بلسان الحديث عن القضايا والأحداث.

ولما كانت الغاية الحقيقية من إرسال الرسل هي: هداية الناس وإرشادهم؛ لذلك نجد القرآن الكريم ـ بعد هذه الإشارة إلىٰ قِصّة موسىٰ وتصديق الحقيقة ـ يعود فيتحدّث عن المفاهيم العامّة التي كان يطرحها الرسل علىٰ أساس أنّها الشيء المطلوب من الناس التصديق به، دون أن يكون للأُسلوب المعين المتبع في تحقيق هذا الهدف أهمية ذاتية خاصة.

الموضع الثامن:

الآيات التي جاءت في سورة الإسراء، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً * قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاَءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً * فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً * وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾[1].

---

(١) الاسراء: ١٠١ ـ ١٠٤.

ويلاحظ في هذا المقطع القرآني من القِصّة ما يلي:

أوّلاً: أنّه جاء في سياق المطاليب التعجيزية المتعدّدة التي كان يقترحها المشركون والكفار علىٰ الرسول ﷺ وعدم اكتفائهم بالقرآن الكريم دليلاً ومعجزة علىٰ النبوة: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً * وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً ﴾[1].

ثانياً: أنّ القرآن الكريم يعقّب علىٰ القِصّة بالحديث عن القرآن بقوله: ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾[2].

ثالثاً: أنّ القرآن لم يشر في هذا المقطع من القِصّة إلّا إلىٰ الآيات التسع التي جاء بها موسىٰ، ورفض فرعون دعوته ومصيره بسبب هذا الرفض.

ويمكن أن نستنتج من هذه الملاحظة:

أنّ القِصّة إنّما جاءت هنا شاهداً علىٰ أنّ هذه المطالب المتعدّدة التي صدرت من الكفار لم تكن بسبب حاجة نفسية يحسها هؤلاء الكافرون تجاه هذه المطاليب، وإنّما هو أُسلوب عام يتذرع به الكفار للتمادي في الضلال والإصرار عليه. والشاهد علىٰ ذلك قِصّة موسىٰ عليه السلام؛ إذ جاء موسىٰ بتسع آيات ومع ذلك فقد كان موقف فرعون منها موقف المكذبين، بالرغم من أنّ هذه الآيات التسع جاءت في أزمنة متعدّدة.

(١) الإسراء: ٨٩ ـ ٩٢.

(٢) الإسراء: ١٠٥.

فالسياق هو الذي فرض الإتيان بالقِصّة علىٰ أساس الاستشهاد بها، وهذا شيء تفرضه طبيعة الواقع التأريخي لرسالة موسىٰ الذي أرسله الله ـ سبحانه ـ بالآيات التسع.

كما أنّ التكرار كان بسبب تأكيد مفهومين:

الأوّل: أنّ طلبات الكفار وتمنياتهم ليست نتيجة لواقع نفسي يدعوهم إلىٰ الشك بالرسالة ويفرض عليهم التأكد من صحتها، ولا يكون عدم إتيان الرسول بطاليبهم ـ حينئذٍ ـ بسبب فقدان صلته بالسماء، وإنّما بسبب كفاية القرآن الكريم لإقامة الحجّة عليهم، كما دلت الآية الكريمة بعد القِصّة علىٰ ذلك.

الثاني: أنّ مصير هؤلاء المكذبين كمصير فرعون من الهلاك والهزيمة، وأنّ أتباع النبي يصيرون إلىٰ ما صار عليه بنو إسرائيل من وراثة الأرض.

الموضع التاسع:

الآيات التي جاءت في سورة الكهف، والتي تبدأ بقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً ﴾[1] والتي تختم بقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾[2].

---

(١) الكهف: ٦٠ ـ ٦١.

(٢) الكهف: ٨٢.

ويبدو هذا المقطع منفصلاً عن قِصّة موسىٰ المذكورة في مواضع مختلفة من القرآن الكريم؛ لأنّه يتحدّث عن جانب معين من شخصية هذا الإنسان يختلف عن الجوانب الأُخرىٰ التي تصوّرها القِصّة، والتي تظهر فيها شخصية موسىٰ النبي صاحب الرسالة والدعوة الذي يجاهد من أجل التوحيد وإقامة العدل الإلهي والدفاع عن المستضعفين، أو تتحدّد فيها معالم هذه الشخصية من خلال سيرته ونشأته الذاتية. أمّا هنا فيبدو موسىٰ الإنسان الذي يسير في طريق التعلم والحريص علىٰ تفسير الظواهر غير العادية.

وحين نلاحظ أنّ القرآن الكريم يأتي بهذا المقطع في سياق قوله تعالىٰ: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً * وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً ﴾[1] قد نستنتج: أنّ الإتيان به كان من أجل التدليل علىٰ مدىٰ مطابقة الحكمة الإلهية للمصلحة، وانسجامها مع واقع الأشياء مهما بدت غير واضحة المقصد والهدف.

فإنّ هاتين الآيتين اللتين جاء المقطع في سياقهما تشيران إلىٰ وجود حكمة إلهية من وراء تأخير العذاب، وعدم التعجيل به مع استحقاق الظالمين له، مع أنّه قد يبدو في النظرة السطحية الإنسانية أنّ التعجيل بالعذاب أوفق بالمصلحة، حيث يكون رادعاً للآخرين عن الظلم، فجاء المقطع تأكيداً لحقيقة الحكمة الإلهية ونظرتها البعيدة، وأنّ هذه الحكمة قد تخفىٰ حتىٰ علىٰ الأنبياء أنفسهم؛ إذ نلاحظ في هذا المقطع ثلاثة أعمال وتصرفات يقوم بها العبد الصالح كلّها تبدو في ظاهرها أنّها بعيدة عن

---

(١) الكهف: ٥٨ ـ ٥٩.

العدل والمصلحة. الأمر الذي يثير استغراب موسىٰ إلىٰ الحدّ الذي يجعله يتخلى عن التزامه السابق بعدم السؤال، ثمّ يشرح العبد الصالح هذه الأعمال. ويبين مدىٰ انسجامها مع العدل والمصلحة العامّة.

فالسياق العام للسورة هو الذي فرض الإتيان بالقِصّة في هذا المورد، ولا حاجة إلىٰ تكراره في مواضع أُخرىٰ مستقلاً أو في سرد الحوادث؛ لأنّه لا يحقّق الغرض الذي جيء به في هذا المورد.

الموضع العاشر:

الآيات التي جاءت في سورة مريم، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً * وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً ﴾[1].

وقد جاءت هذه اللمحة من القِصّة في عرض قصصي مشترك عن الأنبياء، وذلك بصدد تعداد مَنْ أنعم الله عليهم من عباده وأنبيائه، ومقارنتهم بمَنْ خلف بعدهم ممّن أضاع الصلاة واتّبع الشهوات: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾[2].

فالسياق العام هو الذي فرض مجيء هذه القِصّة بهذا الشكل من العرض

(١) مريم: ٥١ ـ ٥٣.

(٢) مريم: ٥٨ ـ ٥٩.

والاختصار؛ وذلك لتعداد العباد الصالحين ونعمة الله عليهم.

الموضع الحادي عشر:

الآيات التي جاءت في سورة طه، والتي تبدأ بقوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ * إِذْ رَأَىٰ نَاراً فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً ﴾[1]. والتي تختم بقوله تعالى: ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً * إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللهُ الَّذِي لا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾[2].

ونلاحظ في هذا المقطع القرآني من القِصّة الأُمور التالية:

الأوّل: أنّ القِصّة جاءت في سياق بيان أنّ القرآن الكريم لم ينزل من أجل أن يشقىٰ النبي ويتألم، لمجرد أنَ قومه لم يؤمنوا به، أو يظن في نفسه التخلف والتقصير، أو القصور عن أداء الرسالة، وإنّما نزل القرآن تذكرة لمن يخشىٰ من الناس: ﴿ طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ ﴾[3].

الثاني: أنّ هذا المقطع القرآني ينتهي بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً ﴾[4].

---

(١) طه: ٩ ـ ١٠.

(٢) طه: ٩٧ ـ ٩٨.

(٣) طه: ١ ـ ٣.

(٤) طه: ٩٩.

الثالث: أنّ المقطع يؤكد بشكل خاص ملامح معاناة النبي موسىٰ عليه السلام في سبيل الدعوة، سواءٌ في ذلك المعاناة النابعة من الذات: من الانفعالات والمخاوف النفسية، أو الحرص الشديد علىٰ نجاح الدعوة وسلامتها والتزام أبنائها بها، أو التي تكون نتيجة العقبات والمشاكل والصعوبات التي تثار عند المواجهة والتطبيق، سواءٌ من قبل الكافرين بالدعوة أصلاً أو المؤمنين بها، أو نعم الله وألطافه به من خلال ذلك.

فهناك عدّة انعكاسات لمواقف الرسالة والدعوة في ذات موسىٰ:

الأوّل: مفاجأته بالرسالة، وكذلك فزعه من المعجزة وتحول العصا إلىٰ حية.

الثاني: تردّده في الإقدام علىٰ الدعوة بمفرده، وطلبه انضمام أخيه هارون إليه.

الثالث: خوفه مع أخيه من التحدث إلىٰ فرعون ومواجهته بالدعوة، مع أنّهما أُمرا أن يقولا قولاً لينا.

الرابع: إحساسه بالخوف من سحرهم، وتوجسه من نتائج المباراة.

الخامس: موقفه مع ربّه في المواعدة، ومخاطبة الله له بأنّه قد أعجل عن قومه.

السادس: غضب موسىٰ وأسفه، وموقفه الصارم من قومه وأخيه والسامري.

وقد صاغ القرآن الكريم هذه الانفعالات من خلال طريقة العرض علىٰ الشكل الذي يؤكد معاناة النبي، ويبرز ملامح شخصيته؛ إذ كان يؤكد في طريقة العرض ضمير المخاطبة سواءٌ بين الله وموسىٰ أو بين موسىٰ والآخرين.

وإضافة إلىٰ ذلك نجد أمام موسىٰ عليه السلام مجموعة من العقبات والمشاكل الحقيقية المهمة، مثل: محاولة السحرة تضليل الناس، أو استخدام فرعون لأُسلوب القمع والتهديد به، أو مطاردة فرعون وجيشه لموسىٰ وبني إسرائيل في محاولتهم للعبور،

أو فتنة السامري للإسرائيليين وتمردهم علىٰ هارون.

وعلىٰ هذا الأساس يمكن أن نستنتج :

أوّلاً : أنّ القِصّة سيقت لإبراز معاناة الأنبياء في دعواتهم بصفتها نتيجة طبيعية لعظم المسؤولية التي يتحملونها والمشاكل التي تواجههم، وبشكل خاص تشير إلىٰ المعاناة الذاتية، ويشهد لذلك أنّ القِصّة تؤكد المواقف التي تظهر فيها انفعالات الرسول، كما أنّها تؤكد ما ينعم به الله علىٰ الرسول خلال المجابهة. وحين ينتهي عرض دور الانفعال نجد القِصّة تنتقل إلىٰ عرض الدور الآخر دون أن تقف عند المشاهد الأُخرىٰ، فهي مثلاً تنتقل من العبور إلىٰ المواعدة رأساً.

كما أنّنا حين نقارن بين هذا المورد الطويل من القِصّة والمورد السابق الطويل منها الذي جاء في سورة الأعراف، أو المورد الثالث الطويل منها الذي يأتي في سورة القصص نجد هذا المورد هو الوحيد بينها يؤكد بهذا التفصيل هذه الملامح لشخصية الرسول.

ثانياً : أنّ السبب الذي فرض علىٰ القِصّة هذا الأُسلوب الخاص من العرض والتصوير واقتضىٰ في نفس الوقت بعض التكرار هو : مخاطبة الرسول وتخفيف الألم والعذاب النفسي اللذين كان يعانيهما تجاه الدعوة، ويدلنا علىٰ ذلك ما لاحظناه في الأمر الأوّل والثاني؛ إذ استهدف القرآن الكريم إبراز الصلة الوثيقة بين ما يعانيه رسول الله صلى الله عليه وآله في دعوته وبين ما كان الأنبياء السابقون يعانونه : ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ ﴾ ﴿ كَذٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً ﴾[1].

---

(١) طه : ٢ ـ ٣ و ٩٩.

الموضع الثاني عشر :

الآيات التي جاءت في سورة الشعراء، والتي تبدأ القِصّة فيه بقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۞ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلاَ يَتَّقُونَ ﴾(١) والتي تختم بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ وإِنَّ رَبَّكَ لَـهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾(٢).

ويلاحظ في هذا المقطع القرآني من القِصّة الأُمور التالية :

الأوّل : أنّ المقطع من القِصّة جاء بعد عتاب من الله سبحانه لرسوله محمّد صلى الله عليه وآله في إجهاده لنفسه وإرهاقها حتىٰ يكاد يقتلها بسبب أنّ قومه لم يكونوا مؤمنين ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾(٣) وبعد هذا العتاب يذكر القرآن الكريم قانوناً اجتماعياً يتحكم في التأريخ، وهو : أنّ كل ذكر جديد من الله ـ سبحانه ـ يُحدِث ردة فعل كهذه لدىٰ الكفار ؛ إذ يقاومونه ويعرضون عنه، ولم يكن ذلك بسبب عجز الله سبحانه وعدم قدرته علىٰ إخضاعهم لرسالته وإرغامهم عليها ﴿ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۞ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾(٤).

الثاني : أنّ القرآن الكريم ينبه ـ بعد هذا التفسير العام للتأريخ ـ إلىٰ أنّ هذا

---

(١) الشعراء : ١٠ ـ ١١.

(٢) الشعراء : ٦٧ ـ ٦٨.

(٣) الشعراء : ٣.

(٤) الشعراء : ٤ ـ ٥.

الموقف العام للكافرين تجاه الذكر لم يكن بسبب عدم توفر الدليل الصالح علىٰ صحة الرسالة ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَـهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾[1].

الثالث : أنّ هذا المقطع جاء في عرض قصصي مشترك للأنبياء يتميّز بطابع خاص إلىٰ جانب هذا التفسير التأريخي للموقف العام، وهو : أنّ كلّ نبي نجده يبذل جهده في استعمال الأساليب المختلفة من الكلام اللين الهادئ أو التذكير بالنعم الالٰهية الظاهرة التي يتمتّع بها أقوامهم، وقد يعضد أقواله هذه ـ أحياناً ـ بآية ومعجزة سماوية تشهد له علىٰ صحة دعوته، ومع كلّ ذلك تكون النتيجة واحدة، ويختتم بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾.

الرابع : أنّ القرآن الكريم بعد أن يأتي علىٰ نهاية العرض القصصي المشترك هذا يرجع فيتحدّث عن (آيات الكتاب المبين) بوصفها شيئاً مرتبطاً بالسماء ومتصفاً بجميع الصفات التي تبرز هذا الاتصال، ممّا يسمح لذوي البصيرة والقلوب النيرة أن يطلعوا علىٰ واقعه ويهتدوا به.

وعلىٰ أساس هذه الملاحظة يمكن أن نستنتج : أنّ القِصّة جاءت لتحقيق هدفين ضمن عرض قصصي مشترك :

أحدهما : إيضاح القانون الطبيعي الذي يتحكم في مواجهة الافكار الالٰهية الجديدة، وإنّ تلكؤ الكافرين في الإيمان بالدعوة الإسلامية ورسالتها ليس بسبب تخلف الرسول ﷺ عن المستوىٰ الأمثل للعمل والنضال، أو نتيجة لعدم توفر الأدلة الكافية علىٰ صحة الرسالة، وإنّما هو قانون عام له أسبابه النفسية والاجتماعية

---

(١) الشعراء : ٧ ـ ٩.

الأُخرىٰ، وخضعت له الرسالات الإلهية كلّها.

والآخر: أنّ النهاية سوف تكون لعباد الله الصالحين، وإنّهم هم الذين يرثون الأرض، ومن أجل أن تلفت النظر إلىٰ هذا الهدف ـ الذي قد يضيع ضمن العرض العام للقصص ـ وتأكيده جاءت قِصّة موسىٰ بشيء من التفصيل الذي يؤكّد هذا الجانب، ويمكن ـ أيضاً ـ أن نفسر التكرار للقصة بأحد السببين التاليين أو كليهما:

الأوّل: تأكيد هدف وغرض سبق أن استهدفه القرآن الكريم من قِصّة موسىٰ نفسها في سورة طـه، وهو: التخفيف من الألم الذي يعانيه الرسول صلّى الله عليه وآله، وهذا هو السبب الثاني من الأسباب الموجبة للتكرار.

الثاني: أنّ القِصّة استهدفت غرضاً دينياً جديداً وهو: تصوير المفهوم الإسلامي العام عن طبيعة موقف المشركين تجاه الرسالة، وإنّه هو الموقف العام لهم تجاه كل الرسالات، وهذا هو السبب الأوّل من الأسباب الموجبة للتكرار.

وقد جاءت القِصّة في أُسلوبها وطريقة عرض الأحداث فيها منسجمة مع أهدافها وأغراضها؛ إذ تناولت جوانب معينة من حياة موسىٰ، وعرضت بشكل خاص تنتهي عند هذه الاهداف، فنجد الحديث في القِصّة مثلاً ينتهي عند العبور، كما أنّها أكّدت شكل الأُسلوب الذي سار عليه موسىٰ وهارون في مخاطبة فرعون.

الموضع الثالث عشر:

الآيات التي جاءت في سورة النمل، والتي تبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ

قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾[1] والتي تختم بقوله تـعالىٰ : ﴿ وَجَـحَدُوا بِهَـا وَاسْـتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُـهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾[2].

ويلاحظ في هذا المقطع القصير الذي يتحدّث عن القِصّة بشكل عام الأُمور التالية :

الأوّل : أنّ القِصّة جاءت في سياق التحدث عن الكـافرين بـالآخرة ومـا سوف يلاقون من عذاب، وعن واقع نزول القرآن وتلقيه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَـهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُـمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ * وَإِنَّكَ لَتُلَقَّـى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾[3].

الثاني : أنّ هذا المقطع يختم بقوله تعالىٰ : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

الثالث : أنّ المقطع علىٰ اختصاره يكاد يختص بـذكر الحـوادث والآيـات الغيبية، فهو يذكر المناداة ومعجزة العصا واليد، ويشير إلىٰ الآيات التسع.

وهذه الملاحظة تدعونا لأن نستنتج : أنّ القِصّة سيقت لإظهار حـقيقة مـن الحقائق التي ترتبط بالجانب النفسي للمجتمع الذي يواجه دعوة جـديدة، وهـذه الحقيقة هي : أنّ نكران الآخرة وعدم الإيمان بها إنّما يـقوم عـلىٰ أسـاس نـفسي وعاطفي، لا علىٰ أساس موضوعي ودراسة علمية، هـذا الشيء الذي عـبر عـنه القرآن الكريم بالجحود؛ وذلك لأنّ الدراسة الموضوعية كانت تـقتضي أن تـنتهي الحالة بالناس إلىٰ الإيمان بالآخرة بعد أن أكّدت الآيات والمعاجز ارتباط النبي بعالم

---

(١) النمل : ٧.

(٢) النمل : ١٤.

(٣) النمل : ٤ ـ ٦.

الغيب، وهذه الآيات والمعاجز توفر عناصر اليقين عند الإنسان العادي الذي يعيش وضعية عاطفية مستوية ومستقيمة، ونتيجة لذلك (وهو عدم الإيمان بالرغم من توفّر الأدلة والحجج) ينزل العذاب بالكافرين بعد أن لم يستجيبوا للحقائق والأدلة.

ولا يفوتنا أن ننبه هنا إلىٰ نكتة دقيقة ولطيفة وشاهد يؤكّد لنا أنّ القِصّة سيقت لهذا الغرض، هو: أنّ القرآن يصوّر لنا خوف موسىٰ من العصا بالشكل الذي يدعوه إلىٰ الهروب، وفي هذا تأكيد أنّ هذا التحول في حالة (العصا) كان نتيجة تدخل غيبي؛ ولذا ترك أثره علىٰ موسىٰ نفسه، لا أنّه نتيجة عمل بشري قام به موسىٰ، ولعلّ السر في تكرار القِصّة هنا هو السببان التاليان:

الأوّل: أنّ المقطع جاء في عرض قصصي مشترك لتأكيد تفسير إسلامي لموقف المنكرين للقرآن، والدعوة علىٰ أساس عدم كفاية الآيات والمعجزات لاثباتها، وقد عرفنا في هذا التأكيد السبب الثاني للتكرار كما سبق.

الثاني: أنّ القِصّة جاءت مختصرة في تصوير الموقف، وهذا يدعونا إلى أن نرىٰ أنّها وردت في مرحلة متقدّمة من مراحل الدعوة حين كان يعالج القرآن مشاكلها بشكل مختصر، وهذا ما ذكرناه سبباً ثالثاً للتكرار.

الموضع الرابع عشر:

الآيات التي جاءت في سورة القصص، والتي تبدأ بقوله تعالىٰ: ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأ مُوسىٰ وَفِرْعَون بِالحَقّ لِقَوْم يُؤمِنُون ﴾[1] والتي تختم بقوله تعالىٰ:

---

(١) القصص: ٢.

﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾[1].

ويلاحظ في هذا المقطع من القِصّة الأُمور التالية :

الأوّل : أنّ السورة تكاد تبدأ بالقصة دون أن يسبقها شيء عدا آيتين : هما قوله تعالى : ﴿ طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾[2].

الثاني : أنّ القرآن الكريم يأتي في سياق القِصّة بعدها بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * ... وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَحْمَةً مِن رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِن نَذِيرٍ مِن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[3].

الثالث : أنّ القِصّة تذكر تفاصيل وحوادث ذات طابع شخصي من حياة موسى عليه السلام تكاد تكون جانبيه، كحادثة القائه في اليم، واستنقاذ آل فرعون له، ورفضه للرضاعة من غير أمه، وقتله الرجل ثم محاولته قتل الآخر وهروبه، ثم قضية زواجه مع تفاصيلها.

الرابع : أنّ القِصّة تبدأ بذكر أحكام عامّة عن الوضع الاجتماعي حينذاك، والغاية المنوخاة من تغييره ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ *

---

(١) القصص : ٤٢.

(٢) القصص : ١ ـ ٢.

(٣) القصص : ٤٤ ـ ٤٦.

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾[1].

وعلىٰ ضوء هذه الملاحظة يمكن أن نستنتج أنّ القِصّة استهدفت أمرين

الأوّل: أنّ القرآن الكريم كتاب منزل من الله سبحانه وتعالىٰ، وأنّه ليس من صنع محمد ﷺ، وهذا هو الهدف الرئيس من سرد القِصّة في هذا المورد ـ كما يشير إلىٰ ذلك الأمر الأوّل والثاني ـ وهو في نفس الوقت من الأهداف المهمة التي يؤكدها القرآن الكريم في مناسبات كثيرة لما له من تأثير في سير الدعوة.

وبهذا يمكن أن نفسر ما أشرنا إليه في الأمر الثالث، لأنّ في الحديث عن تفاصيل جانبية من حياة الرسول دلالة قوية علىٰ ارتباط القرآن بعالم الغيب؛ إذ من المفروض أن لا يطّلع علىٰ هذه التفاصيل جميع الناس؛ لأنّها تعيش حياة الرسول حين كان فرداً عادياً في المجتمع، علىٰ خلاف تفاصيل حياته بعد النبوة، فإنّها ـ بطبيعة الحال ـ تكون معروفة للناس لتسليط الأضواء علىٰ شخصيته من قبلهم.

الثاني: إيضاح أنّ عملية التغيير الاجتماعي قد تتم حتىٰ في أبعد الظروف ملاءمةً واحتمالاً، وفي ظل أشد ظروف الظلم والاضطهاد والطغيان، بحيث تبدأ عملية التغيير من نقطة هي في منتهىٰ البعد والضعف نسبة لهذه العملية، وذلك نتيجة للإيمان الواعي بالله، وما يستلزمه ذلك من الإصرار والصبر علىٰ تبني العقيدة والنضال من أجلها.

ولذلك نجد القِصّة في هذا الموضع تؤكّد ملامح الاضطهاد الذي كان يعانيه المجتمع بشكل عام والإسرائيليون بشكل خاص، كما تؤكّد الوضع القاسي الذي كان يعيشه شخص الرسول في كونه منذ البداية في معرض خطر الموت والهلاك، ثم مطارداً من المجتمع بتهمة القتل العدواني، ثم مهاجراً وبعيداً عن المواقع الطبيعية

---

(١) القصص: ٤ ـ ٦.

لحركة التغيير. وفي هذين الهدفين ما يبرر التكرار الذي يمكن أن يكون بالسبب الأوّل أو الثاني من أسباب التكرار.

الموضع الخامس عشر:

الآيات التي جاءت في سورة غافر والتي تبدأ بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾[1] والتي تختم بقوله تعالى: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾[2].

ويلاحظ في هذا المقطع من القِصّة ما يلي:

الأوّل: أنّ السورة التي جاء فيها هذا المقطع تتحدّث في مطلعها عن مصير من يجادل في آيات الله: ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴾[3].

الثاني: أنّ القِصّة تأتي في سياق أنّ هذا المصير للمجادلين نتيجة طبيعية لعنادهم بعد أن تأتيهم البينات فيكفرون بها ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ ﴾[4].

---

(١) غافر: ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) غافر: ٤٤ ـ ٤٥.

(٣) غافر: ٤.

(٤) غافر: ٢١.

الثالث: أنّ القِصّة تؤكّد بشكل واضح موقف مؤمن آل فرعون والأساليب التي استعملها في دعوته لهم، ومحاولته ذات الجانب العاطفي في هدايتهم مع تذكيرهم بمصير من سبقهم من الأُمم، وما ينتظرهم نتيجة لعنادهم وكفرهم. وقبالة هذا الموقف يظهر لنا موقف فرعون وقد تمادىٰ في غيّه حتىٰ حاول أن يطّلع علىٰ إله موسىٰ عليه السلام.

وعلىٰ هذا الأساس يمكن أن نستنتج: أنّ القِصّة سيقت لتوضيح مصير من يجادل في آيات الله، مع إيضاح الفرق بين الأُسلوب الذي يستعمله الداعية والأُسلوب الذي يستعمله المجادل والكافر، وأن العذاب لا ينزل بهؤلاء إلّا بعد أن تتم الحجّة عليهم.

وأنّ الهداية والحجّة من الوضوح بحيث يمكن أن يقتنع بها حتىٰ أُولئك الأشخاص الذين يعيشون في الوسط المتنفذ والمترف ـ كما هو الحال بالنسبة إلىٰ مؤمن آل فرعون ـ كما أنّها تؤكّد الدور الذي يجب أن يقوم به الإنسان تجاه هداية الآخرين، وأنّها مسؤولية شرعية وإنسانية يتحمّلها كل الناس حتىٰ لو كان من الوسط الضال، كما فعل مؤمن آل فرعون.

وفي هذا العرض القرآني للقصة يظهر لنا ـ أيضاً ـ هذا الامتزاج بين الرحمة والغفران، وبين النقمة وشدة العذاب: ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾[1] فإنّ الله سبحانه يجعل تحت متناول عقول عباده وأنظارهم آياته وأدلته وبراهينه، ويتوسل إلىٰ هدايتهم بالوسائل المختلفة التي لا تشل عنصر الاختيار فيهم، كلّ ذلك رحمة منه وفسحة لقبول التوبة والاستغفار، ولكنّه مع ذلك لا يعجزه شيء عن عقابهم أو القدرة علىٰ إنزال العذاب فيهم.

---

(١) غافر: ٣.

الموضع السادس عشر :

الآيات التي جاءت في سورة الزخرف، والتي تبدأ بقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[١] والتي تختم بقوله تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ ﴾[٢].

ويلاحظ في هذا الموضع من القِصّة ما يلي :

أنّ هذا المقطع القرآني من القِصّة جاء في سياق الحديث عن شبهة أثارها الكفار في وجه الدعوة ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[٣].

وقد ناقش القرآن الكريم هذه الشبهة من ناحيتين :

الأُولىٰ : أنّ الرزق والمال ليس عطاء بشرياً أو نتيجة للجهد الشخصي والذكاء والعبقرية والفضل فحسب، بل هو عطاءٌ إلهي له غاية اجتماعية تنظيمية ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[٤].

---

(١) الزخرف : ٤٦.

(٢) الزخرف : ٥٥ ـ ٥٦.

(٣) الزخرف : ٣١.

(٤) الزخرف : ٣٢.

الثانية : أنّ هذا العطاء الإلهي المادي ليس مرتبطاً بالفضل والامتياز عند الله والقربىٰ لديه، كما هو شأن العطاء البشري ومقاييسه، بل قد يكون العكس هو الصحيح ﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾[1]. فإنّ ظاهر هذه الآية الكريمة هو: أنّه لولا مخافة أن يكون الناس أُمة واحدة علىٰ الكفر لجعلنا لمن يكفر بالرحمن... وقد يكون ذلك تعويضاً لهم عمّا يلحق بهم من الخسران والعذاب في الدار الآخرة، فإنّ «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[2].

ومن هذه الملاحظة يمكن أن نستنتج :

أنّ هذا المقطع جاء ليضرب مثلاً واقعياً تجاه هذه الحقيقة والفكرة التي عاشتها الإنسانية، وهذا المثل هو : موقف فرعون من دعوة موسىٰ؛ إذ نزلت الرسالة علىٰ شخص فقير مطارد، ويتعرّض قومه إلىٰ الاضطهاد، مع أنّ فرعون هو صاحب الثروة والغنىٰ.

والذي يؤكد هذا الاستنتاج أنّ المقطع يتبنىٰ إظهار جانب ما يتمتع به فرعون من ثروة وملك وغنىٰ في مقابل موسىٰ الذي هو مهين علىٰ حد تعبير فرعون، وليس في المواضع الأُخرىٰ من القرآن ما يشبه هذا الموقف من فرعون.

فالتكرار فرضه السياق القرآني إلىٰ جانب تحقيق الغرض الديني.

الموضع السابع عشر :

الآيات التي جاءت في سورة الذاريات، وهي قوله تعالىٰ :

---

(١) الزخرف : ٣٣.

(٢) من لا يحضره الفقيه ٤ : ٣٦٣.

﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۞ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۞ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾[1].

وهذه اللمحة العابرة التي تأتي في عرض قصصي مشترك عن الأنبياء من أجل تعداد آيات الله سبحانه، وإثبات صدق الدعوة والنبوة، نجد أُسلوب السورة المكية الذي كان يفرض طبيعة الموقف فيه ذكر القصص القرآنية بشكل مختصر وعابر.

الموضع الثامن عشر:

الآية التي جاءت في سورة الصف: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾[2].

وفي هذه إشارة إلىٰ موقف معين لبني إسرائيل تجاه موسىٰ، إذ آذوه مع علمهم بنبوته، وقد كان الغرض من الإشارة إليه هو: مقارنة موقف أصحاب النبي ﷺ تجاهه وموقف هؤلاء تجاه موسىٰ، وكذلك موقف بني إسرائيل تجاه عيسىٰ عليه السلام من تكذيبه ومخالفته بعد أن جاءهم بالبينات، وفي هذا تذكير لأصحاب النبي وتحذير لهم من الوقوع في مثل هذه المواقف والمخالفات. وإلّا لساروا في طريق النفاق، وكانوا ممّن يقولون ما لا يفعلون، كما يدل السياق علىٰ ذلك.

---

(١) الذاريات: ٣٨ ـ ٤٠.

(٢) الصف: ٥.

الموضع التاسع عشر :

الآيات التي جاءت في سورة النازعات، وهي قوله تعالىٰ :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ * فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَىٰ * فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ * فَحَشَرَ فَنَادَىٰ * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَىٰ * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ ﴾(١).

وهذا المقطع القرآني من القِصّة ينسجم مع السياق العام للسورة التي تتحدّث عن الحشر، وتصوّر قدرة الله سبحانه علىٰ تحقيقه (بزجرة) واحدة؛ لأنّ الموقف فيها ينتقل من دعوة موسىٰ لفرعون مع ما له من القدرة الدنيوية وتكبره وتجبره وعظمته، إلىٰ أخذ الله ـ سبحانه ـ له نكال الآخرة والأُولىٰ، فإنّ هذا الإنتقال يصوّر لنا هذه السرعة والقدرة في الحشر والنشر؛ ولذا نجد القرآن يرجع بعد إعطاء هذه الصورة الواقعية عن القدرة إلىٰ الاستدلال علىٰ هذه الحقيقة بأدلة وجدانية : ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾(٢).

---

(١) النازعات : ١٥ ـ ٢٥.

(٢) النازعات : ٢٧ ـ ٣٢.

الفصل الخامس

قِصّة آدم عليه السلام

الحكمة في استخلاف آدم.

مسيرة الاستخلاف.

استخلاف آدم (الإنسان)

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ

النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[١].

هذه الآيات العشر تتحدّث عن قصّة استخلاف الله ـ سبحانه ـ لآدم علىٰ الأرض. وقضية الاستخلاف تشتمل علىٰ جانبين وفصلين:

الفصل الأوّل منهما يتناول معنىٰ الاستخلاف والحكمة والعلة فيه، وهذا الجانب من قِصّة آدم يكاد ينحصر ذكره والحديث عنه في القرآن الكريم بهذا المقطع القرآني فقط[٢]، وإن كان من الممكن أن تكون جميع آيات الاستخلاف مؤكّدة هذا المقطع وإن لم تكن بهذا الوضوح.

والفصل الثاني يتناول العملية التي تمّ بها انجاز هذا الاستخلاف، وهذا الجانب تحدّث عنه القرآن في مواضع متعددة لابدّ من دراستها بشكل عام.

---

(١) البقرة: ٣٠ ـ ٣٩.

(٢) بالاضافة إلىٰ بعض الاشارات الأخرىٰ مثل قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ الأحزاب: ٧٢. وأيضاً قوله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ الأنعام: ١٦٥، وكذلك فاطر: ٣٩، وأيضاً الزخرف: ٦٠، وغيرها.

الحكمة في استخلاف آدم

وما يعنينا من دراسته في هذا الفصل من هذا المقطع القرآني الشريف هو: الآيات الأربع الأُولى، والبحث فيها، وما تضمّنته من معلومات ومفاهيم له جانبان:

الجانب الأوّل: تحديد الموقف العام تجاه دراسة هذا المقطع القرآني، وتصوير ما يعنيه القرآن الكريم منه.

الجانب الثاني: تحديد الموقف القرآني والاسلامي تجاه بعض المفاهيم التي جاءت في المقطع بالشكل الذي ينسجم مع المسلمات القرآنية، والظهور اللفظي لهذا المقطع بالخصوص.

وفيما يتعلق بالجانب الأوّل نجد الشيخ محمّد عبدة تبعاً لبعض الدارسين المتقدمين يذكر رأيين مختلفين بحسب الشكل وإن كانا يتفقان في النهاية حسب ما يقول.

الرأي الأوّل: هو الذي سار عليه السلف واختاره الشيخ محمّد عبدة نفسه أيضاً، حيث يقول: «وأمّا ذلك الحوار في الآيات فهو: شأن من شؤون الله مع ملائكته، صوّره لنا في هذه الفصول بالقول والمراجعة والسؤال والجواب، ونحن لا نعرف حقيقة ذلك القول، ولكنّنا نعلم أنّه ليس كما يكون منا، وأنّ هناك معاني قُصِدت إفادتها بهذه العبارات، وهي: عبارة عن شأن من شؤونه ـ تعالى ـ قبل خلق آدم، وأنّه كان يعدّ له الكون، وشأن مع الملائكة يتعلق بخلق نوع الإنسان، وشأن آخر في بيان كرامة هذا النوع وفضله»[1].

---

(١) المنار ١: ٢٥٤.

والرأي الثاني: الرأي الذي سار عليه الخلف من المحقّقين وعلماء الإسلام الذين بذلوا جهدهم في دراسة القرآن والتعرف علىٰ مقاصده، حيث يرون أنّ هذه القصّة بمواقفها المختلفة إنّما جاءت علىٰ شكل التمثيل ومحاولة تقريب النشأة الآدمية الإنسانية وأهميتها وفضيلتها، وأنّ جميع المواقف والمفاهيم التي جاءت فيها يمكن تحديد المعاني والأهداف التي قصدت منها.

فالرأي الأوّل والثاني وإن كانا يلتقيان في حقيقة تنزيه الله ـ سبحانه وتعالىٰ وعالم الغيب ـ عن مشابهة المخلوقات المادية المحسوسة في هذه المواقف المختلفة، وكادا يتفقان ـ أيضاً ـ في الأهداف والغايات العامّة المقصودة من هذا المقطع القرآني، ولكنّهما مع ذلك يختلفان في إمكانية تحديد بعض المفاهيم التي وردت في المقطع، كما سوف يتضح ذلك عند معالجتنا للمقطع القرآني من جانبه الآخر.

وفيما يتعلق بالجانب الثاني نجد السلف انسجاماً مع موقفهم في الجانب الأوّل يقفون من دراسة المقطع موقفاً سلبياً، ويكتفون ـ في بعض حالات الانفتاح ـ بذكر الفوائد الدينية التي تترتب علىٰ ذكر القرآن لهذا المقطع القرآني (المتشابه).

وقد أشار الشيخ محمّد عبدة إلىٰ بعض هذه الفوائد، ونكتفي بذكر فائدتين منها:

الأُولىٰ: أنّ الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ في عظمته وجلاله يرضىٰ لعبيده ان يسألوه عن حكمته في صنعه، وما يخفىٰ عليهم من أسراره في خلقه.

الثانية: أنّ الله ـ سبحانه ـ لطيف بعباده رحيم بهم، يعمل علىٰ معالجتهم بوجوه اللطف والرحمة، فهو يهدي الملائكة في حيرتهم، ويجيبهم عن سؤالهم عندما يطلبون الدليل والحجّة بعد أن يرشدهم إلىٰ واجبهم من الخضوع والتسليم ﴿... إنّي

أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ ...﴾[1].

وأمّا الخلف فقد حاولوا إيضاح المفاهيم التي وردت في هذا المقطع القرآني ليتجلىٰ بذلك معنىٰ استخلاف الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ لآدم، وسوف نعرض هنا أهم هذه المفاهيم المرتبطة بقضية الاستخلاف، مع ذكر الآراء المختلفة فيها، ثم نتحدّث عن المعنىٰ العام للمقطع القرآني:

مفاهيم حول الاستخلاف:

١ ـ الخلافة:

الخليفة بحسب اللغة: مَنْ خلف مَنْ كان قبله، وقام مقامه وسد مسده، وتستعمل ـ أيضاً ـ بمعنىٰ النيابة[2]، ومن هذا المنطلق يُطرَح هذا السؤال: لماذا سُمّي آدم خليفة؟

توجد هنا عدّة آراء:

الأوّل: أنّ آدم سُمّي خليفة لأنّه خلف مخلوقات الله ـ سبحانه ـ في الأرض، وهذه المخلوقات إمّا أن تكون ملائكة، أو يكونوا الجن الذين أفسدوا في الأرض، وسفكوا فيها الدماء، كما رُوي عن ابن عباس، أو يكونوا آدميين آخرين قبل آدم هذا.

الثاني: أنّه سُمّي خليفة لأنّه وابناءه يخلف بعضهم بعضاً، فهم مخلوقات تتناسل، ويخلف بعضها بعضاً، وقد نُسِب هذا الرأي إلىٰ الحسن البصري.

---

(١) البقرة: ٣٠ ـ ٣١.

(٢) مفردات الراغب: مادة (خلف).

الثالث: أنّه سُمّي خليفة لأنّه يخلف الله سبحانه في الأرض، وفي تفسير هذه الخلافة لله ـ سبحانه ـ وارتباطها بالمعنىٰ اللغوي تعدّدت الآراء واختلفت:

أ ـ إنّه يخلف الله في الحكم والفصل بين الخلق.

ب ـ يخلف الله ـ سبحانه ـ في عمارة الأرض واستثمارها: من إنبات الزرع، وإخراج الثمار، وشق الأنهار وغير ذلك[1].

ج ـ يخلف الله ـ سبحانه ـ في العلم بالأسماء، كما ذهب إلىٰ ذلك العلّامة الطباطبائي[2].

د ـ يخلف الله ـ سبحانه ـ في الأرض بما نفخ الله فيه من روحه، ووهبه من قوة غير محدودة، سواءٌ في قابليتها أو شهواتها أو علومها، كما ذهب إلىٰ ذلك الشيخ محمّد عبدة[3].

ولعلّ المذهب الثالث هو الصحيح من هذه المذاهب الثلاثة، خصوصاً إذا أخذنا في مدلوله معنىٰ واسعاً لخلافة الله في الأرض بحيث يشمل مجمل الآراء الأربعة التي أشرنا إليها في تفسيره؛ لأنّ دور الإنسان في خلافة الله في الأرض يمكن أن يشمل جميع الأبعاد والصور التي ذكرتها هذه الآراء، فهو يخلف الله في الحكم والفصل بين العباد بما منح الله هذا الإنسان من صلاحية الحكم بين الناس بالحق ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعْ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ... ﴾[4].

---

(١) هذا الرأي وما قبله ذكره الطوسي في التبيان ١ : ١٣١.

(٢) الميزان ١ : ١١٨.

(٣) المنار ١ : ٢٦٠.

(٤) ص : ٢٦.

وكذلك يخلفه في عمارة الأرض واستثمارها: من إنبات الزرع، وإخراج الثمار والمعادن، وتفجير المياه، وشق الأنهار وغير ذلك ﴿... فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[١] ولعلّ أكثر موارد استعمال (خلائف وخلفاء واستخلاف) أُريد منه هذا النوع من الاستخلاف: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[٢].

وكذلك يخلف الإنسان الله في الأرض بعلمه بالأسماء والمعارف والكمالات التي يتكامل من خلالها ويسير بها نحو الله تعالىٰ.

ولعلّ ما ذكره الشيخ محمّد عبدة إنّما يمثل السر في منح الإنسان هذه الخلافة؛ لأنّه يتميز بهذه المواهب والقوىٰ والقابليات.

٢ ـ كيف عرف الملائكة أن الخليفة يفسد في الأرض؟

لقد ذكر المقطع القرآني أنّ جواب الملائكة عن إخبارهم بجعل آدم خليفة في الأرض أنّهم تساءلوا عن سبب انتقاء هذا الخليفة الذي يفسد في الأرض، فكيف عرف الملائكة هذه الخصيصة في هذا الخليفة؟ وهنا عدة آراء:

الأوّل: أنّ الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أعلمهم بذلك؛ لأنّ الملائكة لا يمكن أن يقولوا هذا القول رجماً بالغيب وعملاً بالظن[٣].

الثاني: أنّهم قاسوا ذلك علىٰ المخلوقات التي سبقت هذا الخليفة الذي سوف

---

(١) الملك: ١٥.

(٢) الأعراف: ٧٤.

(٣) التبيان ١: ١٣٢.

يقوم مقامها، كما يشير إلىٰ ذلك بعض الروايات والتفاسير[١].

الثالث: أنّ طبيعة الخلافة تكشف عن ذلك بناءً علىٰ الرأي الأوّل من المذهب الثالث في معنىٰ الخلافة: إذ يفترض الاختلاف والنزاع، ولازمه الفساد في الأرض وسفك الدماء، كما ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره.

الرابع: أنّ طبيعة الخليفة نفسه تقتضي ذلك، وهنا رأيان:

أ ـ إنّ المزاج المادي والروحي لهذا المخلوق الذي يريد أن يجعله الله خليفة، والأساس الاجتماعي للعلاقات الأرضية التي سوف تحصل بين أبناء هذه المخلوقات هي التي جعلت الملائكة يعرفون ذلك، يقول العلّامة الطباطبائي: «إنّ الموجود الأرضي بما أنّه مادي مركب من القوىٰ الغضبية والشهوية، والدار دار التزاحم محدودة الجهات وافرة المزاحمات، مركباتها في معرض الانحلال، وانتظاماتها واصطلاحاتها مظنة الفساد ومصب البطلان، لا تتم الحياة فيها إلّا بالحياة النوعية، ولا يكمل البقاء فيها إلّا بالاجتماع والتعاون، فلا تخلو من الفساد وسفك الدماء»[٢].

ب ـ إنّ الارادة الإنسانية بما أُعطيت من اختيار يتحكم في توجيهه العقل بمعلوماته الناقصة هي التي تؤدي بالإنسان إلىٰ أن يفسد في الأرض ويسفك الدماء، قال محمّد عبدة: «أخبر الله الملائكة بأنّه جاعل في الأرض خليفة، نفهم من ذلك أنّ الله يودع في فطرة هذا النوع الذي يجعله خليفة أن يكون ذا إرادة مطلقة واختيار في عمله غير محدود، وأنّ الترجيح بين ما يتعارض من الأعمال التي تعن له تكون

---

(١) المصدر السابق: ١٣٣.

(٢) الميزان ١: ١١٥، والتفسير الكبير ١: ١٢١، والميزان ١: ١١٩.

بحسب علمه، وأنّ العلم إذا لم يكن محيطاً بوجوه المصالح والمنافع فقد يوجه الأرادة إلىٰ خلاف المصلحة والحكمة، وذلك هو الفساد، وهو معين لازم الوقوع؛ لأنّ العلم المحيط لا يكون إلّا لله تعالىٰ»[١].

ويبدو أنّ الرأي الأوّل هو الصحيح؛ لأنّ الله تعالىٰ لابدّ أنّه قد أعلم الملائكة بحال وطبيعة هذا المخلوق الذي ينتهي به الحال إلىٰ هذه النتائج.

وأمّا الرأي الصحيح في بيان طبيعة نفس الخليقة فلعلّه هو: بيان أمرين:

أحدهما: الخصوصية المادية التي أشار إليها العلّامة الطباطبائي، والهوىٰ في طبيعة هذا الخليفة.

والآخر: هو أنّ هذا الإنسان مريد ومختار يعمل بإرادته، كما ذكر الشيخ محمّد عبدة، ويمكن أن نفهم ذلك من قرينة تعقيب الملائكة أنفسهم، الأمر الذي استدعىٰ التوضيح الإلهي الذي يشتمل علىٰ بيان الخصوصية التي تجعل هذا الموجود مستحقاً لهذه الخلافة، وهو: العلم.

٣ ـ الأسماء:

والأسماء من المفاهيم التي وقع الخلاف فيها بين علماء التفسير حول حقيقتها والمراد منها، والآراء فيها تسير في الاتجاهين التاليين:

الأوّل: أنّ المراد من الأسماء الألفاظ التي سمّىٰ الله ـ سبحانه ـ بها ما خلقه من أجناس وأنواع المحدثات وفي جميع اللغات، وهذا الرأي هو المذهب السائد عند علماء التفسير، ونسب إلىٰ ابن عباس وبعض التابعين[٢].

---

(١) المنار ١: ٢٥٦.

(٢) التبيان ١: ١٣٨، والتفسير الكبير ٢: ١٧٦.

وينطلق أصحاب هذا المذهب في تفكيرهم إلىٰ أنّ الله ـ سبحانه ـ كان قد علّم آدم جميع اللغات الرئيسة، وقد كان ولده علىٰ هذه المعرفة، ثمّ تشعبت بعد ذلك، واختص كلّ جماعة منهم بلغة غير لغة الجماعة الأُخرىٰ.

الثاني: أنّ المراد من الأسماء: المسميات، أو صفاتها وخصائصها، لا الألفاظ، وحينئذٍ فنحن بحاجة إلىٰ القرينة القرآنية أو العقلية التي تصرف اللفظ إلىٰ هذا المعنىٰ الذي قد يبدو أنّه يخالف ظاهر الإطلاق القرآني لكلمة (الأسماء) الدالة علىٰ الألفاظ. ويمكن أن نتصوّر هذه القرينة في الأُمور التالية:

أ ـ كلمة (علم) التي تدلّ علىٰ أنّ الله ـ سبحانه ـ منح آدم (العلم) وبما «أنّ العلم الحقيقي إنّما هو إدراك المعلومات أنفسها، والألفاظ الدالة عليها تختلف باختلاف اللغات التي تجري بالمواضعة والاصطلاح، فهي تتغير وتختلف، والمعنىٰ لا تغيير فيه ولا اختلاف»[1]. فلابدّ أن يكون هو المسميات التي هي المعلومات الحقيقية.

ب ـ قضية التحدي المطروحة في الآيات الكريمة؛ ذلك أنّ الأسماء حين يقصد منها الألفاظ واللغات فهي إذن من الأشياء التي لا يمكن تحصيلها إلّا بـ التعليم والاكتساب، فلا يحسن تحدي الملائكة بها؛ إذ لا دلالة في تعليمها آدم علىٰ وجود موهبة خاصة فيه يتمكن بها من معرفة الأسماء، وهذا علىٰ خلاف ما اذا قلنا: إنّ المقصود منها المسميات، فإنّها ممّا يمكن إدراكه ـ ولو جزئياً ـ عن طريق إعمال العقل الذي يُعدّ موهبة خاصة، فيكون لمعرفة آدم بها دلالة علىٰ موهبة خاصة منحه الله إياها.

---

(١) المنار ١: ٢٦٢.

قال الطوسي: «إنّ الأسماء بلا معان لا فائدة فيها، ولا وجه لإثارة الفضيلة بها»(١).

وقال الرازي: «وذلك لأنّ العقل لا طريق له إلىٰ معرفة اللغات البتة، بل ذلك لا يحصل الا بالتعليم، فإن حصل التعليم حصل العلم به، وإلّا فلا. أمّا العلم بحقائق الأشياء فالعقل متمكن من تحصيله، فصحّ وقوع التحدي فيه»(٢).

ج ـ عجز الملائكة عن مواجهة التحدي؛ لأنّ هذه الأسماء لو كانت الفاظاً لتوصل الملائكة إلىٰ معرفتها بأنباء آدم لهم بها، وهم بذلك يتساوون مع آدم، فلا تبقىٰ له مزية وفضيلة عليهم، فلا بدّ لنا من أن نلتزم بأنّها أشياء تختلف مراتب العلم بها، الأمر الذي أدىٰ إلىٰ أن يعرفها آدم معرفة خاصة تختلف عن معرفة الملائكة لها حين إخباره لهم بها، وهذا يدعونا لأن نقول: إنّها عبارة عن المسميات لا الالفاظ، قال العلامة الطباطبائي بصدد شرح هذه الفكرة: «إنّ قوله تعالىٰ: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ ... ﴾ يشعر بأنّ هذه الأسماء أو أنّ مسمياتها كانت موجودات أحياءً عقلاءً محجوبين تحت حجاب الغيب، وأنّ العلم بأسمائهم كان غير العلم الذي عندنا بأسماء الأشياء، وإلّا كانت بأنباء آدم إياهم بها عالمين بها وصائرين مثل آدم مساوين معه»(٣).

وحين يصل أصحاب هذا الاتّجاه إلىٰ هذه النقطة نجدهم يحاولون أنْ يتعرفوا علىٰ العلاقة التي صحّحت استعمال لفظ (الأسماء) محل لفظ (المسميات) ويذكرون لذلك قرائن متعدّدة:

---

(١) التبيان ١ : ١٣٨.

(٢) التفسير الكبير ٢ : ١٧٦.

(٣) الميزان ١ : ١١٧.

١ ـ فالرازي يرىٰ هذه المناسبة والعلاقة في مصدر اشتقاق الاسم، فإنّه أمّا أن يكون من السمة أو السمو «فإن كان من السمة كان الاسم هو العلامة، وصفات الأشياء خصائصها دالة علىٰ ماهياتها، فصحّ أن يكون المراد من الأسماء: (الصفات) وإن كان من السمو فكذلك؛ لأنّ دليل الشيء كالمرتفع علىٰ ذلك الشيء، فإنّ العلم بالدليل حاصل قبل العلم بالمدلول»[١] والصفات تدل علىٰ الموصوف، وهي كالظاهر المرتفع بالنسبة إلىٰ الشيء.

٢ ـ والشيخ محمّد عبدة يرىٰ هذه العلاقة في «شدّة الصلة بين المعنىٰ واللفظ الموضوع له، وسرعة الانتقال من أحدهما إلىٰ الآخر».

٣ ـ كما أنّه يرىٰ في ذلك وجهاً آخر يكاد يغنيه عن هذه العلاقة، لأنّ الاسم قد يطلق إطلاقاً صحيحاً علىٰ صورة المعلوم الذهنية (أي ما به يُعلمُ الشيءُ عند العالم) فاسم الله مثلاً هو ما به عرفناه في أذهاننا، لا نفس اللفظ بحيث يقال: إنّنا نؤمن بوجوده، ونسند إليه صفاته. فالأسماء هي ما يعلم بها الأشياء في الصور الذهنية، وهي العلوم المطابقة للحقائق الخارجية الموضوعية، والاسم بهذا المعنىٰ هو الذي جرىٰ الخلاف بين الفلاسفة في أنّه عين المسمىٰ أو غيره، الأمر الذي يدعونا لأن نقول: إنّ للاسم معنىٰ آخر غير اللفظ؛ اذ لا شك بأنّ اللفظ غير المعنىٰ.

والاسم بهذا الاطلاق ـ أيضاً ـ هو الذي يتبارك ويتقدس: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَىٰ﴾[٢]؛ اذ لا معنىٰ لأن يكون اللفظ هو الذي يتبارك ويتقدس[٣].

---

(١) المصدر السابق: الموضوع نفسه.

(٢) الأعلىٰ: ١.

(٣) المنار ١: ٢٦٢.

ماهي هذه الاسماء؟

وبعد هذا كلّه نجدهم يختلفون في حقيقة هذه المسميات، والمراد منها في الآية الكريمة:

فالعلّامة الطباطبائي يراها -كما في النص السابق- موجودات أحياء عقلاء، ولعلّه يفهم هذه الحياة لها والعقل من قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾؛ لأنّه استعمل ضمير الجماعة المختص بمَنْ يعقل، وهذا الاتجاه نجده في بعض الآراء المتقدّمة علىٰ العلّامة الطباطبائي نفسه، كما في حكاية الطبري عن الربيع بن زيد أنّهما قالا: علّمه الله أسماء ذريته وأسماء الملائكة[١].

ولكن الشيخ الطوسي يناقش فكرة الاعتماد علىٰ الضمير بقوله: «وهذا غلط؛ لما بيناه من التغليب وحسنه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ...﴾[٢]».

والشيخ محمّد عبدة يرى أنّها تعني: جميع الأشياء وجميع ما يتعلق بعمارة الدين والدنيا من غير تحديد ولا تعيين[٣] ولعلّ هذا الاتجاه هو الذي يظهر من كلام الشيخ الطوسي والرازي في تفسيرهما[٤]، وحكاه الطبرسي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعليه أكثر المتأخرين.

وهذا الرأي هو الصحيح الذي ينسجم مع واقع الإنسان من ناحية، وصحة

---

(١) التبيان ١ : ١٣٨.

(٢) النور : ٤٥.

(٣) المنار ١ : ٢٦٢.

(٤) التبيان ١ : ١٣٨، والتفسير الكبير ٣ : ١٧٦.

التميز به والفضل علىٰ الملائكة؛ لأنّه يُعبِّرُ عن خط التكامل الذي يمكن أن يسير به الإنسان، ويمتاز به علىٰ جميع المخلوقات.

نظرية الاستخلاف:

بعد أن تعرّفنا آراء العلماء المختلفة تجاه المفاهيم البارزة التي جاءت في هذا المقطع القرآني، لابدّ لنا من معرفة الصورة الكاملة للمقطع القرآني؛ لنستخلص نظرية استخلاف آدم منها.

صورتان لهذه النظرية:

وهنا صورتان لهذه النظرية بينهما كثير من وجوه الشبه:

الأُولىٰ: الصورة التي ذكرها السيد رشيد رضا في تفسيره عن أُستاذه الشيخ محمّد عبدة، حيث يرىٰ أنّ القِصّة وردت مورد التمثيل؛ لغرض تقريبها من تناول أفهام الخلق لها؛ لتحصل لهم الفائدة من معرفة حال النشأة الأُولىٰ.

وعلىٰ هذا الأساس يمكننا أن نفهم كثيراً من جوانب هذه المحاورة، والالفاظ التي استعملت فيها دون أن نتقيد بالمعنىٰ اللغوي العرفي لها:

١ ـ فالله ـ سبحانه ـ أخبر الملائكة بأنّه بصدد أن يجعل في الأرض خليفة عنه، يودع في فطرته الإرادة المطلقة التي تجعله قادراً علىٰ التصرف حسب قدرته ومعلوماته التي لا يمكن أن تصل إلىٰ مرتبة الكمال.

وعلىٰ أساس هذه الإرادة المطلقة، وهذا العلم الناقص عرف الملائكة أنّ هذا الخليفة سوف يسفك الدماء ويفسد في الأرض؛ لأنّ ذلك نتيجة طبيعية لما يتمتع به من إرادة مطلقة يسير بها حسب علمه الذي لايحيط بجميع جوانب المصالح والمنافع، الأمر الذي قد يوجه الإرادة إلىٰ خلاف الحكمة والمصلحة، فيقع في الفساد.

وحين عرف الملائكة ذلك تعجبوا من خلق الله لهذا النوع من الخلق الذي يسفك الدماء ويفسد في الأرض، فسألوا الله سبحانه (عن طريق النطق، أو الحال، أو غير ذلك) أن يتفضل عليهم بإعلامهم عن ذلك وبيان الحكمة لهم.

وكان الجواب لهم عن ذلك هو بيان وجوب الخضوع والتسليم لمن هو بكل شيء عليم؛ لأنّ هذا هو موقف جميع المخلوقات تجاهه؛ لأنّه العالم المحيط بكل المصالح والحكم.

٢ ـ على أنّ هذا النوع من الخضوع والتسليم الذي ينشأ من معرفة الملائكة بإحاطة الله بكلّ شيءٍ ربّما لا يذهب الحيرة، ولا يزيل الاضطراب، وإنّما تسكن النفس بإظهار الحكمة، والسر الذي يختفي وراء الفعل الذي حصل منه تعجب الملائكة.

ولذلك تفضل الله ـ سبحانه ـ على الملائكة بأن أوضح لهم السر، وأكمل علمهم ببيان الحكمة في هذا الخلق، فأودع في نفس آدم وفطرته علم جميع الأشياء من غير تحديد ولا تعيين، الأمر الذي جعل لآدم امتيازاً خاصاً استحق به الخلافة عن الله في الأرض.

ويظهر هذا الامتياز حين تقارن بين الإنسان وبين المخلوقات لله سبحانه، فقد نطق الوحي ودل العيان والاختبار على أنّ الله ـ تعالى ـ خلق العالم أنواعاً مختلفة، وخصّ كلّ نوع منها بقدرات ومواهب، ولكنّ الإنسان مع ذلك يختلف عنها في أنّه لـمّا منحه الله من قدرات ومواهب ليست لها حدود معينة، لا يتعداها، على خلاف بقية المخلوقات.

فالملائكة ـ الذي لا تتمكن من معرفة حقيقتهم الا عن طريق الوحي ـ لهم وظائف محدودة ـ كما دلت الآيات والاحاديث ـ فهم يسبّحون الله ليلاً ونهاراً،

وهم صافون ويفعلون ما يؤمرون إلىٰ غير ذلك من الأعمال المحدودة.

٣ ـ وما نعرفه بالنظر والاختبار عن حال الحيوان والنبات والجماد، فإنّها بين ما يكون لا علم له ولا عمل كالجماد، أو يكون له عمل معين يختص به نفسه دون أن يكون له علم وإرادة، ولو فرض أنّ له علماً أو إرادة فهما لا أثر لهما في جعل عملهما مبيناً لحكم الله وسنته في الخلق، ولا وسيلة لبيان أحكامه وتنفيذها.

فكل حي من الأحياء المحسوسة والغيبية ـ عدا الإنسان ـ له استعداد محدود وعلم إلهامي محدود وما كان كذلك لا يصلح أن يكون خليفة عن الذي لا حد لعلمه وإرادته.

وأمّا الإنسان فقد خلقه الله ضعيفاً وجاهلاً، ولكنّه علىٰ ضعفه وجهله فهو يتصرف في الموجودات القوية، ويعلم جميع الاسماء بما وهبه الله من قدرة علىٰ النمو والتطور التدريجي في إحساسه ومشاعره وإدراكه، فتكون له السلطة علىٰ هذه الكائنات يسخرها ثم يذللها بعد ذلك كما تشاء قوته الغريبة التي يسمونها العقل، ولا يعرفون حقيقتها ولا يدركون كنهها، فهذه القوة نجدها تغني الإنسان عن كل ما وهب الله للحيوان في أصل الفطرة والإلهام من الكساء والغذاء والاعضاء والقوة.

فالانسان بهذه القوة غير محدود الاستعداد، ولا محدود الرغائب، ولا محدود العلم، ولا محدود العمل.

وكما أعطاه الله ـ تعالىٰ ـ هذه المواهب أعطاه أحكاماً وشرائع حدد فيها أعماله وأخلاقه، وهي في الوقت نفسه تساعده علىٰ بلوغ كماله؛ لأنّها مرشد للعقل الذي كان له كل تلك المزايا.

وبهذا كله استحق الإنسان خلافة الله في الارض، وهو خلق المخلوقات بها، ونحن نشاهد في عصرنا آثار هذه الخلافة بما فعله الإنسان من تطوير وسيطرة

وتصرف في الكون.

وحين أودع الله في فطرة آدم علم الاشياء من غير تحديد عرض الاشياء على الملائكة وأطلعهم عليها إطلاعاً إجمالياً، ثم طالبهم بمعرفتها والانباء بها واذا بهم يظهرون التسليم والخضوع والعجز والاعتراف.

وعند ذلك أمر الله آدم أن ينبئهم بالاشياء ففعل، وذلك لتتكشف لهم الحقيقة بأوضح صورها وأشكالها.

وأمّا الصورة الثانية : فهي التي عرضها العلّامة الطباطبائي، وهي تختلف عن الصورة السابقة في بعض الجوانب، ونحن نقتصر على ذكر جوانب الخلاف التي سبق أن أشرنا إلى بعضها :

١ ـ إنّ خليفة الله موجود مادي مركب من القوى الغضبية والشهوية، والدار دار تزاحم محدودة الجهات وافرة المزاحمات، لا يمكن أن تتم فيها الحياة إلّا بإيجاد العلاقات الاجتماعية، وما يستتبعها من تصادم وتضاد في المصالح والرغبات، الأمر الذي يؤدي إلى الفساد وسفك الدماء.

٢ ـ إنّ الملائكة حين تعجبوا كانوا يرون أنّ الغاية من جعل الخلافة هي : أن يحكي الخليفة مستخلفه بتسبيحه بحمده وتقديسه له بوجوده، والأرضية أي : الانتماء إلى الأرض وشهواتها لا تدعه يفعل ذلك، بل تجره إلى الفساد والشر، والغاية من هذا الجعل يمكن أن تتحقق بتسبيحهم بحمد الله وتقديسهم له.

٣ ـ إنّ آدم استحقّ الخلافة؛ لقدرته على تحمل السر الذي هو : عبارة عن تعلم الأسماء التي هي : أشياء حية عاقلة محجوبة تحت حجاب الغيب محفوظة عند الله. وقد أنزل الله كلّ اسم في العالم بخيرها وبركتها، واشتق كلّ ما في السماوات والأرض من نورها وبهائها، وإنّهم على كثرتهم وتعددهم لا يتعددون تعدد

الافراد، وإنّما يتكاثرون بالمراتب والدرجات.

الموازنة بين الصورتين:

ويحسن بنا أن نوازن بين هاتين الصورتين؛ لنخرج بالصورة الكاملة التي نراها صحيحة لتصوير هذا المقطع القرآني، ولنأخذ النقاط الثلاث التي خالف فيها العلّامة الطباطبائي الشيخ محمّد عبدة:

في النقطة الأُولىٰ: قد نجد العلّامة الطباطبائي علىٰ جانب من الحقّ، كما نجد الشيخ محمّد عبدة علىٰ جانب آخر منه؛ ذلك لأنّ العلّامة الطباطبائي أكّد ما فطر عليه الإنسان من غرائز وعواطف مختلفة، وهذا شيءٌ صحيح لما لهذه الغرائز من تأثير كبير في حصول التزاحم والتنافس في المجتمع الإنساني، الأمر الذي يؤدي إلىٰ الفساد وسفك الدماء، وأساس هذه الغرائز غريزة حبّ الذات التي جاءت الأديان السماوية ـ ومنها الاسلام ـ من أجل توجيهها توجيهاً صالحاً يدفعها إلىٰ تجنب الفساد والسفك للدماء، ولذلك نجد القرآن الكريم يؤكّد دور الهوىٰ في الفساد وسفك الدماء.

والشيخ محمّد عبدة حين يغفل هذا الجانب ـ في مسألة معرفة الملائكة للفساد وسفك الدماء ـ يؤكّد جانباً آخر له دور كبير ـ أيضاً ـ في الفساد وسفك الدماء، وهو: الإرادة المطلقة والمعرفة الناقصة، فلولا هذه الإرادة ولولا هذا النقص في العلم لما كان السفك والفساد.

وعلىٰ هذا الأساس يمكن أن نعتبر كلا الجانبين مؤثراً في معرفة الملائكة لنتيجة هذا الخليفه.

وفي النقطة الثانية: نجد الشيخ محمّد عبدة يحاول أن يذكر أنّ الشيء الذي أثار السؤال لدىٰ الملائكة هو: قضية أنّ هذا المخلوق المريد ذا العلم الناقص لا بدّ أن

يكون مفسداً في الأرض وسافكاً للدماء، ومن ثمّ لا مبرر لجعله خليفة مع ترتب هذه الآثار علىٰ وجوده.

وأمّا العلّامة الطباطبائي فهو يحاول أن يذكر في أنّ الشيء الذي أثار السؤال هو: أنّ الخليفة لابدّ أن يكون حاكياً للمستخلف (الله) بخلاف الملائكة؛ إذ يمكن أن يحكوا المستخلف من خلال تسبيحهم وحمدهم.

وفي هذه النقطة قد يكون الحقّ إلىٰ جانب العلّامة الطباطبائي؛ ذلك لأنّ التفسير الإلهي لهذه الخلافة كان من خلال بيان امتياز هذا الخليفة بالعلم، كما قد يفهم من الآية، وأشار إليه الشيخ محمّد عبدة، مع أنّ هذا التفسير لا ينسجم مع النقطة التي ذكرها الشيخ عبدة؛ لأنّه افترض في أصل إثارة السؤال وجود العلم الناقص إلىٰ جانب الإرادة، فكيف يكون هذا العلم ـ بالشكل الذي ذكره الشيخ محمّد عبدة، وهو علم ناقص علىٰ أي حال ـ جواباً لهذا السؤال؟

نعم لو افترضنا أنّ العلم الذي علّمه الله ـ تعالىٰ ـ لآدم هو الرسالات الإلهية الهادية للصلاح والرشاد والحقّ والكمال ـ كما أشار الشيخ محمّد عبدة إلىٰ ذلك في النقطة الثالثة ـ فقد يكون جواباً لسؤال الملائكة؛ لأنّ مثل هذا العلم يمكن أن يصلح شأن الإرادة والاختيار الذي أثار المخاوف، ولكن هذا خلال الظاهر؛ إذ يفهم من ذيل هذا المقطع الشريف: ﴿... فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] أنّ هذا الهدىٰ الذي هو الرسالات الإلهية الهادية جاء بعد هذا التعليم لآدم.

وأمّا لو افترضنا أنّ الذي أثار السؤال لدىٰ الملائكة هو الإرادة والاختيار

---

(١) البقرة: ٣٨.

فقط ـ كما اختاره أستاذنا الشهيد الصدر قدس سره ـ أصبح بيان الامتياز بالعلم والمعرفة جواباً للسؤال، وتهدئة للمخاوف التي اثارت لدىٰ الملائكة؛ لأنّ هذا العلم يهدي إلىٰ الله تعالىٰ، ويتمكن هذا الإنسان بفطرته من أن يسير في طريق التكامل.

وأمّا العلّامة الطباطبائي فقد اعتبر الانتماء إلىٰ الأرض والتزاحم بين المصالح فيها هو الذي يؤدي إلىٰ الفساد، ويكون العلم بالاسماء طريقاً وعلاجاً لتجنب هذه الأخطار؛ لأنّ الأسماء بنظره موجودات عاقلة حية.

وفي النقطة الثالثة: يفترض الشيخ محمّد عبدة أنّ العلم هو الذي جعل الإنسان مستحقاً للخلافة، وهذا العلم ذو بعدين:

أحدهما: العلوم الطبيعية التي يمكن للإنسان أن يحصل عليها من خلال التجارب والبحث، والتي يتمكن الإنسان بواسطتها من الهيمنة علىٰ العالم المادي الذي يعيش فيه، كما نشاهد ذلك في التأريخ وفي عصرنا الحاضر بشكل خاص.

والآخر: العلم الإلهي المنزل من خلال الشريعة، والذي يمكن للإنسان من خلاله أن يعرف طريقه إلىٰ الكمالات الإلهية، ويشخص المصالح والمفاسد والخير والشر.

وهذا التصور ينسجم مع إطلاق كلمة (العلم) في الآية الكريمة، ومع فرضية أنّ الجواب الإلهي للملائكة إنّما هو تفسير لجعل الإنسان خليفة؛ لأنّ الجواب ذكر خصوصية (العلم) كامتياز لآدم علىٰ الملائكة.

كما ينسجم هذا التصور مع ما أكّده القرآن الكريم في مواضع متعدّدة من دور العقل ومدركاته في حياة الإنسان ومسيرته وتسخير الطبيعة له، وكذلك دور الشريعة في تكامل الإنسان ووصوله إلىٰ أهدافه.

ولكن هذا التصور نلاحظ عليه ـ ما ذكرنا ـ من أنّ الشريعة قد افترض

نزولها في هذا المقطع الشريف بعد هذا الحوار: ﴿... فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١).

كما أنّ الظاهر أنّ الإرادة والاختيار يمثلان ميزة أُخرىٰ لآدم والإنسان بشكل عام علىٰ الملائكة، وأنّ هذه الخصوصية هي التي أثارت مخاوف الملائكة وسؤالهم، كما نبهنا عليه وأشار إليه الشيخ محمّد عبدة.

وبذلك يكون استحقاق آدم للخلافة وجود هاتين الخصوصيتين فيه.

وأمّا العلّامة الطباطبائي فهو افترض أنّ هذا الاستحقاق إنّما كان باعتبار العلم بالأسماء، ولكنّه فسر الأسماء بأنّها موجودات عاقلة لها مراتب من الوجود، ويمكن من خلال العلم بها أن يسير الإنسان في طريق التكامل.

ولكن هذا التفسير فيه شيءٌ من الغموض، ولعلّه يعتمد علىٰ بعض المذاهب الفلسفية التي تؤمن بوجود العقول التي هي واسطة في العلم والخلق والتكامل بين الله ـ تعالىٰ ـ والوجود ومنه الإنسان.

نعم، هناك فرضية تشير إليها بعض الروايات المروية عن أهل البيت عليهم السلام وهي: أنّ الأسماء عبارة عن أسماء العناصر والذوات الإنسانية الموجودة في سلسلة امتداد الجنس البشري من الأنبياء والربانيين والأحبار الذين جعلهم الله ـ تعالىٰ ـ شهوداً علىٰ البشرية والإنسانية، واستحفظهم الله ـ تعالى ـ علىٰ كتبه ورسالاته(٢).

ويكون وجود هذا الخط الإنساني الإلهي الكامل هو الضمان الذي أعدّه الله

---

(١) البقرة: ٣٨.

(٢) ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ...﴾ المائدة: ٤٤.

ـ تعالىٰ ـ لهداية البشرية والسيطرة علىٰ الهوىٰ، وتوجيه الإرادة نحو الخير والصلاح والكمال.

ويكون العلم بهذه الأسماء معناه: تحقق وجودها في الخارج باعتبار مطابقة العلم للمعلوم، وتعليم آدم الاسماء إنّما هو إخباره بوجودها.

أو يكون العلم بالأسماء معناه: معرفة هذه الكمالات التي يتصف بها هؤلاء المخلوقون، وهي صفات وكمالات تمثل نفحة من الصفات والكمالات الإلهية، خصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ كلمة (الأسماء) في القرآن تطلق علىٰ الصفات الإلهية بنحو من الاطلاق.

والظاهر أنّ هذه الفرضية هي التي ذهب إليها استاذنا الشهيد الصدر قدس سره.

مسيرة الاستخلاف

وهي : مسيرة تحقق الخلافة في الأرض، فيقع الكلام فيه أيضاً في جانبين :

الأوّل : تشخيص مجموعة من المفاهيم والتصورات التي وردت في القرآن الكريم حول هذه المسيرة.

الثاني : بيان الصورة النظرية الكاملة حول هذه المسيرة.

الجانب الأوّل ـ المفاهيم والتصوّرات :

السجود لآدم :

في البداية يواجهنا السؤال عن الأمر الإلهي للملائكة في السجود لآدم، إذ إنّه في الشريعة المقدسة يحرم السجود لغير الله تعالىٰ، فكيف صحّ أن يطلب من الملائكة السجود لآدم ؟ وما هو المقصود من هذا السجود ؟

وهذا السؤال ينطلق من فكرة، وهي : أنّ السجود بحدّ ذاته عبادة، والعبادة لغير الله شرك وحرام؛ إذ تقسم الافعال العبادية إلىٰ قسمين :

أحدهما : الأفعال التي تتقوم عباديتها بالنية وقصد القربة كالإنفاق (الزكاة والخمس)، أو الطواف بالبيت الحرام، أو القتال، أو غير ذلك، فإنّ هذه الأفعال إذا توفرت فيها نية القربة وقصد رضا الله ـ تعالىٰ ـ تكون عبادة لله تعالىٰ، وبدون ذلك لا تكون عبادة، ومن ثمّ فهي تتبع نيتها في تشخيص طبيعتها.

والآخر : الأفعال التي تكون بذاتها عبادة، ويذكر (السجود) منها؛ لأنّه عبادة بذاته، ولذا يحرم السجود لغير الله؛ لأنّه يكون بذاته عبادة لغير الله.

ولكن هذا التصور غير صحيح : فإنّ السجود شأنه شأن الأفعال الأخرىٰ التي تتقوم عباديتها بالقصد والنية، ولذا فقد يكون السجود سخرية واستهزاء، وقد

يكون لمجرد التعظيم، وقد يكون عبادة إذا كان بنيتها.

ولذا نجد في القرآن الكريم في بعض الموارد الصحيحة يستخدم السجود تعبيراً عن التعظيم كما في قِصّة إخوة يوسف، قال تعالىٰ:

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرّوا لَهُ سُجّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً ... ﴾[١].

وإنّما كان السجود لغير الله حراماً؛ لأنّه يستخدم عادة في العبادة، فأُريد للإنسان المسلم أن يتنزه عمّا يوهم العبادة لغير الله تعالىٰ.

وأمّا إذا كان السجود للتعظيم وبأمر من الله تعالىٰ، فلا يكون حراماً، بل يكون واجباً.

ولكن يبقىٰ السؤال: أنّ هذا السجود ماذا كان يعني؟

فقد ذكر بعض المفسرين ـ انطلاقاً من فكرة أنّ هذا الحديث لا يراد منه إلّا التربية والتمثيل، وليس المصاديق المادية لمفرداته ومعانيه ـ أنّ السجود المطلوب إنّما هو: خضوع هذه القوىٰ المتمثلة بـالملائكة للإنسـان؛ لأنّ الله ـ تـعالىٰ ـ أودع في شخصية هذا الإنسان وطبيعته من المواهب ما تخضع له هذه القوىٰ الغيبية، وتتأثر بفعله وإرادته ﴿ إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبّنَا اللهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ... ﴾[٢].

كما أنّه يمكن أن يكون هذا السجود سجوداً حقيقياً بالشكل الذي يتناسب مع الملائكة، ويكون طلب السجود منهم لآدم من أجل أن يعبّروا بهذا السجود عن

---

(١) يوسف: ١٠٠.

(٢) فصلت: ٣٠.

خضوعهم أو تقديسهم هذا المخلوق الإلهي المتميز، بما أودع الله فيه من روحه، ووهبه العلم والإرادة والقدرة على التكامل والصعود إلى الدرجات الكمالية العالية.

ولعلّ هذا المعنى الثاني هو الظاهر من مجموعة الصور والآيات القرآنية التي تحدّثت عن هذا الموضوع؛ إذ نلاحظ أنّ امتناع إبليس عن السجود إنّما كان بسبب الاستكبار لتفضيل هذا المخلوق؛ لأنّه كان يطرح في تفسير عدم السجود أنّه أفضل من آدم ﴿ ... قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾(١). كما أنّ القرآن الكريم يشير إلى أنّ الإنسان الصالح المخلص يكون خارجاً عن قدرة إبليس ومكره، ومن ثمّ فهو مهيمن على هذه القوة الشيطانية:

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾(٢).

إبليس من الملائكة أم لا؟

وهناك سؤال آخر عن حقيقة إبليس إنّه من الملائكة أو الجن؟ حيث ورد في القرآن الكريم وصفه بكلا هذين العنوانين:

فاذا كان من الملائكة فكيف يعصي الله تعالى، وقد وصف الله تعالى الملائكة بأنهم: ﴿ ... عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾(٣) لا يخالفون و﴿ ... لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ... ﴾(٤)، وهم بأمره يعملون.

وإذا كان من الجن فلماذا وضع إلى جانب الملائكة في هذه القصّة؟

---

(١) الأعراف: ١٢.

(٢) ص: ٨٢ ـ ٨٣.

(٣) الأنبياء: ٢٦.

(٤) التحريم: ٦.

وتذكر عادة للاستدلال على أنّ ابليس من الجن وليس من الملائكة، و يختلف عن طبيعة الملائكة عدّةُ شواهد، إضافة إلى وصف القرآن الكريم له بذلك، ومن هذه الشواهد: أنّ أوصاف الملائكة لا تنطبق على ابليس؛ لأنّهم وُصفوا بالطاعة وقد تمرد إبليس، ووصفوا بأنّهم رسل: ﴿... جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ...﴾[1]، ومن هذه الشواهد: أنّ الملائكة لا ذرية لهم؛ إذ لا يتناسلون ولا شهوة لهم، وأمّا إبليس فله ذرية كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك: ﴿... أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي ...﴾[2].

ولكن هذه الشواهد لا تكفي في عدّ إبليس من الجن في مقابل الملائكة؛ وذلك لأنّ وصف القرآن الكريم لابليس بأنّه من الجن يمكن أن يكون من ناحية أنّ بعض الملائكة يوصف بأنّه جن، إن لم يكن هذا الوصف عاماً لهم؛ لأنّ الجن مأخوذ من الخفاء والستر، والملائكة مستورون عن عوالمنا ومشاهدنا.

كما نلاحظ هذا الوصف في نسبة الملائكة إلى الله تعالى عند المشركين؛ إذ افترضوا أنّ الملائكة هم بنات الله ـ على ما ورد في القرآن الكريم ـ وفي نفس الوقت يصف القرآن الكريم هؤلاء الملائكة بأنهم جنة: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَه وَبَيْنَ الْجِنَّة نَسَباً ...﴾[3].

كما أنّ الطاعة ليست صفة لازمة لعنوان الملائكة، بل نلاحظ في القرآن الكريم حصول التمرد لدى بعض الملائكة، كما في الملكين هاروت وماروت[4].

---

(١) فاطر: ١.

(٢) الكهف: ٥٠.

(٣) الصافات: ١٥٨.

(٤) البقرة: ١٠٢.

وكذلك موضوع (الذرية) فإنّها يمكن أن تكون من الخصوصيات التي اُختص بها إبليس؛ ليقوم بهذا الدور الخاص له في حياة الإنسان.

نعم، يوجد في بعض الروايات ما يشير إلىٰ أنّ ابليس كان من الجن وليس من الملائكة، وإنّما كان يعاشرهم، وأنّهم كانوا يظنون أنّه منهم، ولكن لا يمكن الاعتماد علىٰ مثل هذه الروايات.

هل خلق آدم للجنّة أم للأرض؟

وهناك سؤال آخر، وهو: أنّ آدم هل خُلق للأرض كما يبدو ذلك في أوّل المقطع الشريف: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ... ﴾[١]، أو إنّه مخلوق للجنة، وبعد العصيان طرد للأرض، كما يفهم ذلك من القسم الثاني من هذا المقطع الشريف: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[٢].

وقد حاول بعض الملحدين أن يثير الشبهات حول هذا الموضوع بدعوىٰ أنّ هذا المقطع القرآني يبدو وكأن إدخال آدم للجنة والتوبة عن فعله إنّما هما عملية شكلية وصورية؛ لطرده منها وإنزاله إلىٰ الأرض.

ولكن الجواب عن هذا السؤال واضح، وهو: أنّ آدم إنّما خُلق للأرض وخلافة الله فيها، وكان وجوده في الجنة هو مرحلة متقدّمة (تأهيلية) تؤهله للقيام بدور الخلافة؛ إذ لم يكن من الممكن لآدم أن يقوم بهذا الدور بدون هذا التأهيل والتجربة التي خاضها في الجنة، علىٰ ما سوف نوضح هذا الأمر في بيان الجانب الآخر.

---

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) البقرة: ٣٥.

على أنّ هذه الجنة يمكن أن تكون جنة أرضية وليست جنة (الخلد)؛ إذ لا يوجد دليل على أنها جنة الخلد، وكان هبوطه وإخراجه منها يعني بداية دور تحمّل المسؤولية والتعب والجهد من أجل الحياة واستمرارها، فهو منذ البداية كان على الأرض، ولكن في مكان منها لا تعب ولا عناء فيه، وقد تهيأت له جميع أسباب العيش والراحة والاستقرار، وبعد المعصية بدأت حياة جديدة تختلف عن الحياة السابقة في خصوصياتها ومواصفاتها وإن كانت على الأرض أيضاً.

وبذلك يمكن أن نجيب عن سؤال آخر، هو: أنّه كيف تسنىٰ لإبليس أن يغوي آدم في الجنة مع أنّ دخولها محرّم على إبليس؟

إذ يمكن أن تكون هذه الجنة أرضية ولم يمنع من دخولها، ولعلّ ضمير الجمع في قوله تعالى: ﴿...وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ...﴾[1] يشير إلى ذلك.

على أنّ عملية الإغواء يمكن أن تكون من خلال وجوده في خارج الجنة؛ لأنّ الخطاب بين أهل الجنة وغيرهم ممّن هو في خارج الجنة ميسور، كما دل على ذلك القرآن الكريم في خطاب أهل الجنة وأهل النار: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[2].

وفي خطاب أصحاب الجنة لأصحاب النار:

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ

---

(١) البقرة: ٣٦.

(٢) الأعراف: ٥٠.

وَجَدتُّم مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾[1].

خطيئة آدم:

والسؤال الآخر هو عن خطيئة آدم وغوايته وعصيانه ﴿ ... وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾[2].

إذ دلت بعض الروايات علىٰ أنّ آدم كان نبياً، وإن لم يذكر ذلك في القرآن الكريم، والأنبياء معصومون من الذنب والزلل والغواية منذ بداية حياتهم.

ومع غض النظر عن الشك والمناقشة في صحة هذه الفرضيات: (فرضية أن يكون آدم نبياً) و(فرضية أن يكون الأنبياء معصومين من الذنب منذ بداية حياتهم)، يمكن أن نفسر جدّية هذه المخالفة والعصيان علىٰ أساس اتجاهين:

الاتجاه الأوّل: أن يكون النهي الإلهي هنا هو نهي (إرشادي)[3] أُريد منه

(١) الأعراف ٤٤.

(٢) طـه: ١٢١.

(٣) تنقسم الأوامر والنواهي في الشريعة إلىٰ قسمين: مولوي وإرشادي. والمراد من (المولوي): ما يصدر من المولىٰ باعتباره مولىٰ له حق الطاعة، ويكون فيه إرادة جديدة للطلب والتحرك نحو المطلوب أو الزجر عن المنهي عنه، كما في أوامر الصلاة والزكاة والجهاد والحج والنهي عن شرب الخمر والزنا والسرقة. و(الارشادي): هو الذي يكون للارشاد إلى المصلحة أو المفسدة، كما في الأوامر والنواهي في موارد المعاملات غالباً، حيث يكون ارشاداً لبطلان المعاملة أو صحتها، أو كما في أوامر الأطباء والمهندسين والعلماء التجريبين، فإنّهم لا يستحقون الطاعة بما هم سادة، وأُولوا الأمر والولاية، بل؛ لأنّ متعلقات أوامرهم ونواهيهم فيها مصالح ومفاسد، فعندما يأمر بشرب الدواء فهذا يعني: أنّ شرب الدواء فيه مصلحة، وكذا عندما ينهي عن أكل شيءٍ فإنّه يعني: أنّ أكله فيه ضرر ومفسدة.

الإرشاد إلىٰ المفاسد الموجودة في أكل الشجرة، وليس نهياً (مولوياً) يراد منه التحريك والطلب الجدي، والمعصية المستحيلة علىٰ الأنبياء والتي توجب العقاب هي في الأوامر المولوية وليست الإرشادية.

الاتجاه الثاني: أن يكون النهي الإلهي هنا نهياً مولوياً كما ـ هو الظاهر ـ وحينئذٍ فيفترض أنّ الأنبياء معصومون من الذنوب المتعلقة بالأوامر والنواهي التي يشتركون فيها مع الناس، وأمّا الأوامر والنواهي الخاصة بهم فلا يمتنع عليهم صدور الذنب بعصيانها، وليسوا معصومين تجاهها، وهذا النهي الذي صدر لآدم إنّما هو خاص به، ولذا لم يحرم علىٰ ذريته من بعده أكل الشجرة.

ومن هنا نجد القرآن الكريم ينسب الظلم والذنب ـ أحياناً ـ لبعض الأنبياء باعتبار هذه الأوامر الخاصة، كما حصل لموسىٰ عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[1]. مع أنّ قتل الفرعوني الظالم الكافر ليس ذنباً وحراماً علىٰ الناس بشكل عام، وإنّما كان حراماً علىٰ موسىٰ لخصوصية في وضعه.

ومن هنا ورد أنّ حسنات الأبرار سيئات المقربين باعتبار أنّ لهم تكاليف خاصة بهم تتناسب مع مستوىٰ الكمالات التي يتصفون بها.

وهذا التفسير للعصمة أمر عرفي قائم في فهم العقلاء لمراتب الناس، فبعض الأمور هي من العلماء والفضلاء ذنب يؤاخذون عليه، ولكنّه ليس كذلك بالنسبة إلىٰ العامة من الناس، وبعض الإنفاقات القليلة ذنب من الاغنياء يؤاخذون عنها، وليست كذلك بالنسبة إلىٰ الفقراء.

---

(١) القصص: ١٦.

الجانب الثاني: التصور العام لمسيرة الخلافة

وهنا نشير إلىٰ تصورين:

التصور الأوّل: ما ذكره العلّامة الطباطبائي قدس سره في الميزان، حيث يفترض أنّ هذه المسيرة بدأت من وضع آدم وزوجه في الجنة من أجل أن ينتقل إلىٰ الأرض بعد ذلك، وكان لابدّ له من التعرض إلىٰ المعصية من أجل أن يتحقّق هذا النزول إلىٰ الأرض؛ إذ لا يمكن أن يحصل علىٰ التكامل الإنساني الذي يؤهله لهذه الخلافة ما لم يتعرض إلىٰ المعصية والنزول إلىٰ الأرض بعد ذلك.

وذلك لأنّ تكامل الإنسان إنّما يحصل من خلال توفر عنصرين وعاملين أساسيين:

أحدهما: شعور الإنسان بالفقر والحاجة والمسكنة والذلة، أو بتعبير آخر شعور الإنسان بالعبودية لله ـ تعالىٰ ـ الذي يدفعه للحركة والتوجه إلىٰ الله تعالىٰ والمصير إليه.

والآخر: هو عفو الله تعالىٰ ورضوانه ورحمته وتوفيقه لهذا الإنسان، وإمداده بالعطاء والفضل الإلهي.

فشعور الإنسان بالحاجة يجعله يتحرك لسد هذه الحاجة، والفضل والعطاء الإلهي هو الذي يحقق الغنىٰ النسبي للإنسان، ويسد النقص والحاجات لدىٰ هذا الإنسان فيتكامل.

وإذا لم يشعر الإنسان بالحاجة فلا يسعىٰ إلىٰ الكمال حتىٰ لو كان محتاجاً في واقع الحال، وإذا لم يتفضل الله علىٰ هذا الإنسان بالعفو والرحمة والعطاء يبقىٰ هذا الإنسان ناقصاً ومتخلفاً في حركته.

وما ذكر في قِصّة آدم إنّما يمثل هذين الأمرين معاً.

فلو لم ينزل الإنسان إلىٰ الأرض لا يشعر بالحاجة؛ إذ كان يعيش في الجنة يأكل ويشرب بدون تعب أو عناء، فطبيعة هذه الجنة: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[1].

ولو لم تصدر من آدم المعصية فلا يمكن أن يحصل علىٰ تلك الدرجات العالية من الرحمة والمغفرة التي حصل عليها الإنسان في حالات الرجوع والتوبة؛ إذ يفترض العلّامة الطباطبائي وجود درجات من الرحمة والمغفرة مرهونة بالتوبة والانابة، قال:

«فللّه ـ تعالىٰ ـ صفات من عفو ومغفرة وتوبة وستر وفضل ورأفة ورحمة لا ينالها إلا المذنبون... فهذه التوبة هي التي استدعت تشريع الطريق الذي يتوقع سلوكه، وتنظيف المنزل الذي يرجىٰ سكونه، فوراءها تشريع الدين وتقويم الملة»[2].

فالقصّة وراءها قضاءان قضاهما الله تعالىٰ في آدم:

القضاء الأوّل: الهبوط والخروج من الجنة والاستقرار علىٰ الأرض وحياة الشقاء فيها، وهذا القضاء لازم حتمي لأكل الشجرة حيث بدت سوآتهما، وظهور السوءة لا يناسب حياة الجنة، بل الحياة الأرضية، ومن هنا كان إخراجهما من الجنة بعد العفو عنهما، ولولا ذلك لكان مقتضىٰ العفو هو بقاؤهما في الجنة.

القضاء الثاني: إكرام آدم بالتوبة؛ إذ طيّب الله ـ تعالىٰ ـ بها الحياة الأرضية التي هي شقاءٌ وعناءٌ، وبها ترتبت الهداية إلىٰ العبودية الحقيقية، فتألفت الحياة من

---

(١) طـه: ١١٨ ـ ١١٩.

(٢) تفسير الميزان ١: ١٣٤، طبعة جماعة المدرسين ـ قم.

حياة أرضية وحياة سماوية(١).

فنزول آدم إلىٰ الأرض وإن كان فيه ظلم للنفس وشقاء، إلّا أنّه هيأ لنفسه بنزوله درجة من السعادة ومنزلة من الكمال ما كان ينالها لو لم ينزل، وكذلك ما كان ينالها لو نزل من غير خطيئة.

التصور الثاني: ما ذكره أُستاذنا الشهيد الصدر قدس سره: أنّ الله ـ سبحانه ـ قدّر لآدم ـ الذي يمثل أصل الجنس البشري ـ أن يمرّ بدور الحضانة التي يمرّ بها كلّ طفل؛ ليتعلم الحياة وتجاربها، فكانت هذه الجنة الأرضية التي وجدت من أجل تربية الإحساس الخلقي لدىٰ الإنسان والشعور بالمسؤولية وتعميقه من خلال امتحانه بما يوحيه إليه من تكاليف وأوامر.

وقد كان النهي عن تناول الشجرة هو أوّل تكليف يوجه إلىٰ هذا الخليفة؛ ليتحكم في نزواته وشهواته، فيتكامل بذلك، ولا ينساق مع غريزة الحرص وشهوة حب الدنيا التي كانت الأساس لكلّ ما يشهده مسرح التأريخ الإنساني من ألوان الاستغلال والصراع.

وقد كانت المعصية التي ارتكبها آدم هي العامل الذي يولد في نفسه الإحساس بالمسؤولية من خلال مشاعر الندم، فتكامل وعيه بهذا الإحساس، في الوقت الذي كانت قد نضجت لديه خبرات الحياة من خلال وجوده في الجنة.

وكان الهدىٰ الإلهي يتمثل بخط الشهادة، وهو الوحي الإلهي الذي يتحمل مسؤوليته الأنبياء لهداية البشرية.

وبذلك تتكامل المسيرة البشرية، ويتطور الإنسان، ويسمو علىٰ المخلوقات

---

(١) المصدر نفسه.

من خلال التعليم الرباني والهدىٰ الإلهي الذي يجسده شهيد رباني معصوم من الذنب يحمله إلىٰ الناس من أجل تحصينهم من الضلال ﴿ ...فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(١).

ويمكن أن نشير في نهاية هذا العرض لهذين التصورين إلىٰ عدّة ملاحظات:

الملاحظة الاولىٰ: أنّه يمكن تكميل الصورة: بأنّ الإسكان في الجنة في الوقت الذي يمثل مرحلة الاعداد والتهيؤ يعبر في نفس الوقت عن هدف إلهي، وهو: أنّ مقتضىٰ الرحمة الإلهية بالإنسان هو أن يعيش حياة الاستقرار والسعادة بعيداً عن الشقاء، وأنّ مسيرة الشقاء إنّما هي اختيار الإنسان؛ ولذا بدأ الله ـ تعالىٰ ـ حياة الإنسان بالجنة، وشمله برحمته الواسعة من خلال التوبة والسداد الإلهي بالهدىٰ الذي أنزله علىٰ الأنبياء.

كما أنّ الخطيئة هي التي فجّرت في الإنسان ـ إضافة إلىٰ احساسه بالمسؤولية ـ ادراكه للحسن والقبح والخير والشر، ولعلّ هذا هو الذي أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالىٰ:

﴿ ... فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ... ﴾(٢).

وكان هذا الإدراك ضرورياً للإنسان من أجل أن يكون قادراً علىٰ مواجهة مشكلات الحياة، وألوان الصراع فيها، وتمييز الحقّ من الباطل، والخير من الشر، والمصلحة من المضرة، ويخلق فيه حالة التوازن الروحي والنفسي في مقابل ضغوط الشهوات والغرائز.

---

(١) البقرة: ٣٨.

(٢) طـه: ١٢١.

وقد كان من الممكن أن يحصل هذا الإدراك من خلال الحضانة الطويلة والتجربة الذاتية في حياته في الجنة، ولعل هذا هو الهدف من وضعه في الجنة؛ ليمر بهذه الحضانة الطويلة، كما يحصل للإنسان في تجاربه في الطفولة؛ إذ تنمو فيه هذه المعرفة تدريجاً، ولكن كان هناك طريق أقصر محفوف بالمخاطر وبالخطيئة والذنب.

ولم يكن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ليختار للإنسان طريق الخطيئة بالرغم من قصره؛ لأنّه طريق خطير، ولكن عندما اختار الإنسان ذلك، وأصبح يدرك هذه الحقائق صار مؤهلاً للبدء في الحياة الدنيا.

وقد فتح الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أمامه باب التوبة والرجوع إليه، ليتمكن الإنسان من مواصلة طريقه عندما يضعف ويقع في الخطيئة، وبذلك يتكامل عندما يكون قادراً علىٰ التغلب علىٰ شهواته والسيطرة علىٰ رغباته.

الملاحظة الثانية: أنّ العلّامة الطباطبائي لم يوضح دور الخطيئة في معرفة السوءات، كما لم يوضح عدم انسجام السوءات مع حياة الجنة، ولعلّه يريد من دور الخطيئة في معرفة السوءات ما أشرنا إليه من دورها في الإحساس الخلقي للإنسان في إدراكه للحسن والقبح، وكذلك لأنّ حياة الجنة يراها حياة طاهرة ونظيفة لا تنسجم مع السوءات، وهو معنىٰ عرفاني حيث لم يشر القرآن الكريم إلىٰ أنّ آدم عليه السلام لم تكن لديه سوءة قبل الخطيئة، أو أنّها وجدت بعد الخطيئة، وإنّما أشار إلىٰ أنّ إدراكه للسوءة إنّما كان بعد الخطيئة والذنب.

الملاحظة الثالثة: أنّ الشهيد الصدر قدس سره لم يذكر في تكوّن مسار الخلافة علىٰ الأرض دور التوبة في هذا المسار، مع أنّ التوبة لها دور أساس يمكن من خلاله أن يستأنف الإنسان عمله وتجربته في هذه الحياة، ويصعد بسببها في مدارج الكمال.

الملاحظة الرابعة: أنّ الكمالات الإنسانية يمكن أن نتصورها بدون خطيئة،

ويتكامل فيها الإنسان من خلال الطاعة والإحساس بالعبودية لله سبحانه وتعالىٰ، إلّا إذا كان مقصوده من الخطيئة ليس مجرد المخالفة، وإنّما أحساس الإنسان بالحاجة والتقصير في حق الله تعالىٰ وشكره لنعمه، الأمر الذي يدفعه إلىٰ الاستزادة من الأعمال الصالحة والرجوع إلىٰ الله تعالىٰ والإنابة إليه.

الملاحظة الخامسة: أنّ العلّامة الطباطبائي ﷺ تصور أنّ الجنة سماوية، والشهيد الصدر ﷺ تصورها أرضية[1]، وهذا التصور الثاني في الوقت الذي ينسجم مع بعض الروايات، يتوافق ـ أيضاً ـ مع فرضية خلق الإنسان للأرض، والله سبحانه أعلم.

(١) الإسلام يقود الحياة: ١٥٢ ـ ١٥٣.

القسم الثاني

أنبياء أُولي العزم الأربعة

١ ـ نوح عليه السلام .
٢ ـ إبراهيم عليه السلام .
٣ ـ موسى عليه السلام .
٤ ـ عيسى عليه السلام .

الفصل الأوّل

قصّة نوح عليه السلام في القرآن

قوم نوح .

شخصية نوح .

حياة نوح .

ملاحظات عامّة .

نوح وقصّته :

نوح عليه السلام هو النبي الثالث ممّن ذكروا من الأنبياء في القرآن بعد آدم عليه السلام، وجدّه الأكبر إدريس[1]، وهو أوّل الرسل من أُولي العزم[2]، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمّد (صلى الله عليه وعليهم وعلى آله أجمعين).

وقد جاءت قصّته في التوراة مختلفة عمّا جاءت في القرآن الكريم، كما أنّه يوجد اختلاف بين نسخها المترجمة عن العبرية والسامرية واليونانية.

وقد ورد ذكر نوح في القرآن الكريم في ثلاثة وأربعين مورداً[3]، كما أنّه وردت قصّته بشيء من التفصيل في كلّ من سور: (الأعراف، وهود، والمؤمنون،

---

(١) بناءً على أنّ آدم من الأنبياء كما تشير اليه بعض النصوص، وإلّا فهو النبي الثاني.

(٢) فقد ورد في أحاديث أهل البيت وأحاديث الجمهور ما يؤكد ذلك، وقد استدل اذلك بمجموعة من الآيات منها قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ... ﴾ الشورى: ١٣.

(٣) يمكن التعرف عليها من مراجعة المعجم المفهرس

والشعراء، والصافات، والقمر، ونوح) مع إشارة للقصّة في سور أُخرى، وهي مختلفة في الطول والقصر، كما أنّها مختلفة في اللفظ والهدف بحسب الغرض والسياق الذي جاءت فيه القصّة، ولكن أكثرها تفصيلاً وشرحاً لقصّته ما ورد منها في سورة هود.

وتتلخص قِصّة نوح في القرآن الكريم بالأمور التالية:

قوم نوح عليه السلام:

لقد أشار القرآن الكريم إلى الابعاد العقائدية والاخلاقية والسياسية والاجتماعية التي كان يتصف بها قوم نوح.

أ ـ فمن الناحية العقائدية كان قوم نوح قد عكفوا على عبادة غير اللّه، واتخذوا لهم أصناماً يعبدونها، وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض أسماء هذه الأصنام، وهي: (ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسرا):

﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾[1].

وتذكر بعض الروايات أنّ هذه الأسماء كانت لرجال صالحين، اتخذ الناس لهم تماثيل؛ لتمجيدهم واحياء ذكراهم، ثم تحول الناس لعبادتهم بعد ذلك.

ب ـ ومن الناحية الاخلاقية اتصف قوم نوح بسوء الاخلاق من الجهل والعناد، والمكر الكبير، والكبر، وازدراء الفقراء والضعفاء.

ج ـ ومن الناحية السياسية كان قوم نوح يتبعون سادتهم من أهل القدرة

---

(١) نوح: ٢٣.

والقوة ممّن كثر ماله وولده ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً ﴾[١].

وكان هؤلاء السادة (ملأ من قومه) يستضعفون الفقراء ويستكبرون في الأرض.

د ـ ومن الناحية الاجتماعية والسلوكية كانوا يرتكبون الآثام والخطايا ويمارسون أنواع الظلم والفساد والطغيان.

﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَاراً * وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً * رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً ﴾[٢].

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾[٣].

﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴾[٤].

شخصية نوح عليه السلام :

لم يتحدّث القرآن الكريم عن الحياة الشخصية لنوح، أو بعض ما جرى له قبل رسالته ودعوته، كما تحدّث عن إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام. ولعلّ السبب في

(١) نوح : ٢١.

(٢) نوح : ٢٥ ـ ٢٨.

(٣) الذاريات : ٥١.

(٤) النجم : ٥٣.

ذلك ـ والله أعلم ـ أنّه لا يوجد شيءٌ فيها ممّا يثير الاهتمام بالنسبة إلى الأغراض القرآنية للقصّة. أو أنّ القرآن كان منهجه التفصيل النسبي بالنسبة إلى الأنبياء اللاحقين لوجود أقوام يتبعونهم، ولا زالوا على ديانتهم والانتماء الخاص لهم دون الأنبياء السابقين الذين لا يتصفون بهذه الصفة.

ولكن يمكن أن نستنتج من المحاورة التي جرت بين نوح عليه‌السلام والملأ من قومه: أنّ نوحاً كان من طبقة الاشراف والملأ منهم؛ ولذلك كانوا يحتجون عليه بمعاشرة الأراذل من الناس، ويطلبون منه أن يطردهم، كما أنّ هذا الانتماء لهذه الطبقة من الناس قد يفسّر لنا العامل الاجتماعي ـ والله أعمل ـ في ضلال زوجته وابنه؛ إذ كان قومه يتأثرون بهذه العوامل الاجتماعية.

كما أنّه يمكن أن نستنتج: أنّه كان على درجة عالية من الشجاعة والإقدام والصبر والتحمل؛ لما توحيه ظروف المحاصرة والعزلة والتكذيب والتهديد له بالقتل، وهو مع كل ذلك يستمر في رسالته دون ملل أو كلل مع طول المدة، كما سوف نعرف ذلك.

ومع ذلك لم يترك القرآن الحديث عن شخصية نوح عليه‌السلام ومواصفاته لعامة من خلال النقاط التالية:

١ ـ كان نوح أوّل أُولي العزم الذين هم سادة الأنبياء وأصحاب الرسالات الإلهية العامة إلى البشر جميعاً الذين أخذ الله ـ تعالى ـ منهم الميثاق الغليظ، ولذا فشريعته أوّل الشرائع الإلهية المشتملة على تنظيم الحياة الإنسانية. وقد ذكرنا إشارة القرآن الكريم إلى ذلك في الآية (١٣) من سورة الشورى، وكذلك في الآية (٧) من سورة الاحزاب.

٢ ـ كان نوح عليه‌السلام الأب الثاني للنسل الحاضر من بني الإنسان، وإليه ينتهي

أنساب الناس؛ لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ البَاقِينَ ﴾[١].

٣ـ إنّ نوحاً هو أبو الأنبياء المذكورين في القرآن، ما عدا آدم وإدريس عليهما السلام، قال تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴾[٢].

٤ـ كان نوح عليه السلام أوّل من كلّم الناس بمنطق العقل وطريق الاحتجاج مضافاً إلى طريق الوحي بعد تعرض الجماعة البشرية للانحراف عن الفطرة. فهو الاصل الذي ينتهي إليه دين التوحيد في العالم بعد ظهور الوثنية، فله الفضل والمنّة على جميع الموحدين إلى يوم القيامة، ولعلّ هذا هو السبب فيما خصّه الله ـ تعالى ـ به من السلام الذي لم يشاركه فيه أحد ﴿ سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي العَالَمِينَ ﴾[٣].

وقد اصطفاه الله على العالمين، وعدّه من المحسنين، وسمّاه عبداً شكورا وعبداً صالحاً، وعدّه من عباده المؤمنين.

وآخر ما نقل من دعائه قوله: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً ﴾[٤].

كما أنّه كان أوّل من ذكره القرآن الكريم في ذكر اسم الله عند الابتداء بأمر عظيم ﴿ ... بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ... ﴾[٥].

كما أخبر القرآن الكريم عن أنّه لبث في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، الأمر الذي يكشف عن طول المعاناة والصبر العظيم.

---

(١) الصافات: ٧٧.

(٢) الصافات: ٧٨، الميزان ١٠: ٢٥١.

(٣) الصافات: ٧٩.

(٤) نوح: ٢٨، الميزان ١٠: ٢٥٢ بتصرف قليل.

(٥) هود: ٤١.

حياة نوح عليه السلام

يبدو أنّ حياة نوح عليه السلام من خلال ما عرضه القرآن الكريم في قصّته تنقسم إلى ثلاث مراحل، وتبدو هذه المراحل الثلاث واضحة من المقطع الذي ذكر فيه قصته من سورة هود.

١ ـ الرسالة والدعوة:

كان نوح عليه السلام يدعو قومه إلى توحيد اللّه سبحانه وعبادته، ورفض عبادة غير اللّه تعالى من الشركاء، كما كان يدعوهم إلى تقوى اللّه تعالى وطاعته، وإلى التوبة والانابة إلى اللّه تعالى ليغفر لهم ذنوبهم.

كما أنّه كان يبلّغ رسالات اللّه، وينصح لهم، وينذرهم عذاب اللّه وعقابه، ويبشرهم بالخير العميم في الدنيا، حيث يرسل اللّه السماء عليهم مدراراً، ويمددهم بأموال وبنين، ويجعل لهم جنات ويجعل لهم أنهاراً.

ويظهر من القرآن الكريم ـ كما يفهم من المقارنة بين شريعته وشرائع سائر أنبياء أُولي العزم، أو من سياق الوصايا العامة التي ذكرها القرآن الكريم للشرائع السابقة ـ أنّ نوحاً عليه السلام كان يأمرهم بالمعروف: كالعدل، والمساواة، وصدق الحديث، والوفاء بالعهد، وينهاهم عن المنكر وعن ممارسة الفواحش واقترافها.

وقد توسل نوح عليه السلام في دعوته هذه بوسائل: الدعوة بالحكمة، والموعظة الحسنة، والانذار من عذاب اللّه تعالى، والاحتجاج الذي يعتمد على المنطق والاخلاق، والتأكيد على التجرد من الهوى أو المصالح الدنيوية. فهو إنسان أرسله

اللّه لابلاغ رسالاته وليس ملكاً، كما أنّه لا يبتغي من وراء هذا العمل أجراً أو فائدة خاصة أو مقاماً دنيوياً، وإنّما يريد بذلك خيرهم وصلاحهم.

وكان عليه السلام يتصف: بالصبر، وسعة الصدر، والاستقامة في الدعوة، ومواصلة إبلاغ الرسالة، واستخدام الأساليب المختلفة العلنية والسرية.

﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً ﴾[1] ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴾[2].

وقد واجهه قومه بتكذيبه في دعوته، واستخدموا في هذا التكذيب عدّة وسائل تعبّر عن مراحل من المواجهة بينه وبين قومه:

فأوّلاً: كانوا يثيرون في وجهه الشبهات والشكوك من خلال المجادلة بالباطل، فتارة يتهمونه بالكذب والافتراء، لأنّ الرسول من اللّه لابدّ أن يكون ملكاً، ويستغربون أن يكون رسول اللّه رجلاً مثلهم، وأخرى يتهمونه بالضلال والخروج على الجماعة ووحدتها، وثالثة بأنّه يسعى وراء الجاه والمقام والحصول على الامتيازات، مع أنّه في نظرهم لا فضل له عليهم في الجاه والمال والولد.

وثانياً: المحاصرة الاجتماعية من خلال الاتهام بالتسافل الاجتماعي والعيش مع الاراذل والضعفاء والاوباش من الناس. ولا يمكنهم أن يؤمنوا برسالته؛ لأنّ ذلك يؤدي بهم إلى أن ينزلوا إلى هذا المستوى الاجتماعي الداني، أو من خلال الاتهام بالجنون والاضطراب العقلي والشغب.

وكان نوح عليه السلام يرد عليهم هذا الاتهام: بأنّ هؤلاء مؤمنين، ولا يمكن له أن

---

(١) نوح: ٥.

(٢) نوح: ٨ ـ ٩.

يطردهم ويبتعد عنهم، والله أعلم بما في نفوسهم، وهو يؤجرهم على أعمالهم ونياتهم.

وثالثاً: التهديد بالعدوان واستخدام القوة ضده اذا لم يترك رسالته ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِي * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(١).

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾(٢).

ويبدو من القرآن الكريم أنّ نتائج هذه المرحلة كانت:

أوّلاً: الإيمان بالرسالة من قبل عدد محدود من الطبقة السفلى من الناس، وكذلك أهله باستثناء زوجته وأحد أبنائه. وبقي سائر الناس على عنادهم وإصرارهم في تكذيبه ﴿ ...وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾(٣).

ثانياً: انقطاع الصلة والتعايش بين نوح عليه السلام وقومه من خلال تطور المواجهة بالتهديد وباستخدام القوة وصمود واستمرار نوح عليه السلام على موقفه وعدم التراجع عنه ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ ﴾(٤).

ويمكن أن نفهم كلا هذين الأمرين من هاتين الآيتين أيضاً:

---

(١) الشعراء: ١١٦ ـ ١١٨.

(٢) القمر: ١٠.

(٣) هود: ٤٠.

(٤) يونس: ٧١.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ * وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[١].

٢ ـ اليأس وصنع الفلك[٢] :

وقد يأس نوح عليه السلام من هداية قومه وإيمانهم بعد أن أخبره اللّه تعالى، وكان قد تبيّن العناد والإصرار على التكذيب في قومه، فنادى ربه بذلك، ثم حصل له اليأس من هدايتهم بعدم إيمانهم بعد أن أخبره اللّه ـ تعالى ـ بذلك. كما أشارت إلى ذلك الآية السابقة، وقد كان قومه يطالبونه بما كان يعدهم من إنزال العذاب، وهو يؤكل ذلك إلى اللّه تعالى، وفي الوقت نفسه يواصل دعوته لهم.

إلّا أنّه بعد إخبار اللّه ـ تعالى ـ له بذلك هنا، نجد نوح عليه السلام يعبّر عن هذا اليأس في عدة مواقف :

أ ـ إعلان القطعية والبراءة من قومه. كما أشارت إلى ذلك الآيات الكريمة السابقة.

---

(١) هود : ٣٥ ـ ٣٦.

(٢) اليأس من الهداية لا يصح إلّا باخبار اللّه تعالى، وكذلك قطع الصلة والبلاغ، ولذلك عاتب اللّه ـ سبحانه ـ نبيه يونس وابتلاه بالحوت؛ لأنّه ذهب مغاضباً كما يعبّر القرآن الكريم، ولهذا لسبب ـ على ما يبدو من القرآن الكريم ـ لم ينزل العذاب على قوم يونس مع أنّهم كانوا قد كذبوه في رسالته كما يشير القرآن الكريم إلى ذلك في سورة يونس، وأمّا نوح عليه السلام فقد أخبره اللّه بذلك.

ب ـ الدعاء والطلب من الله ـ تعالى ـ بإنزال العذاب عليهم تنفيذاً للسنة الإلهية التي كانت تفرض نزول العذاب بالأقوام الذين يكذبوا رسلهم مع تهديدهم باستخدام القوة ضدّهم، أمّا بقتلهم، أو إخراجهم من ديارهم، أو تعذيبهم بالسجن وغيره. وقد كان نوح ينذر قومه بنزول هذا العذاب ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ * وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾[1].

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾[2].

ج ـ الاستعداد لنزول العذاب من خلال صنع الفلك والسفينة.

صنع الفلك :

ثم إنّ الله ـ تعالى ـ لما أمر نوحاً بأن يصنع الفلك تهيئاً وتحسباً لحدوث الطوفان ونزول العذاب ﴿...وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾[3]، قام نوح بصنع الفلك، ويبدو أنّ المنطقة التي كان يعيش فيها نوح وقومه كانت (فلاة) لا يوجد فيها بحر ولا نهر؛ ولذا لم يكن لهذا العمل تفسير لدى قوم نوح عليه السلام، فكان يثير لديهم الاستغراب والتعجب والسخرية ﴿...وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ

---

(١) غافر : ٥ ـ ٦.

(٢) نوح : ٢٦ ـ ٢٧.

(٣) هود : ٣٧.

سَخِرُوا مِنْهُ ...﴾[١]. فهل كان ذلك منهم من دون أن يخبرهم نوح بنزول العذاب والطوفان، أو إنّهم كانوا يوغلون بالتكذيب والسخرية حتى بعد إخباره لهم بمجيء الطوفان.

لا يوجد تصريح في القرآن الكريم، وإن كنت أستقرب أن يكون ذلك بعد إخبار نوح لهم بذلك، كما هو مقتضى الحال، وما يفهم من بعض الآيات أنّ نوحاً كان قد أخبرهم بنزول العذاب ﴿...فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾[٢].

ويشير إلى ذلك ما كان يذكره نوح لهم في مقابل سخريتهم ﴿...قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾[٣].

واستمرت هذه الحرب النفسية الطويلة طيلة المدة التي كان يصنع فيها نوح عليه السلام ـ الفرد المحاصر قليل العدّة والعدد ـ السفينة العظيمة التي يريد أن يعدها لهذه المهمة.

ولعلّ هذه الفترة كانت من أصعب الاوقات التي مرّ بها الرسول (نوح عليه السلام)؛ لأنّها كانت فترة المقاطعة الشاملة، وفترة الحرب النفسية الظالمة، وفترة الانتظار والترقب لنزول العذاب وتحقق الوعد الإلهي. وقد كان اللّه ـ تعالى ـ يرعى نوحاً بعينه التي لا تنام، ويسدده بالوحي، ويعلمه كيف يصنع السفينة في مراحلها

---

(١) هود: ٣٨.

(٢) هود: ٣٢ ـ ٣٣.

(٣) هود: ٣٨ ـ ٣٩.

المتعددة، ويثبته في عمله وموقفه.

ووضع له ـ تعالى ـ علامة لمجيء الأمر بالعذاب وهي: (فوران التنور في بيت أهله) ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ...﴾[1].

٣ ـ الطوفان وآثاره ونتائجه:

وعندما فار التنور أمر اللّه ـ تعالى ـ نوحاً عليه السلام أن يحمل في الفلك أهله ـ إلّا من استثنى منهم، وممّن سبق القول من اللّه ـ تعالى ـ في اهلاكهم كزوجته ـ وجميع المؤمنين ممّن آمن به، وهو قليل، وكذلك من كلّ الحيوانات من كلّ زوجين اثنين ذكراً وأنثى. فلمّا حملهم نوح عليه السلام في السفينة وركبوا فيها فتح اللّه ـ سبحانه ـ أبواب السماء بماءٍ منهمر، وفجر الأرض عيوناً، فالتقى الماء من السماء والارض على أمر قد قدر، وأصبحت السفينة تجري بهم في موج كالجبال، ولم يكن هناك شيء من الجبال أو المرتفعات ممّا يعصم الإنسان عن أمر اللّه بالغرق. فأخذ الناس الطوفان وهم ظالمون.

ثمّ إنّ نوحاً وجد ابنه كان قد انعزل عنه، ولم يركب في السفينة، فناداه: يا بنيّ اركب معنا، ولا تكن مع الكافرين. قال ابنه: سأوي إلى جبل يعصمني من الماء. قال له نوح: لا عاصم اليوم من أمر اللّه إلّا من رحم اللّه منهم، وهم أولئك الذين ركبوا السفينة، ثم حال الموج بينه وبين ابنه، فكان ولده من المغرقين.

---

(١) المؤمنون: ٢٧.

قضاء الأمر ونزوله ومن معه إلى الارض :

فلمّا عمّ الطوفان، وأغرق الناس[١] أمر اللّه الأرض أن تبلع ماءها، والسماء أن تقلع، وغيض الماء، واستوت السفينة على جبل الجوديّ، وقيل بعداً للقوم الظالمين، وأُوحي إلى نوح عليه السلام أن اهبط إلى الارض بسلام منّا وبركات عليك وعلى أمم ممّن معك، فلا يأخذهم بعد هذا طوفان عام، ومنهم أمم سيمتعهم اللّه بأمتعة الحياة، ثمّ يمسّهم عذاب أليم، فخرج هو ومن معه، ونزلوا الأرض يعبدون اللّه بالتوحيد والإسلام، وتوارثت ذريته عليه السلام الأرض، وجعل اللّه ذريته هم الباقين[٢].

قصّة ابن نوح الغريق :

ولم يكن نوح عليه السلام يعلم من ابنه إبطان الكفر كما كان يعلم ذلك من امرأته، فكان غرقه مفاجأة له، وحزن لذلك، ولو كان علم ذلك لم يفاجأ، ولم يحزنه أمره، وهو القائل في دعائه : ﴿ ... رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً ﴾[٣]، وهو القائل : ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[٤]، وقد سمع قوله تعالى فيما أوحى إليه :

---

(١) كما يظهر من سورة الصافات : ٧٧.

(٢) سورتا هود والصافات.

(٣) نوح : ٢٦ ـ ٢٧.

(٤) الشعراء : ١١٨.

﴿ ...وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾[١].

فوجد نوح عليه السلام وحزن وتسائل، فنادى ربّه من وجده قائلاً: ربّ إنّ ابني من أهلي، وإنّ وعدك الحقّ، وعدتني بإنجاء أهلي وأنت أحكم الحاكمين، لا تجور في حكمك، ولا تجهل في قضائك، فما الذي جرى على ابني؟ فأخذته العنايه الإلهية، وحالت بينه وبين أن يصرّح بالسؤال في نجاة ابنه ـ وهو سؤال لما ليس له به علم ـ وأوحى اللّه اليه: يا نوح إنّه ليس من أهلك إنّه عمل غير صالح، فإياك أن تواجهني فيه بسؤال النجاة، فيكون سؤالاً فيما ليس لك به علم إنّي أعظك أن تكون من الجاهلين.

فانكشف الأمر لنوح عليه السلام والتجأ إلى ربه ـ تعالى ـ قائلاً: ﴿ ...رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ... ﴾[٢] أسألك أن تشملني بعنايتك، وتستر علي بمغفرتك، وتعطف علي برحمتك، ولو لا ذلك لكنت من الخاسرين[٣].

---

(١) هود: ٣٧.

(٢) هود: ٤٧.

(٣) يوجد هنا بحثان تناولها المفسرون حول حادثة ابن نوح:

الأوّل: أنّ ابن نوح هل كان ولده حقيقة كما هو ظاهر الآية، أو إنّه ابن زوجته من رجل آخر، فهو ربيبه، كما تشير إلى ذلك بعض القراءات المروية (ابنها) وبعض الروايات، أو إنّه ابن فراشه، وإنّ زوجته قد خانته بذلك، كما وصفها القرآن الكريم بالخيانة في سورة التحريم. والصحيح: هو ما ذكرناه تمسكاً بظاهر الآية الكريمة، وأصالة القرآن في مقابل الروايات.

الثاني: أنّ نوحاً هل سأل ربه نجاة ولده في قوله: ﴿ انّ ابني من أهلي وانّ وعدك الحق ﴾ مع أنّه كان كافراً، وقد دعا ربه أن لا يذر على الارض من الكافرين دياراً أو إنّه لم يكن يعرف كفر ولده؛ لأنّه كان منافقاً، أو انّه ظنّ أنّ اللّه ـ تعالى ـ سوف يهديه في آخر لحظة بسبب

ملاحظات عامّة حول القصّة

١ ـ إنّ الهدف الأساس من قِصّة نوح الذي تتميزّ عن بقية القصص القرآنية كما يبدو من القرآن هو مجموع أمرين:

الأوّل: أن يضرب اللّه مثلاً لهلاك قوم رسول من أُولي العزم كذّبوا بنبيهم وهمّوا به حيث كانت قضية نوح أوّل حادثة في التاريخ الإنساني الذي تعرّض فيها قوم نبيّ من الأنبياء إلى الهلاك، كما كان الرسول الوحيد من أُولي العزم الذين جرى في قومه هذا الهلاك.

وقد كان الهلاك فيها عامّاً شاملاً حتى أنّه وصل إلى الأقربين من نوح عليه السلام.

وهذه القضية من القضايا التي يؤمن بها أهل كلّ الرسالات السماوية وجميع الأقوام والملل المعروفة في التاريخ البشري. كما يدل على ذلك تراث هذه الأُمم، ولذلك فهي مثل صادق ينتفع به كلّ الناس.

الثاني: أنّ هذه القِصّة تعبّر عن المثل الأعلى للصبر والشجاعة بسبب طول المدة المقرونة باليأس والوحدة؛ إذ لا نعرف في أي واحد ممّن ذكر اللّه قصّته من

الوعد الإلهي له بالنجاة. أو أنّ نوحاً لم يسأل ربه ذلك، وإنّما سأل تفسير هذه الحادثة التي فوجئ بها: لأنّه كان يظن نجاة ولده بسبب الوعد الالهي؟! إلى غير ذلك من الاسئلة التي تثار حول هذا الموضوع وترتبط بالعصمة الإلهية.

وقد تناول هذا الموضوع العلّامة الطباطبائي وغيره بالبحث. راجع الميزان ١٠: ٢٣٢ ـ ٢٣٨.

الأنبياء أنّه مكث في قومه هذه المدة الطويلة يدعوهم إلى الله ويكذبونه، ولا يجد بينهم ناصراً له منهم إلّا القليل المستضعف. ويستمرّ في عمله والقيام بوظيفته مع اليأس من هدايتهم وصلاحهم.

٢ ـ لقد كان من نتائج الطوفان وآثاره تثبيت خط التوحيد لله ـ تعالى ـ في التأريخ البشري من خلال البقية الباقية لذرية نوح المؤمنين مع بقاء هذه الحادثة قائمة في الذاكرة التاريخية للبشرية، وكذلك لم يشهد التأريخ البشري حادثة أُخرى مماثلة لهذه الحادثة بعد ذلك، بل كان العذاب ينزل في هذه الجماعة الخاصة أو تلك، وإنّ العذاب كان ينزل بسبب الانحرافات الأخلاقية والاجتماعية التي تتعرض لها هذه الجماعات.

٣ ـ إنّ رواية القِصّة في التوراة جاءت متفاوتة مع ما ذكر منها في القرآن الكريم، كما أشرنا آنفاً. ويمكن أن نلاحظ الاختلاف بين القرآن والتوراة في النقاط المهمة التالية:

أ ـ وجود تفاصيل في النص القرآني ـ على عمومه وإجماله ـ ذات مغزى مهم لم تذكر في الرواية التوراتية الموجودة، مثل: استثناء امرأة نوح[1] من النجاة وغرق ولده، بل صرحت التوراة بدخول امرأته في الفلك ونجاتها، ولم تذكر ابن نوح الغريق.

وكذلك يصرّح القرآن بنجاة المؤمنين بنوح على قلتهم، مع أنّ التوراة تقتصر على خصوص نوح وأهله.

---

(١) يصرح القرآن الكريم بهذا المغزى عندما يضرب امرأة نوح وامرأة لوط مثلاً للذين كفروا في سورة (التحريم) ومنه يمكن أن نفهم المغزى من هلاك ابن نوح؛ لأنّه لا توجد لأحد عند الله قرابة، وأنّ الكرامة عند الله تعالى هي للإيمان والعمل الصالح.

ب ـ وجود تفاصيل في التوراة عن القِصّة ليس لها مغزى وهدف، مثل: خصوصيات السفينة: من طولها وعرضها، وطبقاتها وارتفاعها، ومدة الطوفان وارتفاع الماء. وكيفية نقصان الماء، ومحاولات نوح لاستكشاف جفاف الارض بإرسال الغراب والحمامة ومجيئها في المرة الثانية بغصن الزيتون، ونزول نوح والحيوانات والدابات وانتشارها في الأرض للتكاثر والتوالد، وكذلك بناؤه لأماكن الذبح والعبادة، والقرار الإلهي بتمكين نوح من الحيوانات الأرضية والطيور والحيوانات المائية.

وإنّ اللّه وضع ميثاقاً بينه وبين نوح وذريته، وعلامة تذكرهم بالميثاق، وهو: قوس قزح، إلى غير ذلك من التفاصيل التي لا مغزى لها ولا هدف. كما أنّ بعضها بعيد وغريب لا يقبله المنطق السليم.

ج ـ ذكرت التوراة بعض التفاصيل التي لا تليق بالأنبياء وقداستهم، مثل: ما فعله أحد أبناء نوح بأبيه بعد أن كان قد سكر نوح بشرب الخمر حيث تعرّى داخل خبائه، فنظر اليه ولده عارياً وأخبر إخوته بذلك، فقاموا بستر عورته، وعندما استيقظ من سكرته لعن ولده كنعان الذي نظر إلى عورته، ودعا عليه أن يكون عبداً لإخوته.

د ـ وجود تفاصيل تخالف ظاهر القرآن أو صريحه مثل: ذكر التوراة لنجاة أبناء نوح، وذكر القرآن لغرق بعض أبنائه... وكذلك ذكر القرآن أنّ المدة التي لبث فيها نوح مع قومه قبل الطوفان (حسب ظاهر الآية ١٤ من سورة العنكبوت) هي: تسع مئة وخمسون عاماً، والتوراة تذكر مدة عمر نوح كلها هي تسع مئة وخمسون عاماً[1].

(١) تصرح الروايات المروية عن أهل البيت عليهم السلام: أنّ عمر نوح كان ألفين وخمس مئة عام.

وقد تأثر بعض الصحابة والتابعين بهذه المعلومات التي وردت في التوراة؛ لأنّهم أخذوها عن أهل الكتاب، وتناقلوها بينهم، وقد يكون بعض هذه المعلومات التي لا تخالف القرآن والتفاصيل صحيحاً، ولكن لا يمكن الاعتماد عليها.

وبذلك يمكن أن نفهم سمو الهدف القرآني، وارتباط نصّه بالوحي الإلهي، ومصداقية قوله تعالى في آخر قصّة نوح من سورة هود، وهو أكثر مواردها تفصيلاً ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَـٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1].

٤ ـ ورد في الروايات العديدة التي روى أكثرها العياشي في تفسيره عن أهل البيت عليهم السلام أنّ حياة نوح والطوفان والتنور كان في الكوفة ومسجدها الأعظم. وأنّ الجودي الذي استقرت عليه السفينة هو: جبل قرب الكوفة، ولعله الغري. وأنّ الجبل الذي آوى إليه ابن نوح هو: جبل (النجف) الذي كان جبلاً عظيماً، ثم تقطع بأمر اللّه قطعاً قطعاً حتى امتد إلى بلاد الشام، وصار بعضه رملاً، وهو المعروف الآن (بالطارات)[2]. وهذا التفسير التاريخي للحادثة ممّا اختص به تراث أهل البيت عليهم السلام دون غيرهم. ولعلّ الابحاث التاريخية والآثارية تكشف هذه الحقيقة في المستقبل.

---

(١) هود: ٤٩.

(٢) راجع البحار ١١: ٣٢١ و ٣٣١ ـ ٣٣٩ عن العلل، وتفسير العياشي وغيرهما.

الفصل الثاني

قصّة إبراهيم عليه السلام في القرآن

قوم إبراهيم .

شخصية إبراهيم .

حياة إبراهيم .

إبراهيم و قصّته :

إبراهيم عليه السلام بن آزر هو النبي السادس ممّن ذكروا من الانبياء في القرآن الكريم بعد آدم عليه السلام وإدريس ونوح وهود وصالح، وهو ثاني أُولي العزم الذين تحدثنا عنهم.

وقد جاءت قصّته في التوراة مفصلة، ولكنّها مختلفة عمّا جاءت في القرآن الكريم، شأنها شأن بقية قصص الأنبياء.

وقد ورد ذكر إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم في تسع وستين مورداً، وهو بذلك يكون أكثر ذكراً من نوح عليه السلام، بل أكثر الانبياء ذكراً بعد موسى عليه السلام.

كما أنّ قصّته وردت بشيءٍ من التفصيل في كلّ من سورة البقرة، والأنعام، وإبراهيم، والأنبياء، والعنكبوت، والصافات.

ولكنّها لم ترد كاملة ولو بنحو الإجمال في أي موضع من مواضع القرآن الكريم، وإنّما جاءت متفرقة. وهي في الوقت نفسه مختلفة اللفظ والهدف بحسب السياق الذي جاءت فيه القصّة.

وتتلخص قصّة إبراهيم كما جاءت في القرآن الكريم بالأُمور التالية :

قوم إبراهيم عليه السلام

لم يتحدّث القرآن الكريم عن قوم إبراهيم عليه السلام الذي ولد بينهم، وبدأ دعوته ورسالته فيهم إلاّ قليلاً، حيث أشار إلى عدة أبعاد في حياتهم:

أ ـ البعد العقائدي الذي كان يتمثل بعبادة الأوثان، حيث كانوا يعبدونها ويعتقدون أنّها هي التي تمنحهم الرزق. وقد توارثوا هذه العبادة عن آبائهم الأقدمين، حتى إنّهم أخذوا يصنعون الأصنام ويتداولونها بينهم. ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(١).

كما أنّهم لم يكونوا يعتقدوا بالمعاد والدار الآخرة، كما يشير إلى ذلك استدلال إبراهيم عليه السلام بدعوته لهم على المعاد والنشأة الآخرة ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾(٢).

وبهذه العقيدة الفاسدة كانوا قد تحولوا من عبادة الله ـ تعالى ـ إلى عبادة

---

(١) العنكبوت: ١٦ ـ ١٧.

(٢) العنكبوت: ١٩ ـ ٢٢.

الشيطان ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً ﴾[١].

وتشير بعض الروايات وبعض النصوص التاريخية إلى أنّهم كانوا يعبدون الكواكب، وحاول بعض المفسرين أن يجد لذلك شاهداً من القرآن الكريم في قصّة نظر إبراهيم إلى الكواكب الذي يقال: إنّها الزهرة، ثم إلى القمر، ومن بعد ذلك إلى الشمس التي وردت في سورة الأنعام، أو ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾[٢].

ولكن هذه الآيات الكريمة لا تدلّ على أكثر من تأملات لإبراهيم في طريقه لادراك الله الواحد الاحد، كما سوف نشير إلى ذلك.

كما أنّ هؤلاء القوم مراسيم يؤدون فيها عبادتهم من تقديم الطعام لها والخروج إلى خارج العمارة للعيد، كما تشير إلى ذلك الآيات التي تتحدّث عن قضية تكسير إبراهيم عليه السلام للاصنام، ومخاطبته لها وخروجهم عنها ﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٣].

وكذلك ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[٤].

---

(١) مريم: ٤٥ ـ ٤٦.

(٢) الصافات: ٨٨ ـ ٨٩.

(٣) الصافات: ٨٩ ـ ٩٦.

(٤) الأنبياء: ٥٨ ـ ٥٩.

ب ـ البعد الاجتماعي الذي كان يتمثل في اتخاذهم الأوثان محوراً للعلاقات الاجتماعية في الولاء والمودة بدل الله تعالى، مع أنّ هذا المحور في الولاء والمودة لا أصل له، بل سوف يتحول بعد ذلك إلى عداوة وبراءة بعضهم من بعض في يوم القيامة.

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾[١].

مضافاً إلى وجود الحالة المدنية في حياتهم الاجتماعيه كالبناء والأعمال اليدوية.

ج ـ البعد السياسي الذي كان يتمثل في وجود نظام للحكم برأسه ملك وفيه قوانين، كما تشير إلى ذلك المناقشة التي جرت بين إبراهيم ومن آتاه الله الملك:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[٢].

وكذلك محاكمة إبراهيم وقرار إلقائه في النار.

وتؤكّد ذلك النصوص التوراتية والتاريخية والروايات الكثيرة المروية عن الصحابة والتابعين وعن أئمة أهل البيت عليهم السلام حيث تذكر أنّ ملكاً عظيماً يسمى أو يكنى بالنمرود كان يحكم بلاد بابل في العراق، وأنّه كان جباراً، وهو الذي أمر

(١) العنكبوت: ٢٥.

(٢) البقرة: ٢٥٨.

بإحراق إبراهيم عليه السلام، كما سوف يأتي في قصّته.

د ـ ولم يتحدّث القرآن الكريم عن الحالة الاخلاقية لهم إلّا بمقدار الإشارة إلى نكوصهم عن الحق، وتكذيبهم للرسالة، والتزامهم بالتقليد الاعمى للآباء، وانتكاسهم على رؤوسهم؛ إذ أخذتهم العزة بالاثم عندما وجدوا أصنامهم قد جعلها إبراهيم جذاذاً، فلم تغن عنهم، ولم تدافع عن نفسها، ولا ترجع لهم جواباً، ولا تخبرهم عن حال، فعمدوا إلى إحراق إبراهيم.

كما لم يتحدّث عن الاوضاع السلوكية والممارسات الشخصية لهم في مجال الآثام والخطايا، أو الظلم والفساد والطغيان وغيرها.

شخصية إبراهيم عليه السلام

لقد تحدّث القرآن الكريم بعض الشيء عن شخصية إبراهيم عليه السلام أثناء الحديث عن قصّته أو بشكل مستقل، وأكّد بشكل خاص صفاته الممتازة وأبعادها المتعددة بحيث يظهر فيها إبراهيم عليه السلام وكأنّه أفضل الأنبياء جميعاً عدا سيد الأنبياء وخاتمهم نبينا محمّد صلى الله عليه وآله.

ولعلّ هذا الجانب هو السبب المهم فيما ورد في الأحاديث الشريفة المتواترة عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله من استحباب قرن الصلاة عليه وآله بالصلاة على إبراهيم وآله والتمثيل بها(١).

ويمكن إجمال الابعاد التي أشار إليها القرآن الكريم من صفات إبراهيم صراحة أو تلميحاً ببيان آثارها بالأبعاد الأربعة التالية:

الأوّل ـ البعد الرسالي:

وهي الصفات التي تشير إلى موقع إبراهيم من الرسالة الإلهيّة، وهذه

---

(١) قال حدّثنا الحكم. قال: سمعت ابن أبي ليلى يقول: لقيت كعب بن عجرة، فقال: ألا أهدي لك هدية: إنّ رسول اللّه (ص) خرج علينا، فقلنا يا رسول اللّه قد علمتنا كيف السلام عليك، فكيف الصلاة عليك؟ قال: «قولوا اللّهمّ صل على محمّد كما صليت على إبراهيم إنّك حميد مجيد وبارك على آل محمّد كما باركت على آل إبراهيم انك حميد مجيد» قصص الانبياء لابن كثير: ١٦٨ عن الصحيحين، ورواه ـ أيضاً ـ في جامع أحاديث الشيعة ١٥: ٤٧٥ عن أمالي ابن الطوسي، وأكّدته أحاديث عديدة. راجع جامع أحاديث الشيعة ١٥: ٤٧٦ ـ ٤٧٨.

الصفات هي :

أ ـ (الامامة) حيث تحدّث القرآن الكريم عن منح الله ـ تعالى ـ لإبراهيم مقام الإمامة : ﴿ وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾(١).

وقد استجاب الله ـ تعالى ـ لإبراهيم دعوته في أن تكون هذه الإمامة فيه وفي ذريته، كما صرّح القرآن الكريم بذلك في عدة مواضع أُخرى أيضاً. واستثنى من نيلها الظالمين.

قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنْ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾(٢).

والإمامة على ما تشير إليه الآية الكريمة السابقة، وتؤكده بعض الروايات التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام أنّها أعلى درجات النبوّة.

فقد روى الكليني في الكافي بسنده عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال : سمعته يقول : «إنّ الله اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً، واتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، واتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، واتخذه خليلاً قبل أن يتخذه إماماً، فلمّا جمعت له هذه الاشياء ـ وقبض يده ـ قال له يا إبراهيم : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ

---

(١) البقرة : ١٢٤.

(٢) الانعام : ٨٤ ـ ٨٧.

إماماً ﴾ فمن عظمها في عين إبراهيم، قال يا رب: ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾[١]».

ويبدو من القرآن الكريم عند تتبع استخدام عنوان الإمامة أنّ البداية كانت من إبراهيم عليه السلام.

ب ـ (أُولي العزم)، حيث إنّ إبراهيم عليه السلام قد عدّه القرآن الكريم من أنبياء أُولي العزم من الرسل، كما ذكرنا ذلك في الحديث عن نوح عليه السلام، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في سورتي الشورى (١٣) والاحزاب (٧).

ويمتاز هؤلاء الأنبياء بإنزال الشرائع السماوية عليهم لتنظيم حياة الناس بها، ممّا يؤشّر على وجود أقوام من الناس يؤمنون بهم ويتبعون مناهجهم، وقد أكّد القرآن الكريم وجود هذا النوع من الوحي الإلهي على إبراهيم عليه السلام عندما تحدّث عن (صحف إبراهيم وموسى) ﴿ إِنَّ هٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾[٢].

كما أنّ هؤلاء الأنبياء ممّن أخذ عليهم الله ـ تعالى ـ الميثاق الغليظ بسبب طبيعة ثقل المسؤولية والرسالة التي يتحملونها، كما أشارت إلى ذلك الآية (٧) من سورة الأحزاب.

ج ـ (الاصطفاء) لقد كان إبراهيم عليه السلام من جملة الأنبياء الذين ذكرهم القرآن الكريم بالاصطفاء والاجتباء، وتميّز بأنّه كان أوّل من تم اصطفاؤه مع آله وعترته.

﴿ إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً

---

(١) أصول الكافي ١: ١٧٥.

(٢) الأعلى: ١٨ ـ ١٩.

بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

وقد تحدّث القرآن الكريم عن هذه الصفة في إبراهيم في مواضع عديدة، وعبّر عنها بأساليب مختلفة؛ لتأكيد هذا الموقع الرسالي الخاص.

د ـ ﴿ وَآتَيْنَاه فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[2] تدل هذه الآية الكريمة إلى أنّ اللّه جمع لابراهيم عليه السلام الدنيا والآخرة، فهو في دنياه يعيش عيشة حسنة له مال وأولاد، ومنعة وعزّة، وكرامة ومروة، وذرية وبقاء في الذكر الحسن، وقدوة للأنبياء حتى أفضلهم وخاتمهم، وقبول من جميع الأمم والملل، وصلوات دائمة عليه وعلى آله.

وهو في الآخرة من الصالحين الذين أنعم اللّه عليهم، ورفع درجتهم، واستجاب دعاءه في أن يلحقه بمحمّد وآله عليهم الصلاة والسلام، فيكون منهم[3].

الثاني ـ العلاقة بالله تعالى :

وهي الصفات التي تتحدّث عن نوع ومستوى العلاقة بين اللّه تعالى وإبراهيم، والتي يمكن أن نراها فيما أشار إليه القرآن الكريم من الصفات التالية : فقد كان إبراهيم عليه السلام :

أ ـ حنيفا مسلماً؛ إذ وصف اللّه ـ تعالى ـ إبراهيم ودينه وملته بهذا الوصف في عدّة مواضع من القرآن الكريم :

---

(١) آل عمران : ٣٣ ـ ٣٤.

(٢) النحل : ١٢٢.

(٣) راجع الميزان ١ : ٣٠٥.

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[١].

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[٢].

والحنيف المسلم هو: الذي أخلص وأسلم لأمر الله تعالى، فلم يلتو في شيءٍ من دينه، أو هو المائل عن الضلالة إلى الاستقامة[٣].

وقد جاء التأكيد في أغلب هذه الايات بأنّه لم يكن من المشركين؛ لأنّ بعض العرب المشركين كانوا يدّعون أنّهم على دين إبراهيم. كما أنّه في الوقت نفسه تأكيد للاستقامة في الدين.

ب ـ **شاكراً لانعم الله ـ تعالى ـ عليه**؛ إذ هداه إلى الدين الحنيف، وتفضل عليه بالنبوّة والرسالة والإمامة، وأنجاه من النار، وأنقذه من الطغاة، وآتاه في الدنيا حسنة، ورزقه الذرية الصالحة المصطفاة، وجعل ذكره من الخالدين...

وكان في كلّ هذه المواقع يتصف بالشكر لهذه النعم، وصفة الشكر للمنعم تمثل التعبير الأصيل لعلاقة العبودية بين الانسان والله تعالى.

ج ـ **قانتاً ومطيعاً لله ـ تعالى ـ** بخضوع وخشوع وتسليم، فهي صفة من صفات اقتران الطاعة لله بالعبادة والخضوع والخشوع له.

د ـ **خليلاً لله تعالى** ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾[٤].

---

(١) آل عمران: ٦٧.

(٢) الانعام: ١٦١.

(٣) معجم ألفاظ القرآن ١: ٣٠٤، ومفردات الراغب: ١٣٣.

(٤) النساء: ١٢٥.

والخليل هو: الذي أخلص في الحبّ حتى تخلل الحب والود نفسه وخالطها، فهو عليه السلام قد اختلط حبّه للّه بنفسه الشريفة وتخلّلها، كما خالط إحسان اللّه ـ تعالى ـ له ولطفه به نفسه وتخللها. فهي علاقة التمازج والاختلاط في الحب والولاء بينه وبين اللّه تعالى، كل بما يناسب شأنه.

وهذا الوصف ممّا اختص به إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم[1].

هـ ـ **الوفاء** بالعهود والميثاق الغليظ الذي اخذه اللّه ـ تعالى ـ عليه ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾[2].

فلم يقصّر في أداء مسؤوليته مهما كانت المصاعب والعقبات، ومهما كانت التفاصيل والمفردات، وقد اختص اللّه ـ تعالى ـ في القرآن الكريم إبراهيم بهذا الوصف.

و ـ منيباً إلى اللّه تعالى ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾[3] فهو يرجع إلى اللّه ـ تعالى ـ في أموره كلّها ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ... ﴾[4].

---

(١) وقد ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام أنّ اللّه ـ تعالى ـ إنّما اتخذ إبراهيم خليلاً؛ لأنّه لم يرد أحداً، ولم يسأل أحداً قط غير اللّه تعالى. وفي رواية أخرى لكثرة سجوده على الارض. وفي رواية ثالثة لإطعامه وصلاته بالليل والناس نيام. وفي رواية رابعة لكثرة صلواته على محمّد وأهل بيته صلوات اللّه عليه وآله. البحار ١٢ : ٤، عن عيون أخبار الرضا وعلل الشرائع للصدوق.

(٢) النجم : ٣٧.

(٣) هود : ٧٥.

(٤) الزمر : ١٧.

الثالث ـ العلاقة بالناس والأمّة :

فقد ذكر القرآن الكريم في وصف أبراهيم عليه السلام صفاتاً توضح طبيعة العلاقة بينه وبين قومه، وأهل بيته والناس بشكل عام.

أ ـ إنّ إبراهيم كان أمّة وقد ورد في تفسير ذلك أنّه كان قدوة ومعلّماً للخير، فهو إمام هدى، وأنّ قوام الأمّة بوجوده، وأنّ عمله كان عمل أمّة، أو أنّه مفرد في زمانه بالتوحيد، فكان مؤمناً والناس كفار[١].

وقد ورد في سورة الممتحنة وضع إبراهيم في موضع القدوة للمسلمين في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾[٢].

كما ورد فيه الأمر لرسول الله باتباع ملة إبراهيم عليه السلام: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[٣]. كما ورد فيه: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ... ﴾[٤].

ب ـ وكان حليماً؛ إذ وصفه القرآن الكريم بذلك عندما أخذه العطف والشفقة على لوط وقومه بسبب ما أخبره به رسل الله بالقرار الإلهي في نزول العذاب عليهم، فهؤلاء القوم بالرغم من انحرافهم وشذوذهم، وكذلك إيذائهم لابن أخيه

---

(١) البحار ١٢ : ٢ عن مجمع البيان.

(٢) الممتحنة : ٦.

(٣) النحل : ١٢٣.

(٤) النساء : ١٢٥.

لوط وأسائتهم لمعاملته، فإن إبراهيم أخذ يجادل المرسل فيهم ـ كما سوف نعرف ـ بأمل دفع نزول العذاب عنهم.

وهذا يعني: أنّ حالة العطف والشفقة والرأفة بالناس عموماً من الصفات المميزة التي تميز هذا النوع من الناس الذي اصطفاهم اللّه لرسالته ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾[١].

وهذا الوصف ذكره القرآن الكريم بشأن نبينا محمّد صلى الله عليه وآله في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[٢].

كما يذكر هذه الصفة (الحلم) لإبراهيم في عطفه على أبيه وموعدته إياه بالاستغفار له، وإن كان قد تبرأ منه عندما تبين له أنّه عدو للّه.

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾[٣].

ومن هنا يمكن أن نفهم أنّ الحلم هو الصبر المقرون بالعطف والرأفة على فعل السوء رجاء إصلاح الحال حباً بالآخرين وطلباً لمنفعتهم.

ج ـ وكان بريئاً من أعداء اللّه الذين يصرون على موقفهم في العداوة، ويلحّون على التمرد والعصيان.

---

(١) هود: ٧٤ ـ ٧٥.

(٢) التوبة: ١٢٨.

(٣) التوبة: ١١٤.

وقد ذكر القرآن الكريم هذا الوصف لابراهيم في علاقته مع المشركين عندما تبين له هذا الإصرار وهذا الموقف دون الفرق بين الأباعد منها والأقارب.

وجعل هذا الوصف موضع لإبراهيم؛ ليكون الأُسوة والقدوة للآخرين.

فقد سبق أن أشرنا إلى موقفه من البراءة من أبيه عندما تبين له أنّه عدو للّه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(١).

وبذلك نعرف أنّ هذه الصفة تكمّل صفة الحلم التي تحدثنا عنها في الفقرة السابقة في علاقة إبراهيم بالناس.

د ـ **كان يدعو إلى اللّه بالحكمة والموعظة الحسنة**؛ إذ كان يتبع أُسلوب مخاطبة العقل والوجدان، والتدرج في الخطاب والموقف، واستخدام مختلف الأساليب والوسائل المشروعة للوصول إلى هدفه مع الالتزام بالخلق الإنساني الرفيع.

وسوف يتضح ذلك عندما نستعرض مراحل حياته ودعوته، والأساليب التي كان يتبعها في ذلك.

الرابع ـ معالم الشخصية:

فقد ذكر القرآن الكريم إلى جانب جميع الصفات السابقة بعداً رابعاً من

---

(١) الممتحنة: ٤ ـ ٥.

شخصية إبراهيم، وهو: البعد الذي يرتبط بعالم شخصيته الذاتية.

أ ـ التفكير والتأمل والتدبر في الخلق والكون وظواهر الطبيعة من أجل الوصول إلى الحقيقة؛ إذ يذكر له القرآن الكريم عدّة مواقف تعبّر عن ذلك. لعلّ أحسنها ما ذكره في سورة الأنعام من تفكيره وتدبره في التفتيش عن ربه الخالق وهو في صغره عندما رأى الكوكب وأُفوله، ثم انتقاله إلى القمر والشمس، ثم إلى معرفته بالله تعالى:

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[1].

كما سوف نشير إلى ذلك في المرحلة الأُولى من حياته.

وكذلك طلبه من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى للوصول إلى درجة اليقين في معرفة النشأة الاخرة ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2].

كما سوف نعرف ذلك في المرحلة الثالثة من حياته.

ب ـ إنّه كان واسع المعرفة بالحقائق الإلهية بسبب طلبه لها بالتأمل والتفكير من ناحية، وبسبب اللطف الإلهي والعناية الربانية به الذي فتح له هذا الباب الواسع من المعرفة من ناحية أُخرى، والذي عبّر عنه القرآن الكريم بـ(اراءته لملكوت

---

(١) الأنعام: ٧٦ ـ ٧٨.

(٢) البقرة: ٢٦٠.

السماوات والارض) ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنْ المُوقِنِينَ﴾[1]. حيث كان يرى الحقائق الإلهية الغيبية والمشهودة في السماوات والأرض[2].

ج - إنّ إبراهيم عليه السلام كان قوي الحجّة والبرهان، ويبدو ذلك واضحاً من القرآن الكريم في عرضه لاحتجاج إبراهيم مع أبيه، ومع قومه في المرحلة الأُولى من حياته، كما تذكره آيات سورة الأنعام؛ ولذلك وصفة القرآن الكريم بعدها بقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ

---

(١) الأنعام: ٧٥.

(٢) وقد قال العلّامة المجلسي بعد ذكره لمجموعة من الاخبار: إنّ إراءته ملكوت السماوات والأرض يحتمل:

١ - أن يكون ببصر العين: بأن يكون اللّه - تعالى - قد قوى بصره، ورفع له كلّ منخفض، وكشط له عن أطباق السماء والأرض حتى رأى فيهما ببصره.

٢ - أن يكون المراد منه رؤية القلب: بأن أنار قلبه حتى أحاط بها علماً.

والأوّل أظهر نقلاً، والثاني عقلاً.

والظاهر على التقديرين: أنّه أحاط علماً بكلّ ما فيهما من الحوادث والكائنات.

٣ - وأمّا حمله على أنّه رأى الكواكب وما خلقه اللّه في الأرض على وجه الاعتبار والاستبصار، واستدلّ بها على اثبات الصانع، فلا يخفى بعده عمّا يظهر من الأخبار. انتهى كلامه. البحار ١٢: ٦١ - ٦٢.

ولكنّ الظاهر من الآية الكريمة في سورة الأنعام - بعد جمعها مع الاخبار وما استظهره فيه من العقل كما في الاحتمال الأوّل والثاني - أنّ ما ذكره الاحتمال الثالث هو الصحيح، وكان ذلك مقدّمة لحصول مضمون كل من الاحتمالين الآخرين الأوّل والثاني. واللّه أعلم.

حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾[١]. وكذلك موقفه في الاحتجاج على قومه بعد ذلك في المرحلة الثانية من حياته، وتكسيره الأصنام بهدف إقامة الحجّة وكأُسلوب لتوضيح الحقيقة كما هو الظاهر، ولم يكن الغرض هو مجرد الانتقام والله أعلم، ولذلك اضطروا في البداية إلى التسليم بالحجّة ثم نكسوا على رؤسهم.

وكذلك موقفه في الاحتجاج مع الملك في موضوع ربه الله تعالى الذي عرفه بالاحياء والاماتة، ثم بالتصرف في هذا الكون ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[٢].

د ـ الشجاعة الفائقة في المواقف والاستقامة عليها، كما يبدو ذلك واضحاً في كلّ مواقفه العامة والخاصة: في دعوته لابيه وقومه، وفي تكسيره للأصنام، ووقوفه في مواجهة قومه وهو واحد منفرد، وفي صبره على الإحراق بالنار، وفي مجادلته للملك، وفي هجرته إلى الأرض المباركة، وفي إسكانه لذريته في واد غير ذي زرع، وفي بنائه البيت، وفي إقدامه على ذبح ولده إسماعيل، إلى غير ذلك ممّا يعبّر عن هذا البعد في شخصيته[٣].

---

(١) الأنعام: ٨٣.

(٢) البقرة: ٢٥٨.

(٣) لمزيد الفائدة وازن ما ذكرناه هنا عن أبعاد شخصية إبراهيم بما ذكره العلاّمة الطباطبائي في الميزان ٧: ٢١٧ ـ ٢١٨، وكذلك ما ورد في البحار عن كتاب الخصال للصدوق ١٢: ٦٧ ـ ٧٠.

حياة إبراهيم عليه السلام

يمكن تقسيم حياة إبراهيم وقصّته من خلال ما عرضه القرآن الكريم في مواضع متعدّدة إلى أربع مراحل، وهي:

١ ـ مرحلة الفتوة.

٢ ـ مرحلة الدعوة والمواجهة.

٣ ـ مرحلة الهجرة وإبلاغ رسالة التوحيد.

٤ ـ مرحلة الإمامة وبناء الكعبة.

١ ـ مرحلة الفتوّة:

كان إبراهيم عليه السلام قد ولد في (فدان آرام) من أرض العراق كما تذكر التوراة أو بابل كما تذكر بعض النصوص التاريخية والروايات، وفي بيت وثني؛ إذ كان أبوه الذي سمّاه القرآن الكريم (آزر) نجّاراً ينحت الأصنام، ويبيعها لمن يعبدها كما نصّ على ذلك إنجيل برنابا[1]، وورد أنّه كان منجّماً لنمرود، ويمكن أن يكون قد جمع بين الأمرين.

ولكن إبراهيم عليه السلام منذ طفولته وحتى وصوله إلى مرحلة التمييز والفتوة كان يعيش في معزل عن قومه كما تشير إلى ذلك بعض النصوص التاريخية، وبعض

---

(١) قصص الانبياء للنجار: ١١٨.

الروايات المروية المعتبرة عن أهل البيت عليهم السلام(١) وقد أدرك في هذه العزلة الحقائق

---

(١) أبي وابن الوليد معاً، عن سعد، عن ابن يزيد، عن ابن أبي عمير، عن هشام بن سالم، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله (ع) قال: «كان أبو إبراهيم منجّماً لنمرود بن كنعان، وكان نمرود لا يصدر إلّا عن رأيه، فنظر في النجوم ليلة من الليالي فأصبح، فقال: لقد رأيت في ليلتي هذه عجباً، فقال له نمرود: وما هو؟ فقال: رأيت مولوداً يولد في أرضنا هذه يكون هلاكنا على يديه، ولا يلبث إلّا قليلاً حتى يحمل به، فعجب من ذلك نمرود، وقال: هل حمل به النساء؟ فقال: لا. وكان فيما أُوتي من العلم أنّه سيحرق بالنار، ولم يكن أُوتي أنّ الله سينجيه، قال: فحجب النساء عن الرجال، فلم يترك امرأة إلّا جعلت بالمدينة حتى لا يخلص إليهن الرجال، قال: وباشر أبو إبراهيم امرأته فحملت به، فظنّ أنّه صاحبه، فأرسل إلى نساء من القوابل لا يكون في البطن شيء إلّا علمن به، فنظرن إلى أم إبراهيم فألزم الله - تبارك وتعالى - ذكره ما في الرحم الظهر فقلن: ما نرى شيئاً في بطنها، فلمّا وضعت أُمّ إبراهيم أراد أبوه أن يذهب به إلى نمرود، فقالت له امرأته: لا تذهب بابنك إلى نمورد فيقتله، دعني أذهب به إلى بعض الغيران أجعله فيه حتى يأتي عليه أجله، ولا تكون أنت تقتل ابنك، فقال لها: فاذهبي، فذهبت به إلى غار، ثم أرضعته، ثمّ جعلت على باب الغار صخرة، ثمّ انصرفت عنه، فجعل الله رزقه في إبهامه فجعل يمصّها، فيشرب لبناً، وجعل يشبّ في اليوم كما يشب غيره في الجمعة، ويشبّ في الجمعة كما يشبّ غيره في الشهر، ويشبّ في الشهر كما يشبّ غيره في السنة، فمكث ما شاء الله أن يمكث، ثمّ إنّ أمه قالت لأبيه: لو أذنت لي أن أذهب إلى ذلك الصبي فأراه، فعلت، قال: فافعلي، فأتت الغار فإذا هي بإبراهيم (ع)، وإذا عيناه تزهران كأنّهما سراجان، فأخذته، وضمته إلى صدرها، وأرضعته، ثمّ انصرفت عنه، فسألها أبوه عن الصبي؟ فقالت: قد واريته في التراب، فمكثت تعتل، فتخرج في الحاجة، وتذهب إلى إبراهيم (ع) فتضمّه إليها وترضعه، ثمّ تنصرف، فلمّا تحرّك أتته أمّه كما كانت تأتيه، وصنعت كما كانت تصنع، فلما أرادت الانصراف أخذ ثوبها، فقالت له: ما لك؟ فقال: اذهبي بي معك، فقالت له: حتى استأمر

الإلهيّة حيث إنّه خرج يوماً من مكانه متأمّلاً في هذا الكون والوجود يفتّش عن ربّه في السماء، وقد غابت الشمس، فنظر إلى أحد الكواكب الذي يقال: إنّه الزهرة، فقال: ﴿ هٰذَا رَبِّي ﴾ ـ على الفرض والاحتمال ـ فلما غاب وأفل، قال: ﴿ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ ثم نظر إلى الشرق وقد رأى القمر قد طلع، فقال: ﴿ هٰذا رَبِّي ﴾ هذا أكبر وأحسن، فلما تحرك وزال قال: ﴿ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ فلمّا أصبح وطلعت الشمس، ورأى ضوءها وقد أضاءت الدنيا لطلوعها، قال: ﴿ هٰذا رَبِّي هٰذَا أَكْبَرُ ﴾ وأحسن، فلمّا تحركت وزالت كشف اللّه عن السماوات حتى رأى ملكوت السماوات والارض، فعند ذلك قال: ﴿ ... يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[١].

وقد كانت فطرة إبراهيم طاهرة زكية، وقلبه سليم لم يتلوث بالأدناس والأرجاس وعبادة الاوثان، أو ممّا كان قومه عليه من الفساد والانحراف، فشاهد الحقّ، ووصل إليه بتوفيق اللّه تعالى.

وعندما دخل إبراهيم بيت أبيه آزر أخذ يحاجّه في عبادته للأصنام، ويدعوه إلى رفضها وتوحيد اللّه تعالى، واتباعه حتى يهديه اللّه إلى الصراط المستقيم، ويبعد عن ولاية الشيطان وعبادته، ولم يزل يلحّ عليه بذلك حتى نهره وطرده

أباك، فلم يزل إبراهيم في الغيبة مخفيّاً لشخصه كاتماً لأمره حتى ظهر، فصدع بأمر اللّه ـ تعالى ـ ذكره، وأظهر اللّه قدرته فيه». البحار ١٢ : ٤١ عن كمال الدين للصدوق.

ولكن الشيخ الراوندي ذكر في قصص الأنبياء هذه الرواية عن الصدوق مع فارق مهم، وهو: أنّ آزر كان عمّ إبراهيم، وأنّ (تارخ) كان قد وقع على أم إبراهيم فحملت به.

(١) تفسير علي بن إبراهيم القمي: ١٩٤، ١٩٥، والآية ٧٨ ـ ٧٩ من سورة الأنعام.

وأبعده عن نفسه، وأخذ يهدّده ويوعّده بالرجم والعذاب إن لم ينته عن ذكر آلهته بسوء أو الرغبة عنها.

فتلطّف إبراهيم بأبيه إرفاقاً به وحناناً عليه، وقد كان ذا خُلق كريم، فسلّم عليه، ووعده بأن يستغفر له اللّه تعالى، ويشاركه الحديث ويعتزله وعبادة الآلهة ليتوجه إلى عبادة اللّه وحده.

وقد كان إبراهيم ـ من جانب آخر ـ يحاج قومه في أمر الأصنام حتى الزمهم الحقّ، وشاع خبره بين الناس في الانحراف عن الأصنام والآلهة.

وقد كان قومه يخوفونه من انتقام الآلهة ونزول العذاب بـه بسـبب رفـضه لعبادتها، ودعوة الناس لاجتنابها، ولكنّه عليه السلام كان يجيبهم بأنّهم أحقّ بـالخوف؛ لأنّهم مشركون، وهو أحقّ بالأمن؛ لأنّه آمن باللّه وحده لا شريك له:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَـا مِـنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَـهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ

نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾[١].

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيّاً * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً ﴾[٢].

ويبدوا انّ إبراهيم عليه السلام في هذه المرحلة:

١ ـ كان يعيش الفطرة النقية والقلب السليم.

٢ ـ استخدم عقله ووجدانه للوصول إلى الحقيقة، فأعانه الله ـ تعالى ـ على ذلك بإراءته ملكوت السماوات والأرض.

٣ ـ المجادلة بالحكمة والموعظة الحسنة لأبيه وأهله ثمّ لقومه.

٤ ـ اللطف والمصاحبة بالمعروف لأبيه آزر.

٥ ـ المهادنة والمتاركة لأبيه وقومه، والانفصال عنهم في الحياة الاجتماعية والدينية، والتوجه إلى الله تعالى بالعبادة؛ إذ كان يعمل مع أبيه وهو نجّار يصنع الأوثان.

وتشير بعض الروايات عن أهل البيت عليهم السلام أنّ إبراهيم كان يسخر من

---

(١) الأنعام: ٧٤ ـ ٨٣.

(٢) مريم: ٤١ ـ ٤٨.

الأوثان والأصنام في هذه المرحلة، حيث كان أبوه يدفع له الأصنام؛ ليبيعها كما يبيع إخوته، فكان يعلّق في أعناقها الخيوط، ويجرّها على الأرض ويقول: «من يشتري ما لا يضرّه ولا ينفعه» ويغرقها في الماء والحماة، ويقول لها: «اشربي وتكلّمي»!! فذكر إخوته ذلك لأبيه، فنهاه، فلم ينته، فحبسه في منزله ولم يدعه يخرج[١].

٢ ـ مرحلة الدعوة والمواجهة:

لم يحدّد القرآن الكريم الوقت الذي خوطب به إبراهيم بالرسالة والدعوة، كما هو الحال بالنسبة إلى موسى عليه السلام، ولكن يبدو ـ والله أعلم ـ أنّ الخطاب بالرسالة كان بعد فترة العزلة عن أبيه ومجتمعه، حيث اتسم موقف إبراهيم بعدّة سمات جديدة:

أ ـ المواجهة بعد المهادنة.

ب ـ البراءة من أبيه بعد الاستغفار له.

ج ـ الشدّة في التعامل مع عبادة الأصنام، بعد أن كان الموقف السابق يتصف بالاحتجاج الكلامي اللين، أو السخرية الفردية الخاصة.

وهذا التطور في الموقف يعبّر عن وضع جديد يتسم بالمسؤولية الكبيرة وتحمل الأعباء والأخطار، وهو ينسجم مع افتراض توجه الخطاب الإلهي له بالنبوّة والرسالة.

ويبدو ذلك واضحاً من خلال المقارنة بين ما ورد في سورة الأنعام ومريم، مع ما ورد في سورة الأنبياء والشعراء والعنكبوت والصافات.

---

(١) تفسير القمي: ١٩٥.

وهنا نجد إبراهيم عليه السلام :

١ ـ قد أخذ ينتقد بشكل علني وواضح عبادة قومه للاصنام، ويستنكر عليهم ذلك، ويحتج على هذا الانحراف والضلالة بأنّ هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر، ولا تملك الرزق، ولا تسمع الدعاء، ولا تبصر الأشياء، وأنّها إفك قد افتراه الناس على اللّه تعالى والحقيقة. ولم يجد جواباً عن هذا الاحتجاج والاستنكار إلّا جواباً واحداً، وهو : أنّهم يقلّدون آباءهم الاقدمين في هذه العبادة.

٢ ـ ولمّا ألحّ عليهم بالاحتجاج والطلب أخذوا يستغربون منه ذلك، ويتعجبون من حديثه، وهل هو حديث جدّ وحقّ أو كان يلعب ويمزح معهم ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالحَقّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاعِبِينَ ﴾[1]. ولكنّه عليه السلام أكّد أنّه جاء بالحقّ وأنّ الربّ هو اللّه ـ تعالى ـ ربّ السماوات والأرض الذي فطرهن، وأنّه هو الشاهد على الحقيقة المطلع على هذا الواقع ﴿ الّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِي * وَالّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي * وَالّذِي يُمِيتُنِي ثُمّ يُحْيِينِ * وَالّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدّينِ ﴾[2].

ثمّ أخذ يتوجه إلى ربّه بالدعاء مؤكداً ذلك ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنّةِ النّعِيمِ * وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنّهُ كَانَ مِنَ الضّالّينَ * وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[3].

٣ ـ وفي تطور آخر آخذ يعظهم، ويذكّرهم بالآخرة والنشأة الاخرة

---

(١) الأنبياء : ٥٥.

(٢) الشعراء : ٧٨ ـ ٨٢.

(٣) الشعراء : ٨٣ ـ ٨٩.

وبمواقف الأمم السابقة من الأنبياء والرسالات، وما نزل بهم من عذاب بسبب تكذيبهم، وإنّهم مهما أُوتوا من قوة فهم لا يعجزون اللّه - تعالى - أن يأخذهم بالعذاب ﴿ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1].

٤ - وفي تطور رابع أخذ إبراهيم يتبرأ بشكل علني وواضح من الآلهة، ويظهر العداوة لهم، ويتوعد، ويهدد بالكيد لهم والقضاء عليهم؛ ليثبت بشكل واضح عجزها عن الدفاع عن نفسها، أو قدرتها على أن تفعل شيئاً لنفسها، بل هي أدنى وأعجز من الإنسان نفسه الذي يتمكن من الأكل والشرب والكلام، وهي لا تتمكن من ذلك كلّه.

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾[2].

﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾[3].

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[4].

---

(١) العنكبوت: ١٨ - ٢٣.

(٢) الشعراء: ٧٧.

(٣) الأنبياء: ٥٧.

(٤) الزخرف: ٢٦ - ٢٨.

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾[1].

ولما تبيّن لإبراهيم أنّ أباه عدو لله تبرأ منه أيضاً ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾[2].

٥ ـ وفي تطور آخر بدأ إبراهيم يخطط للدخول في مواجهة عملية وميدانية فعلية، ولم يكتف بالحديث والكلام والبراءة من قومه وممّا يعبدون.

وكان إبراهيم قد توعّد قومه أن يكيد لاصنامهم، فخرج قومه ذات يوم إلى عبادة جامعة لهم خارج البلد، أو إلى عيد من أعيادهم، أو يوم من أيامهم يخرجون فيه من منازلهم إلى خارج البلد ـ كما يفعل بعض الناس ذلك في يوم ١٣ فروردين من السنة الشمسية في بلاد فارس وغيرها ـ وتخلّف عنهم إبراهيم متعللاً بالسقم، فلم يخرج معهم، ودخل بيت الأصنام وأخذ قدوماً بيده، فراغ على آلهتهم ضرباً باليمين، فجعلهم جذاذاً وأجزاءً محطمة، واستثنى من ذلك كبير الأصنام، لعلّهم يرجعون إليه بالسؤال؛ لمعرفة الحقيقة.

فلمّا رجعوا، وشاهدوا ما حدث لآلهتهم أخذوا يسألون، ويفتشون عمّن فعل بهم ذلك، فقال بعضهم: سمعنا فتى يذكرهم يقال له: إبراهيم.

---

(١) الممتحنة: ٤.

(٢) التوبة: ١١٤.

فأحضروا إبراهيم إلى مجمعهم، وأتوا به على أعين الناس؛ ليشهدوا استنطاقه.

وانتهز إبراهيم هذه الفرصة ليبلّغ دعوته مع الحجّة البالغة والدليل الواضح -كما صنع موسى عليه السلام بعده في قضيه المباراة مع السحرة -.

قالوا ءأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟!.

قال لهم إبراهيم عليه السلام: -على نحو الاحتجاج والالزام لا الجد والاخبار، ليكشف لهم حقيقة الاصنام عملياً - إنّ هذا ممّا فعله كبيرهم بهم -وأشار إليه- فاسألوهم إن كانوا ينطقون.

وقد قال لهم ذلك وهو يعلم أنّه لا يصدقونه على ذلك؛ لأنّهم يعلمون أنّ هذه الأصنام جمادات لا يقدر أيّ واحد منهم على هذا الفعل، ولا على الاخبار عن الواقع. وبذلك يكون إبراهيم قد ألزمهم بالحجّة العملية، وواجههم بعجز هذه الأصنام وعدم قدرتها على الضر، أو النفع، أو الكلام، أو السمع.

ولذلك لمّا سمعوا منه هذا الكلام رجعوا إلى أنفسهم، فعرفوا الحقيقة، وقالوا: إنّكم أنتم الظالمون بعبادة الأوثان وبالشرك بالله تعالى.

ولكنّهم نكسوا على رؤوسهم مرة أخرى، وأخذتهم العزّة بالاثم والجحود، فقالوا: لقد علمت أنّ هؤلاء لا ينطقون؟!

قال: أفتعبدون من دون الله ما لا يضرّكم، ولا ينفعكم؟! أُفٍّ لكم وما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون. أتعبدون ما تنحتونه بأيديكم، وتصنعونه بأنفسكم وتتركون عبادة الله الذي خلقكم، وما تعملون؟!

٦ - وفي تطور آخر للموقف نجد قوم إبراهيم -وعلى رأسهم ملكهم النمرود على ما ذكرته بعض النصوص التأريخية والروايات - يتخذون قراراً، ويصدرون

حكماً بإحراق إبراهيم عليه السلام عقاباً له على هذا العمل الذي كانوا يرونه جريمة من أكبر الجرائم في حقّهم وحقّ مجتمعهم، وذلك بعد أن كانوا قد نكسوا على رؤوسهم، واستمراراً منهم في موقفهم، وأخذوا يحرّض بعضهم بعضاً على نصرة آلهتهم. فبنوا له بنياناً، وأسعروا فيها جحيماً من النار، وقد اشترك في هذا الأمر عامة الناس، وألقوه في الجحيم التي أسعروها من خلال رميه بالمنجنيق على ما تذكر بعض النصوص.

٧ ـ وهنا حدثت المفاجأة التي ادهشت الجميع: إذ إنّ الله ـ سبحانه ـ أمر النار أن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم، وأبطل كيدهم بذلك.

وتذكر بعض النصوص أن نمرود نظر إلى إبراهيم عليه السلام وقد أنجاه الله ـ تعالى ـ من النار، فقال متعجباً: من اتخذ إلهاً فليتخذ مثل إله إبراهيم.

٨ ـ وقد أُدخل إبراهيم عليه السلام في مثل هذه الأحوال على الملك، وكان يعبده القوم، ويتخذونه رباً، فحاجّ الملك إبراهيم في ربّه[1].

فقال له الملك: مَنْ ربّك هذا؟ قال إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت، قال له الملك: أنا أُحيي وأميت. فقال له إبراهيم: كيف تحيي وتميت؟ قال أعمد إلى رجلين ممّن وجب القتل لهما، فأطلق أحدهما وأعفو عنه، وأقتل الآخر، فأكون قد أمت وأحييت (فقال إبراهيم عليه السلام إن كنت صادقاً فأحيي الذي قتلته). ثم قال إبراهيم عليه السلام: يا هذا فإنّ ربي يأتي بالشمس من المشرق، فات بها من المغرب!

---

(١) ويقول علي بن إبراهيم القمي في تفسيره: إنّ هذه الواقعة كانت بعد نجاته من الإحراق بالنار ـ وهذا هو مقتضى التسلسل الطبيعي للأحداث ـ حيث أثار ذلك عند الملك هذا السؤال.

فبهت الذي كفر، وانقطع عن الاحتجاج[١].

٩ ـ وقرر إبراهيم الهجرة ـ مع من آمن معه ـ من بلاده إلى الأرض المقدسة المباركة ليدعو إلى اللّه تعالى؛ وذلك إمّا لوجود فرصة أفضل للدعوة إلى اللّه تعالى وإبلاغ رسالته، كما قد يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾[٣].

أو أنّ اللّه أنجاه من القوم الكافرين بقرار من الملك بنفيه إلى الأرض المباركة، كما تنص على ذلك بعض الروايات[٤]. وقد يفهم من قوله تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾[٥].

ونلاحظ في هذه المرحلة الأمور التالية:

١ ـ أنّ إبراهيم عليه السلام قد اتبع في دعوته إلى قومه سبيل الحكمة والموعظة الحسنة والتدرج في إبلاغ الدعوة، واستخدم في ذلك العقل والمنطق السليم ومخاطبة الوجدان. وبدأ بأهله وعشيرته، ثمّ بالناس عموماً حتى انتهى الأمر به إلى مجادلة الملك نفسه.

٢ ـ أنّ إبراهيم عليه السلام لم يؤمن له أحد من قومه إلّا لوط ـ كما يصرّح القرآن

---

(١) تفسير القمي: ٧٦، ومجمع البيان ٢: ٣٦٧.

(٢) العنكبوت: ٢٦.

(٣) الصافات: ٩٩.

(٤) روضة الكافي: ٣٧٠.

(٥) الأنبياء: ٧١.

الكريم باسمه ـ وزوجته سارة التي كان قد تزوّج بها قبل هجرته، كما تشير الآيات الدالة على سؤاله من ربّه أن يهب له الذرية الصالحة. وكما تؤكّد ذلك بعض الروايات.

كما أنّ قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ ... ﴾[1] يدلّ على وجود أكثر من واحد من المؤمنين معه.

هذا كلّه رغماً عمّا بذله إبراهيم من عناء وتعب وجهود في سبيل إبلاغ الدعوة.

٣ ـ أنّ إبراهيم كان يتبع أُسلوب التخطيط في المواجهة مع الشجاعة الفائقة، والصبر والتوكل على اللّه تعالى، وتحمل المسؤولية بمفرده، وتحمل نتائجها مهما كانت، والاستقامة على الموقف مهما كانت الظروف.

٤ ـ البراءة المطلقة من الكافرين حتى لو كانوا أقرب الناس إليه، ولذا كان إبراهيم قدوة لكلّ المؤمنين بالرسالات الإلهيّة الخاتمة. كما ذكرنا ذلك سابقاً، وتشير إليه الآيات السابقة في النقطة الثانية.

٣ ـ مرحلة الهجرة وابلاغ رسالة التوحيد:

لقد قرّر إبراهيم الهجرة إلى الأرض المقدسة التي باركها اللّه تعالى، وهي: أرض فلسطين، وقد صحب معه في هذه الهجرة لوط، وهو من أقربائه، كما يذكر في التاريخ؛ إذ إنّه ابن أخيه على ما تذكر النصوص التوراتية[2] وقيل: إنّه ابن خالته كما

---

(١) الممتحنة: ٤.

(٢) الميزان ٧: ٢١٩ عن التوراة.

تشير إلى ذلك بعض الروايات، وإنّ سارة زوجة إبراهيم هي أخت لوط[١].

يبدو من بعض الروايات أنّ إبراهيم عندما هاجر إلى الارض المباركة كان في سعة من الرزق والمال؛ إذ كانت سارة زوجته ذات مال، وقد نماه بعمله، وأخذه معه في هجرته.

ولا يحدثنا القرآن الكريم عن تفاصيل هذه المرحلة المهمة من حياة إبراهيم عليه السلام.

ولكن النصّ التوراتي الذي يتحدّث عن إبراهيم يبدأ بهذه المرحلة من حياته، ويذكر تفاصيل صغيرة، وقصّة فيها الكثير من الغرابة.

كما أنّ بعض الروايات التي وردت عن النبي من طرق الجمهور تكاد تتفق مع النص التوراتي في تفاصيله، الأمر الذي يؤشّر على تسرب الإسرائيليات لهذه الروايات[٢].

وقد وردت الرواية عن أهل البيت في هذا الموضوع أيضاً، ولكنّها نقية من الشوائب التوراتية. ولذا نذكر مضمونها بصورةٍ إجمالية:

(فأخرجوا إبراهيم ولوطاً معه من بلادهم إلى الشام، فخرج إبراهيم ومعه لوط لا يفارقه وسارة، وقال لهم: ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ يعني: إلى بيت المقدس، فتحمّل إبراهيم عليه السلام بماشيته وماله، وعمل تابوتاً، وجعل فيه سارة، وشدّ

---

(١) البحار عن علل الشرائع ١٢ : ١٤٨.

(٢) للمزيد من الاطلاع راجع النص التوراتي في قصص الأنبياء للنجار : ١٤٥. وهناك بحث قيّم بين لجنة تقييم الكتاب والمؤلف النجار حول هذا الموضوع يحسن مراجعته : ١٢٤ ـ ١٣٦. وما رواه الجمهور في قصص الأنبياء لابن كثير : ١٣٦ ـ ١٣٨.

عليها الاغلاق غيرة منه عليها، ومضى حتى خرج من سلطان نمرود، وسار إلى سلطان رجل من القبط يقال له: عرارة، فمرّ بعاشر له، فاعترضه العاشر؛ ليعشر ما معه، فلمّا انتهى إلى العاشر ومعه التابوت قال العاشر لابراهيم عليه السلام: افتح هذا التابوت حتى نعشر ما فيه، فقال له إبراهيم عليه السلام: قل ما شئت فيه من ذهب أو فضة حتى نعطي عشره، ولا نفتحه، قال: فأبى العاشر إلّا فتحه، قال: وغضب إبراهيم عليه السلام على فتحه، فلمّا بدت له سارة ـ وكانت موصوفة بالحسن والجمال ـ قال له العاشر: ما هذه المرأة منك؟ قال إبراهيم: هي حرمتي وابنة خالتي، فقال له العاشر: فما دعاك إلى أن خبيتها في هذا التابوت؟ فقال إبراهيم عليه السلام: الغيرة عليها أن يراها أحد، فقال له العاشر: لست أدعك تبرح حتى أعلم الملك حالها وحالك، قال: فبعث رسولاً إلى الملك، فأعلمه، فبعث الملك رسولاً من قبله ليأتوه بالتابوت، فأتوا ليذهبوا به، فقال لهم إبراهيم عليه السلام: إنّي لست أُفارق التابوت حتى يفارق روحي جسدي، فأخبروا الملك بذلك، فأرسل الملك أن احملوه والتابوت معه، فحملوا إبراهيم عليه السلام والتابوت وجميع ما كان معه حتى أُدخل على الملك، فقال له الملك: افتح التابوت، فقال له إبراهيم عليه السلام: أيّها الملك إنّ فيه حرمتي وبنت خالتي، وأنا مفتد فتحه بجميع ما معي، قال: فغضب الملك إبراهيم على فتحه، فلمّا رأى سارة لم يملك حلمه سفهه أن مدّ يده إليها، فأعرض إبراهيم عليه السلام وجهه عنها وعنه غيرة منه، وقال: اللّهم احبس يده عن حرمتي وابنة خالتي، فلم تصل يده إليها، ولم ترجع إليه، فقال له الملك: إنّ إلهك هو الذي فعل بي هذا؟ فقال له: نعم انّ إلهي غيور يكره الحرام، وهو الذي حال بينك وبين ما أردت من الحرام، قال له الملك: فادع إلهك يردّ عليّ يدي، فإن أجابك فلم أعرض لها، فقال إبراهيم عليه السلام: إلهي ردّ إليه يده؛ ليكفّ عن حرمتي، قال: فردّ اللّه ـ عزّ وجلّ ـ إليه يده، فاقبل الملك نحوها

ببصره، ثمّ عاد بيده نحوها، فأعرض إبراهيم عنه بوجهه غيرة منه، وقال: اللّـهم احبس يده عنها، قال: فيبست يده ولم تصل اليها. فقال الملك لإبراهيم: إنّ إلهك لغيور، وإنّك لغيور، فادع إلهك يردّ عليّ يدي، فإنّه إن فعل لم أعد، فقال إبراهيم: أسأله ذلك على أنّك إن عدت لم تسألني ان أسأله. فقال له الملك: نعم، فقال إبراهيم: اللهم إن كان صادقاً فرد يده عليه، فرجعت إليه يده، فلمّا رأى ذلك الملك من الغيرة ما رأى، ورأى الآية في يده عظّم إبراهيم، وهابه، وأكرمه واتقاه، وقال له: قد أمنت من أن أعرض لها، أو لشيءٍ ممّا معك، فانطلق حيث شئت، ولكن لي إليك حاجة. قال إبراهيم: ما هي؟ فقال له: أحبّ أن تأذن لي أن أخدمها قبطيّة عندي جميلة عاقلة تكون لها خادماً، قال: فأذن له إبراهيم، فدعا بها، فوهبها لسارة، وهي هاجر أم إسماعيل، فسار إبراهيم بجميع ما معه، وخرج الملك معه يمشي خلف إبراهيم إعظاماً لابراهيم وهيبة له، فأوحى اللّـه ـ تبارك وتعالى ـ إلى إبراهيم: أن قف ولا تمش قدّام الجبّار المتسلّط، ويمشي وهو خلفك، ولكن اجعله أمامك، وامش خلفه وعظّمه، وهبه، فإنّه مسلط، ولا بدّ من إمرة في الأرض برّة أو فاجرة، فوقف إبراهيم وقال للملك: امض فإنّ إلهي أوحى اليّ الساعة أن أعظّمك، وأهابك، وإن أقدّمك أمامي، وأمشي خلفك إجلالاً لك، فقال له الملك: أوحى إليك بهذا؟ فقال له إبراهيم: نعم، فقال له الملك:

أشهد أنّ إلهك لرفيق حليم كريم، وأنّك ترغّبني في دينك، قال: وودّعه الملك، فسار إبراهيم حتى نزل بأعلى الشامات، وخلّف لوطاً عليه السلام في أدنى الشامات.

ثم إنّ إبراهيم لمّا أبطأ عليه الولد قال لسارة: لو شئت لبعتيني هاجر، لعلّ اللّه أن يرزقنا منها ولداً، فيكون لنا خلفاً: فابتاع إبراهيم هاجر من سارة، فوقع عليها،

فولدت اسماعيل عليه السلام[١].

٢ ـ وقد استجاب الله ـ تعالى ـ لإبراهيم دعاءه في طلب الذرية الصالحة، فولد له إسماعيل، كما يشير القرآن الكريم إلى ذلك في قصّة الذبيح من قوله تعالى في سورة الصافات:

﴿ رَبِّ هَبْ لي مِنْ الصّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنْ الصّابِرِينَ * فَلَمّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾[٢].

ثم يقول القرآن الكريم: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنْ الصّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ... ﴾[٣].

ثمّ كانت البشارة الأخرى التي ذكرها القرآن الكريم في عدة مواضع، هي:

---

(١) البحار عن الكافي ١٢: ٤٤ ـ ٤٧.

(٢) الصافات: ١٠٠ ـ ١١٠.

(٣) الصافات: ١١٢ ـ ١١٣. والقرآن الكريم وإن لم يسمّ الغلام الحليم باسمه، ومن ثمّ لا يصرّح باسم الذبيح، لكنّ التوراة تصرح في نصوصها بشكل واضح: أنّ إسماعيل قد ولد لإبراهيم قبل إسحاق بثلاثة عشر سنة، وسوف نبين أنّ الذبيح هو إسماعيل كما يفهم من هذه الآيات، ومن الروايات التي وردت عن أهل البيت (سلام الله عليهم) لمزيد من المعلومات راجع قصص الأنبياء للنجّار: ١٤٧ ـ ١٤٩، والميزان ٧: ٢٣٢ ـ ٢٣٤.

البشارة بولادة إسحاق من زوجه العقيم (سارة). حيث جاءت رسل اللّه وملائكته إبراهيم على شكل ضيوف مكرمين، فقدّم لهم إبراهيم الطعام على شكل عجل سمين، فلم يمدّوا أيديهم له، فاستغرب ذلك منهم، وأوجس خيفة، فذكروا أنّهم قد أُرسلوا إلى قوم لوط، لينزلوا فيهم عذاب اللّه، وكانت امرأة إبراهيم حاضرة في هذه الحادثة، فتوجهوا إليها، وبشّروها بالولد إسحاق، وأنّه يولد له ذرية صالحة، وهو يعقوب، فتعجبت من ذلك؛ لأنّها عقيم قد بلغت سن اليأس، وأصبحت عجوزاً، فقالت أألد وأنا عجوز، وهذا بعلي إبراهيم شيخاً إن هذا لشيء عجيب... قالوا لها: أتعجبين من أمر اللّه ـ تعالى ـ في شأنكم، فإنّ رحمته وبركاته عليكم أهل البيت إنّ اللّه حميد مجيد.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۞ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۞ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۞ قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۞ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ۞ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ۞ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ۞ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾[1].

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۞ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ۞ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۞ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا

---

(١) هود: ٦٩ ـ ٧٦.

تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾[١].

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾[٢].

٣ ـ ومن الاحداث المهمة في هذة المرحلة هي: قصّة ذهاب لوط إلى أهل (سدوم)[٣]؛ لدعوتهم إلى اللّه تعالى، وهدايتهم إلى طريق الصواب.

وتفصيل هذه القصّة يتحدّث عنها عادة في قصّة لوط، ولكن الذي يهمنا من هذه القصّة في موضوع إبراهيم أمران:

أ ـ ذهاب لوط إلى قوم سدوم؛ لهدايتهم بعد أن تعرضوا لانحراف أخلاقي فريد في تاريخ البشرية حتى ذلك الوقت، ويبدو من القرآن الكريم أنّ هذا الذهاب إليهم كان إرسالاً من إبراهيم لابن أخيه أو ابن أُخته؛ للقيام بواجبات الرسالة والدعوة[٤]. فانّ هجرتهما كانت في سبيل اللّه ومن أجل اللّه تعالى.

---

(١) الذاريات: ٢٤ ـ ٣٤.

(٢) العنكبوت: ٣١ ـ ٣٢.

(٣) هذا ما ذكرته التوراة في اسم المنطقة التي ذهب إليها لوط.

(٤) تذكر التوراة هنا تفاصيل حول ذهاب لوط ترتبط بموضوع معيشي؛ إذ اتخذ لوط هذه المنطقة للسكن وإدارة أُموره الحياتية، كما يشير إلى ذلك التوراة في الاصحاح ١٢ و١٣ من سفر التكوين، النجّار قصص الانبياء: ١٣٤.

ب ـ إنّ رسل الله الملائكة عندما جاؤا لإنزال العذاب بقوم لوط جاؤا لإبراهيم أوّلاً ليخبرونه بذلك، وإنّ إبراهيم يجادلهم في هذا الأمر، ويطلب منهم تأجيل العذاب؛ لانّ فيها لوطاً. ولمّا يخبرونه بأنّ الارادة الإلهية قد اقتضت نجاة لوط وأهله، أخذ يجادلهم في قوم لوط، ولكن الملائكة أخبروه بأنّ هذا القرار والإرادة نهائية لابداء فيها ولا تغيير[1]، وهذا فيه إشارة ـ أيضاً ـ إلى ارتباط موضوع لوط بابراهيم عليه السلام.

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَـٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾[2].

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾[3].

٤ ـ ومن الاحداث المهمة في هذه المرحلة هي: قيام إبراهيم بإسكان إسماعيل وأمه هاجر في أرض مكة من الحجاز عند البيت الحرام الذي هو أوّل بيت وضع للناس[4]، وكان في وادٍ غير ذي زرع بسبب قضية شاءت الحكمة الإلهية أن

---

(١) وتذكر التوراة صورة للمجادلة من إبراهيم والملائكة بشأن قوم لوط، راجع قصص الأنبياء للنجّار: ١٣٩، الهامش.

(٢) العنكبوت: ٣١ ـ ٣٢.

(٣) هود: ٧٤ ـ ٧٦.

(٤) سوف نشير في هامش الخصيصة الثالثة من خصائص هذه المرحلة النص الذي يؤكّد هذا البعد التاريخي للبيت الحرام.

يستجيب فيها إبراهيم لطلب زوجته سارة في أن يبعد عنها زوجته هاجر وولدها إسماعيل، كما تذكر ذلك النصوص التوراتيه والروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام مع اختلاف بينها في بعض التفاصيل[1]، ويذكر القرآن أصل القضية:

---

(١) عن هشام، عن أبي عبد الله (ع) قال: «إنّ إبراهيم (ع) كان نازلاً في بادية الشام، فلما ولد له من هاجر اسماعيل اغتمت سارة من ذلك غمّاً شديداً؛ لأنّه لم يكن له منها ولد، كانت تؤذي إبراهيم في هاجر وتغمه، فشكى إبراهيم ذلك إلى الله عز وجل، فأوحى الله إليه إنّما مثل المرأة مثل الضلع العوجا إن تركتها استمتعتها، وإن اقمتها كسرتها، ثم أمره أن يخرج إسماعيل وأمّه، فحمل هاجر واسماعيل، وكان إبراهيم لا يمر بموضع حسن فيه شجر ونخل وزرع إلّا قال يا جبرائيل إلى ههنا إلى ههنا، فيقول لا أمض، امض حتى اتى مكة، فوضعه في موضع البيت، وقد كان إبراهيم عاهد سارة أن لا ينزل حتى يرجع إليها، فلما نزلوا في ذلك المكان كان فيه شجرة، فألقت هاجر على ذلك الشجر كساءً، وكان معها، فاستظلوا تحته، فلمّا سرحهم إبراهيم، ووضعهم، وأراد الانصراف منهم إلى سارة قالت له هاجر: يا إبراهيم لم تدعنا في موضع ليس فيه انيس، ولا ماء، ولا زرع؟ فقال إبراهيم: اللّه الذي أمرني أن أضعكم في هذا المكان حاضر عليكم، ثم انصرف عنهم، فلما بلغ كداء، وهو: جبل بذي طوى التفت إليهم إبراهيم فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ ثمّ مضى، وبقيت هاجر، فلمّا ارتفع النهار عطش إسماعيل وطلب الماء، فقامت هاجر في الوادي في موضع المسعى ونادت هل في الوادي من انيس؟ فغاب عنها اسماعيل، فصعدت على الصفا، ولمع لها السراب في الوادي، وظنت أنه ماء، فنزلت في بطن الوادي، وسعت، فلما بلغت المسعى غاب عنها إسماعيل، ثمّ لمع لها السراب في ناحية الصفا، فهبطت إلى الوادي تطلب الماء، فلما غاب عنها إسماعيل عادت حتى بلغت الصفا، فنظرت حتى فعلت ذلك سبع مرات ... الحديث» تفسير القمي ١: ٦٠ ـ ٦١.

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[١].

وبذلك أصبح لإبراهيم امتداد وحضور عائلي واجتماعي جديد في قلب الجزيره العربية، وفي هذا المكان المقدس في التاريخ الإنساني.

٥ ـ ومن الاحداث المهمة في هذه المرحلة تشريع الصلاة والزكاة، وبعض الآداب الاجتماعية والاخلاق التكاملية الإنسانية العالية التي أشار إليها القرآن الكريم، وذكرت تفاصيلها الروايات التي وردت عن النبي وأهل بيته، كما ذكرت بعضها النصوص التوراتية[٢].

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾[٣].

فقد أُشير إلى ذلك بالصفات الخاصة المتميزة التي وصف بها القرآن الكريم إبراهيم بما لم يصف غيره من الأنبياء عدا نبينا محمّد صلى الله عليه وآله كما ذكر، كما أُشير إليها

---

(١) إبراهيم: ٣٧.

(٢) ورد في الروايات أنّ إبراهيم أوّل من أضاف الضيف (البحار ١٢: ٤ عن أمالي الطوسي)، كما ورد في تفسير علي بن إبراهيم: أنّ الحنيفيّة هي العشرة التي جاء بها إبراهيم: خمسة في الرأس، وخمسة في البدن. فالتي في الرأس قطم الشعر: وهو قصّه، وأخذ الشارب، وإعفاء اللحى، والسواك والخلال. وأمّا التي في البدن فالغسل من الجنابة، والطهور بالماء، وتقليم الاظافر، وحلق شعر البدن، والختان. وهذه لم تنسخ إلى يوم القيامة. تفسير القمي ١: ٣٩٤.

(٣) الأعلى: ١٤ ـ ١٩.

بالابتلاء بالكلمات التي أشارت إليها الآية الكريمة، وشرحتها بعض الروايات[١]:

﴿ وإذ إبْتَلَىٰ إبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهنّ ... ﴾.

كما يمكن أن يكون المشار إليها بالحديث عن صحف إبراهيم الذي تذكر بعض الروايات عن رسول الله بأنّها عبارة عن أمثال ومفاهيم أخلاقية[٢].

٦ ـ ومن الاحداث المهمة في هذه المرحلة التي أشار اليها القرآن الكريم قضية طلب إبراهيم من ربّه أن يريه كيف يحيي الموتى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٣].

حيث ترسخ هذه القضية فكرة الدار الاخرة والبعث والنشور والحساب بشكل حسّي، وتتكامل بذلك العقيدة الإسلامية والملة الحقّة من خلال بلوغ درجة الاطمئنان.

ولاسيّما أنّ هذه الفكرة لم تكن قد ترسّخت في العقل الإنساني حتى في الاوساط الدينية، وأنّ التصور العام كان هو نزول العقوبات على الذنوب والآثام، وحصول الأجر والثواب على الطاعة في المجتمع الإنساني في هذه الدنيا. كما حدث في الطوفان، وعاد، وثمود، وكما يدلّ عليه الخطاب الرسالي في سورة نوح.

٧ ـ ومن الاحداث المهمة في هذه المرحلة ـ لعلّ الحادث الاخير فيه كما

---

(١) سوف يأتي شرح هذه (الكلمات) في خصائص المرحلة الرابعة من قصّة إبراهيم.

(٢) البحار ١٢: ٧١ عن الخصال ومعاني الأخبار للصدوق.

(٣) البقرة: ٢٦٠.

تشير إلى ذلك بعض الروايات - حادثة المنام الذي رأى فيه إبراهيم أنّه يذبح ولده بعد أن كان قد بلغ مبلغ السعي والفتوة، وقيل: بلغ ثلاثة عشر سنة، كما قيل: إنّه بلغ مستوى العمل والعبادة للّه تعالى.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾[1].

والذي يبدو من هذه الآيات أنّ الامتحان والبلاء كان عظيماً لإبراهيم وولده، الأمر الذي وصل فيه إبراهيم إلى الدرجة العالية التي أهلته إلى مقام الإمامة على ما تشير إلى ذلك بعض الروايات[2].

خصائص هذه المرحلة:

يمكن أن نلاحظ في هذه المرحلة عدّة خصائص مهمة:

الأولى: ظاهرة التشريع، وسنّ الآداب والاخلاق في السلوك الشخصي وفي هيئة الإنسان وبدنه، وفي السلوك الاجتماعي، والعلاقة مع الناس واللّه تعالى،

---

(١) الصافات: ١٠٢ - ١٠٨.

(٢) روي عن الصادق «أنّه ما ابتلاه اللّه به في نومه من ذبح ولده إسماعيل أبي العرب فأتمها إبراهيم، وعزم عليها، وسلم لأمر اللّه، فلمّا عزم قال اللّه ثواباً له لما صدق وعمل بما أمره اللّه». مجمع البيان للطبرسي ١: ٢٠٠.

ولكن في رواية أخرى: أنّ الأمر بالذبح كان في أثناء تعليم جبرئيل لإبراهيم مناسك الحج. واللّه أعلم.

والذي يشير إليها موضوع نزول الصحف على إبراهيم عليه السلام.

الثانية: تأسيس مبدأ الهجرة من أجل نشر الدعوة الإلهيّة والرسالة الإسلامية، هذا المبدأ الذي أصبح من المبادئ المهمة في تاريخ الرسالات الإلهيّة، ومنها الرسالة الخاتمة.

الثالثة: أنّ إبراهيم كان يعمل من أجل أن تكون هجرته إلى اللّه ـ تعالى ـ ذات بعد رسالي من خلال إبلاغ الرسالة ونشرها، وتأتي قصّة إرسال لوط إلى أهل (سدوم) وإسكان هاجر وابنها إسماعيل في مكة من أرض الحجاز كتعبير عن هذه المحاولات التي أشار إليها القرآن الكريم.

الرابعة: أنّ رسالة إبراهيم كانت رسالة لها امتداد حقيقي من خلال آله وأسرته، وتمثّل هذا الامتداد بإسماعيل وكذلك بإسحاق ومن ورائه يعقوب والأنبياء من بنيه. وكان ذلك تأسيساً لمبدأٍ جديد في الرسالات الإلهيّة يعتمد على اصطفاء الذرية الصالحه للأنبياء، وتأهيلهم للقيام بالأدوار الخاصة في تاريخ الرسالات الإلهيّة، كما حصل ذلك في آل عمران وآل محمد صلى الله عليه وآله بعد ذلك.

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

﴿ ... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾[2].

الخامسة: تثبيت مبدأ المعاد ليس على مستوى النظرية والفكر الإلهي، بل على مستوى الحس والتطبيق، وهو ما يشير إليه القرآن في قصّة إحياء الطير وفي

---

(١) آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤.

(٢) الأحزاب: ٣٣.

قصص أخرى بعد ذلك، مثل: قصّة الذي أماته اللّه مئة عام، وغيرها.

٤ ـ مرحلة الإمامة وإيجاد الملّة الجديدة:

لقد اختار اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ إبراهيم في المرحلة الاخيرة من حياته إماماً للناس، كما تدل عليه الآية الكريمة: ﴿ وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾[1].

وتشير هذه الآية وتؤكد بعض الروايات أنّ هذه الامامة كانت تمثل المرحلة الاخيرة من سيرته[2].

ولا يحدثنا القرآن الكريم عن تفاصيل هذه المرحلة شأنه في ذلك شأن المراحل السابقة أيضاً، ولكنّه يمكن أن نتصور بعض معالمها من خلال مجموعة الاحداث المهمة التي وقعت في هذه المرحلة على ما يبدو من القرآن الكريم، وتشير إليها بعض الروايات:

١ ـ نصب إبراهيم للإمامة بعد ابتلائه؛ إذ كان هذا الابتلاء بكلمة الإمامة ومنصبها، وهي: القيام بتدبير أمور الأُمّة وسياستها، وتأديب جناتها وتولية ولاتها، وإقامة الحدود على مستحقيها، ومحاربة من يكيدها ويعاديها. وعلى هذا

---

(١) البقرة: ١٢٤.

(٢) يمكن أن نفهم هذه الاشارة من أنّ هذه الآية وردت وكان لإبراهيم ذرية؛ ولذا طلب لهم من اللّه ـ تعالى ـ هذا المقام، وهذه الذرية إنّما كانت في المرحلة الأخيرة من حياته بعد شيخوخته وكبره. وقد مرّ علينا في الحديث عن الإمامة في شخصية إبراهيم أنّ اللّه ـ تعالى ـ قد اختاره للإمامة بعد أن اختاره عبداً ونبياً ورسولاً وخليلاً.

المعنى لا يكون كلّ نبي إماماً[١].

وقد ورد في حديث عن أهل البيت أنّ هذه الكلمات كانت هي الكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه، فتاب عليه بها، وهي: «**يا رب أسألك بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلّا تبت عليّ**»[٢].

ولكن الصدوق ذكر وجهاً آخر في الكلمات، وهي: الأُمور التي ابتلى اللّه بها عبده إبراهيم طيلة حياته؛ ليكون أهلاً ومستحقاً للإمامة، والتي أشار إليها القرآن الكريم بشأنه، مثل: اليقين، والمعرفة، والشجاعة، والعلم، والسخاء، والعزلة عن المجتمع ـ بسبب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ والحكم، والانتماء إلى الصالحين والصبر، إلى غير ذلك من الصفات التي أشرنا إلى بعضها في شخصية إبراهيم. وإنّ الإمامة لا تصلح لمن عبد صنماً أو وثناً أو أشرك بالله طرفة، وأن أسلم بعد ذلك.

والظلم في قوله تعالى: ﴿**لا يَنَالُ عَهْدِيَ الظَّالِمِينَ**﴾ وضع الشيء في غير موضعه، وأعظم الظلم: الشرك، قال اللّه عزّ وجل: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾.

وكذلك لا يصلح للإمامة من ارتكب من المحارم شيئاً صغيراً كان أو كبيراً، وإن تاب بعد ذلك، وكذلك لا يقيم الحدّ مَنْ في جنبه حدّ.

فإذن لا يكون الإمام إلّا معصوماً، ولا تعلم عصمته إلّا بنص اللّه عليه على لسان نبيه صلى الله عليه وآله؛ لأنّ العصمة ليست في ظاهر الخلقة فترى كالسواد والبياض وما

(١) البحار ١٢ : ٥٨.

(٢) البحار ١٢ : ٦٦، عن الخصال للصدوق، والحديث ضعيف (يراجع).

أشبه ذلك، وهي مغيّبة لا تعرف إلّا بتعريف علّام الغيوب عزّ وجلّ"[١].

٢ـ تشريع ملّة الإسلام والتسمية به، حيث كان إبراهيم هو الذي أسّس هذه الملّة بوحي الله تعالى وإرادته، وهو الذي سمّاها بالإسلام، وسمّى أتباعها بالمسلمين، ووصّى بها بنيه وذريته، وطلب من ربه أن يجعلهم أُمّة مسلمة ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا ... ﴾[٢]، وأن يعرّفهم مناسكهم وعباداتهم، وطلب من الله ـ تعالى ـ أن تتوارث ذريته هذا الصراط المستقيم حتى يبعث فيهم الرسول الذي يتلو عليهم آياته، ويزكّيهم، ويعلّمهم الكتاب والحكمة.

كما أنّه عليه السلام سمّى هذه الأُمّة من الناس بالمسلمين، وجعلهم ملّة تقتدي بها الأمم الآتية، ومنها هذا النبي (محمّد) صلى الله عليه وآله وأُمته وجماعته الذين سمّاهم المسلمين من قبل وفي عصره.

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ

---

(١) البحار ١٢ : ٧٠، عن الخصال ومعاني الاخبار للصدوق، وهل تنصيب إبراهيم للإمامة كان في بداية هذه المرحلة؟ كما هو مقتضى طبيعة هذه الأُمور الهامة التي سوف نشير إليها، وكما قد يُفهم من تسلسل ذكرها في القرآن الكريم من سورة البقرة؛ إذ ذكرت أوّلاً الإمامة، ثم جعل البيت وبناءه مثابة، ثمّ تشريع الإسلام ملّة ووصيته لبنيه، كما سوف نذكر ذلك.

أو هذه الإمامة كانت بعد قصّة الذبيح، كما تشير إلى ذلك بعض الروايات التي فسرت الكلمات بالأمر بالذبح لولده وإنّه بعد هذا الابتلاء كان جعله إماماً للناس، وقد أشرنا إلى ذلك في المرحلة الثالثة برقم ٧. (البحار ١٢ : ٥٦، عن الطوسي والقمي ٥٩) والأوّل هو الأظهر؛ لأنّه المستفاد من القرآن، وضعف الرواية إن لم نأوّلها.

(٢) الحج : ٧٨.

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(١).

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾(٢).

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(٣).

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾(٤).

---

(١) البقرة : ١٢٧ ـ ١٣٤.

(٢) الحج : ٧٨.

(٣) النحل : ١٢٣.

(٤) الأنعام : ١٦٢ ـ ١٦٣.

ومضافاً إلى ذلك نجد إبراهيم عليه السلام يتخذ عدّة خطوات في تأسيس هذه الملّة الجديدة وتشخيص معالمها.

٣ ـ وكانت الخطوة الأُولى ـ على ما يبدو من القرآن الكريم ـ لتأسيس هذه الملّة والشريعة الجديدة هو: القرار بجعل منطقة مكّة التي كان قد أسكن إبراهيم فيها زوجه هاجر وذريّته إسماعيل مثابة للناس وأمناً لهم يعبدون اللّه فيه، ويقيمون الصلاة للّه تعالى وحده، ويجتنبون فيه عبادة الأصنام التي كانت عبادة رائجة في كلّ مكان من العالم.

وكانت أرضية تنفيذ هذا القرار الإلهي مهيأة من ناحية أنّ هذه الأرض هي الأرض التي كان قد بنى فيها آدم، واتخذ الملائكة بالأمر الإلهي مكاناً فيه للعبادة. وجاء إبراهيم ليحيي هذه السنة التاريخية، وهذا الأثر الإلهي العظيم [1].

---

(١) ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام ما يؤكد هذا البعد التاريخي الذي أشار إليه القرآن الكريم وشرحه. البحار ١٢: ٩٧ ـ ١٠٠، عن تفسير القمي. «فلما بلغ إسماعيل مبلغ الرجال أمر اللّه إبراهيم أن يبني البيت. فقال: يا ربّ في أي بقعة؟ قال: في البقعة التي أنزلت على آدم القبة فأضاء لها الحرم، فلم تزل القبة التي أنزلها اللّه على آدم قائمة حتى كان أيام الطوفان أيام نوح، فلمّا غرقت الدنيا رفع اللّه تلك القبة. وغرقت الدنيا إلّا موضع البيت، فسميت البيت العتيق؛ لأنّه أُعتق من الغرق، فلمّا أمر اللّه ـ عزّ وجلّ ـ إبراهيم أن يبني البيت، ولم يدر في أي مكان يبنيه، فبعث اللّه جبرئيل (ع) فخط له موضع البيت، فأنزل اللّه عليه القواعد من الجنة. وكان الحجر الذي أنزله اللّه على آدم أشد بياضاً من الثلج، فلمّا لمسته أيدي الكفار اسودّ. فبنى إبراهيم البيت، ونقل إسماعيل الحجر من ذي طوى، فرفعه إلى السماء تسعة أذرع؛ ثم دلّه على موضع الحجر، فاستخرجه إبراهيم، ووضعه في موضعه الذي هو فيه الأوّل، وجعل له بابين: باب إلى المشرق، وباب إلى المغرب. والباب الذي إلى المغرب يُسمّى المستجار، ثم ألقى عليه الشجر والاذخر، وعلّقت هاجر على بابه كساءً كان معها، وكانوا يكنّون تحته ...».

كما أنّ هذه الارض كانت خالية من الناس في ذلك الوقت، فهي أرض بكر لا ماء فيها ولا كلأ ولا زرع ولا ثمر يمكن لابراهيم أن يتصرف فيها كيف يشاء، ويصححها على وفق الملّة الجديدة.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(١).

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾(٢).

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ ﴾(٣).

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾(٤).

٤ ـ وكانت الخطوة الثانية هي: تشريع مناسك الحجّ للناس على ما يشير إلى ذلك القرآن الكريم، وتؤيده الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، فقد ورد في القرآن الكريم من سورة الحج ـ بعد آية الأذان في الناس بالحجّ ـ بيان مجموعة من تشريعات الحج(٥).

---

(١) إبراهيم: ٣٥ ـ ٣٦.

(٢) الحج: ٢٦.

(٣) آل عمران: ٩٦.

(٤) البقرة: ١٢٦.

(٥) عن كلثوم بن عبد المؤمن الحرّاني، عن أبي عبد الله (ع) قال: «أمر الله ـ عزّ وجلّ ـ

إبراهيم (ع) أن يحجّ ويحجّ إسماعيل معه، ويسكنه الحرم، فحجّا على جمل أحمر، وما معهما إلّا جبرئيل (ع)، فلمّا بلغا الحرم قال له جبرئيل: يا إبراهيم انزلا فاغتسلا قبل أن تدخلا الحرم، فنزلا فاغتسلا، وأراهما كيف يتهيّئان للإحرام ففعلا، ثمّ أمرهما، فأهلا بالحج، وأمرهما بالتلبيات الأربع التي لبّى بها المرسلون، ثمّ صار بهما إلى الصفا، فنزلا وقام جبرئيل بينهما، واستقبل البيت، فكبّر اللّه، وكبّرا، وهلّل اللّه وهلّلا، وحمد اللّه وحمدا، ومجّد اللّه ومجّدا، وأثنى عليه وفعلا مثل ذلك، وتقدم جبرئيل وتقدما يثنيان على اللّه عزّ وجلّ ويمجّدانه حتى انتهى بهما إلى موضع الحجر، فاستلم جبرئيل الحجر وأمرهما أن يستلما، وطاف بهما أسبوعاً، ثم قام بهما في موضع مقام إبراهيم (ع)، فصلّى ركعتين، وصلّيا، ثم أراهما المناسك وما يعملان به، فلمّا قضيا مناسكهما أمر اللّه إبراهيم (ع) بالانصراف، وأقام إسماعيل وحده ما معه أحد غير أمّه، فلمّا كان من قابل أذن اللّه لإبراهيم في الحجّ وبناء الكعبة، وكانت العرب تحجّ إليه، وإنّما كان ردماً إلّا أن قواعده معروفة، فلمّا صدر الناس جمع إسماعيل الحجارة، وطرحها في جوف الكعبة، فلمّا أذن اللّه له في البناء قدم إبراهيم (ع) فقال: يا بُنيّ قد أمرنا اللّه ببناء الكعبة، وكشفا عنها، فإذا هو حجر واحد أحمر، فأوحى اللّه ـ عزّ وجلّ ـ إليه ضع بناءها عليه، وأنزل اللّه ـ عزّ وجلّ ـ أربعة أملاك يجمعون إليه الحجارة، فكان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يضعان الحجارة، والملائكة تناولهما حتى تمّت اثني عشر ذراعاً، وهيّئا له بابين: باباً يدخل منه، وباباً يخرج منه، ووضعا عليه عتباً وشرجاً من حديد على أبوابه، وكانت الكعبة عريانة، فصدر إبراهيم، وقد سوى البيت، وأقام إسماعيل...

وكانت الكعبة ليست بمسقّفة، فوضع إسماعيل فيها أعمدة، مثل هذه الأعمدة التي ترون من خشب، وسقّفها إسماعيل بالجرائد، وسوّاها بالطين، فجاءت العرب من الحول، فدخلوا الكعبة، ورأوا عمارتها، فقالوا: ينبغي لعامل هذا البيت أن يزاد، فلمّا كان من قابل جاءه الهدي، فلم يدري إسماعيل كيف يصنع، فأوحى اللّه ـ عزّ وجلّ ـ إليه أن انحره، وأطعمه

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ * ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ * ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ * لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ * وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِ الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾(١).

الحاج. قال: وشكا إسماعيل إلى إبراهيم قلّة الماء، فأوحى اللّه ـ عزّ وجلّ ـ إلى إبراهيم أن احتفر بئراً يكون منها شراب الحاج، فنزل جبرئيل عليه السلام، فاحتفر قليبهم، يعني: زمزم حتى ظهر ماؤها، ثم قال جبرئيل (ع): انزل يا إبراهيم، فنزل بعد جبرئيل فقال: يا إبراهيم اضرب في أربع زوايا، وقل: بسم اللّه. قال: فضرب إبراهيم (ع) في الزاوية التي تلي البيت، وقال: بسم اللّه، فانفجرت عين، ثمّ ضرب في الزاوية الثانية، وقال: بسم اللّه فانفجرت عين، ثمّ ضرب في الثالثة، وقال: بسم اللّه، فانفجرت عين، ثم ضرب في الرابعة، وقال: بسم اللّه فانفجرت عين، وقال له جبرئيل: اشرب يا إبراهيم، وادع لولدك فيها بالبركة، وخرج إبراهيم عليه السلام وجبرئيل جميعاً من البئر، فقال له: افض عليك يا إبراهيم، وطف حول البيت، فهذه سقيا سقاها اللّه ولد إسماعيل، فسار إبراهيم، وشيّعه إسماعيل حتى خرج من الحرم، فذهب إبراهيم، ورجع إسماعيل إلى الحرم». الكافي ٤ ٢٠٢ ـ ٢٠٥.

(١) الحج: ٢٨ ـ ٣٥.

٥ ـ وكانت الخطوة الثالثة في تأسيس هذه الملة الجديدة هي : بناء البيت وإحياء هذا الأثر الديني التأريخي، بعد أن دلّه اللّه ـ تعالى ـ على موضع بنائه، وجعله بيتاً طاهراً من الدنس يعبد اللّه ـ تعالى ـ فيه وحده، ويتخذه المتعبدون مكاناً للطواف والاعتكاف به والصلاة فيه، والتي تتمثل بالركوع والسجود، وهي صلاة تجمع كلّ أشكال الخضوع والعبادة مع الطهارة والتوحيد للّه تعالى.

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾[1].

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[2].

٦ ـ وكانت الخطوة الرابعة هي : الأذان في الناس بالحج الذي كان يعبّر عن أوسع نداء يوجهه إبراهيم عليه السلام في دعوته ورسالته على الإطلاق، كما يشير إليه القرآن الكريم، وتنص عليه الروايات بشكل واضح :

﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾[3].

---

(١) البقرة : ١٢٥.

(٢) البقرة : ١٢٧، يمكن أن نفهم التسلسل بين اتخاذ البلد آمناً وبناء البيت من هذه الآية والآية التي قبلها التي ذكرناها في الفقرة السابقة؛ إذ تشرحان الآية ١٢٥ السابقة. وكذلك من آيات سورة إبراهيم المتقدّمة والتي تشرح الهدف من ذلك.

(٣) الحج : ٢٧.

وقد ورد في بيان هذا النداء في رواية معتبرة عن الإمام الصادق عليه السلام، رواها الصدوق في العلل: أبي، عن سعد، عن ابن عيسى، عن الحسن بن علي بن فضّال، عن عبد اللّه بن سنان، عن أبي عبداللّه عليه السلام قال: «لمّا أمر اللّه ـ عزّ وجلّ ـ إبراهيم وإسماعيل ببنيان البيت وتمّ بناؤه، أمره أن يصعد ركناً ثم ينادي في الناس: ألا هلمّ الحجّ، فلو نادى هلمّوا إلى الحج لم يحجّ إلاّ من كان ـ يومئذٍ ـ إنسياً مخلوقاً، ولكن نادى هلمّ الحجّ، فلبّى الناس في أصلاب الرجال: لبّيك داعي اللّه لبّيك داعي اللّه، فمن لبّى عشراً حجّ عشراً، ومن لبّى خمساً حجّ خمساً، ومن لبّى أكثر فبعدد ذلك، ومن لبّى واحداً حجّ واحداً، ومن لم يلبّ لم يحجّ».

خصائص المرحلة الرابعة:

١ ـ بناء وتأسيس مراكز العبادة للّه تعالى، بحيث تتحوّل من مركز خاص للتعبد، ـ كما هو الشأن في بعض الأماكن التي كان يتخذها العابدون لعبادتهم من الكهوف، أو رؤوس الجبال، أو الخلوة باللّه تعالى ـ إلى مراكز عامة يتعبد بها الناس بشكل جماعي لله تعالى، بصورة تصبح شعيرة من شعائر الدين.

وقد كان بناء البيت الحرام هو ابرز مظاهر هذه السنة الإلهيّة، كما يفهم من القرآن الكريم:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ ﴾[1].

وتشير نصوص التوراة وبعض النصوص التاريخية إلى أنّ إبراهيم عليه السلام كان

---

(١) آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧.

قد اتخذ ـ عادة ـ أماكن للذبح والعبادة في فلسطين، ولكن لا يبدو فيها أنّها أماكن تتصف بهذه الصفة العامة.

٢ ـ تشريع الاحكام للمجتمع الانساني: إذ يشير القرآن الكريم إلى أعم أركان هذا التشريع، وهي: الاركان الخمسة التي بني عليها الإسلام: الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، والإمامة، وقد صرح القرآن الكريم بالصلاة والحجّ والإمامة، وأشار إلى الزكاة بالذبح، وكذلك ما ورد في وصية إسماعيل لأهله بالصلاة والزكاة ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًا ﴾[١] وإلى الصوم بالاعتكاف.

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾[٢]، ويبدو من بعض الروايات أنّ هناك مجموعة من التشريعات الأُخرى وضعها إبراهيم لأوّل مرة، مثل: الخمس، والجهاد في سبيل اللّه، وغيرها[٣].

٣ ـ وضع التسمية لدين التوحيد والملّة الجديدة؛ لتميزها من الأديان والملل الأُخرى، وتميز المتدينين بها والمتعبدين للّه ـ تعالى ـ على صراطها، عن المتعبدين للأوثان أو المشركين باللّه سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

---

(١) مريم: ٥٥.

(٢) البقرة: ١٢٥.

(٣) فقد روى السكوني عن الصادق (ع): «كان إبراهيم أوّل الناس أضاف الضيف، وأوّل الناس اختتن، وأوّل من قاتل في سبيل اللّه، وأوّل من أخرج الخمس، وأوّل من اتخذ النعلين، وأوّل من اتخذ الرايات». مجمع البيان ١: ٢٠٠.

ولذلك تجد القرآن الكريم يؤكّد هذا المفهوم في عدة مواضع له؛ لأهمية هذه الخصوصية، ولتأكيد ارتباط الاسلام بهذه الملة ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[١]. ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[٢]، ﴿ قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[٣]، ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[٤]. ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾[٥]، ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[٦]، ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾[٧]. ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ

---

(١) البقرة : ١٣٠.

(٢) البقرة : ١٣٥.

(٣) آل عمران : ٩٥.

(٤) النحل : ١٢٣.

(٥) النساء : ١٢٥.

(٦) الأنعام : ١٦١.

(٧) يوسف : ٣٧ ـ ٣٨.

سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(1).

بل يبدو من القرآن الكريم من خلال موارد استعمال كلمة (اللّه)، أنّ هذه الكلمة لم تعرف إلاّ بعد إبراهيم عليه السلام.

٤ ـ قيام مجتمع واستقراره من خلال إرساء معالم هذا المجتمع بإقامة أركانه التي أشرنا إليها في النقطة الثانية، ومن خلال تمييزه بالتسمية التي أُشير إليها في النقطة الثالثة، ومن خلال إقامة مؤسساته، وهي: بناء البيت، كما أشرنا إلى ذلك في النقطة الأُولى.

كما يمكن أن يفهم ذلك من طلب إبراهيم عليه السلام للإمامة في ذريته، فإنّ هذا الطلب يشير إلى استقرار الوضع الاجتماعي؛ لأنّ الإمامة شأن من شؤون المجتمع الانساني، على ما أشرنا إلى ذلك في تفسير الإمامة.

وسوف نتعرّف على ما يؤكّد هذا المعنى في الملاحظات العامة حول القصّة.

٥ ـ الاستقرار في خط التوحيد للّه ـ تعالى ـ في العبادة، وانتشاره في فلسطين والحجاز من خلال خط إسماعيل عليه السلام، ودعوة العرب والناس المحيطين بالبيت الحرام للحجّ والعبادة، ومن خلال خط إسحاق ويعقوب عليهما السلام وأبنائهم، ومن كان يؤمن بالإسلام من الناس في فلسطين.

وهذا ممّا يشير إليه القرآن الكريم في موضوع وصية إبراهيم عليه السلام لبنيه بالإسلام، ووصية يعقوب لبنيه بذلك ايضاً.

---

(١) الحج: ٧٨.

﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾(١) وتؤكده الآيات التي بعدها حتى آية ١٤١.

٦ ـ إن عهد الامامة هو أعظم المقامات الرسالية الالهية؛ إذ لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال الامتحان الصعب، والاهلية الكاملة، والعصمة المطلقة من الآثام والذنوب والظلم، ولذا استحقه إبراهيم عليه السلام في آخر ايام حياته بعد هذه المسيرة الطويلة من الامتحان والابتلاء.

وعندما طلبه لذريته كان شرط العصمة من الذنوب والظلم هو أوّل هذه الشروط التي تؤهل صاحبها لذلك.

٧ ـ أستمرار الامامة في ذرية إبراهيم عليه السلام حتى تصل إلى النبي الخاتم للانبياء والمرسلين (محمد) صلى الله عليه وآله؛ إذ بشر به إبراهيم عليه السلام من خلال دعائه وولده إسماعيل وهما يقيمان قواعد البيت الحرام.

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(٢).

---

(١) البقرة: ١٣٢

(٢) البقرة: ١٢٨ ـ ١٢٩

الفصل الثالث

قصّة موسى عليه السلام في القرآن

قصّة موسى في تسلسلها التاريخي .

مراحل حياة موسى .

الموضوعات التي تحدثت عنها القصة .

الإسرائيليون في المجتمع المصري* :

لقد عاش الإسرائيليون في المجتمع المصري، وتكاثروا فيه منذ هجرة يوسف وأبيه يعقوب وبقية أولاده إلىٰ مصر، وقد اضطهد الفراعنة الإسرائيليين في الفترة السابقة علىٰ ولادة موسىٰ، وبلغ الاضطهاد درجة مريعة حين اتخذ الفراعنة قراراً بذبح أبناء الإسرائيليين، واستحياء نسائهم من أجل الخدمة والعمل، فأراد الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أن يتفضل علىٰ هؤلاء المستضعفين، وينقذهم من حالتهم هذه، فهيّأ لهم نبيه موسىٰ، فعمل علىٰ إنقاذهم من الفراعنة[1] وهدايتهم من المجتمع الوثني إلىٰ المجتمع التوحيدي.

ولادة موسىٰ وإرضاعه :

وحين ولد موسىٰ عليه السلام أوحىٰ الله ـ سبحانه ـ إلىٰ أُمه أن ترضعه، وحين

(*) نذكر من أحداث القصّة بمقدار ما تعرّض له القرآن الكريم.

(١) الأعراف: ١٤١، إبراهيم: ٦، القصص: ٣ ـ ٦.

تخاف عليه من الذبح العام فعليها أن تضعه فيما يشبه الصندوق وتلقيه في اليم، وهكذا شاءت إرادة الله أن يلقيه اليم إلىٰ الساحل، وإذا بآل فرعون يلتقطونه، فيعرفون أنّه من أولاد بني إسرائيل. فتدخل امرأة فرعون في شأنه، وتطلب أن يتركوه لها علىٰ أن تتخذه خادماً أو ولداً تأنس به مع فرعون.

وقد عاشت والدة موسىٰ لحظات حرجة من حين إلقائه في اليم، فأمرت أُخته أن تقصّ أثره، وتتبع سير الصندوق، فتتعرف علىٰ مصيره. ففعلت، وحين عرض الطفل علىٰ المرضعات أبىٰ أن يقبل واحدة منها، فانتهزت أُخته هذه الفرصة، فعرضت علىٰ آل فرعون أن تدلّهم علىٰ امرأة مرضعة تتكفل رعايته وحضانته وإرضاعه، وكانت هذه المرأة بطبيعة الحال هي أُم موسىٰ، وهكذا رجع الطفل إلىٰ أُمه؛ ليطمئن قلبها، وتعلم أنّ ما وعدها الله ـ سبحانه ـ من حفظه وإرجاعه اليها حقّ لا شك فيه. ولقد شب موسىٰ في البلاط الفرعوني حتىٰ إذا بلغ أشده وهبه الله ـ سبحانه ـ العلم والحكمة[1].

خروج موسىٰ من مصر:

ودخل موسىٰ المدينة في يوم ما ﴿علىٰ حين غفلة من أهلها﴾ (متنكراً) فوجد فيها رجلاً من شيعته (من الإسرائيليين) يقاتل رجلاً آخر من اعدائه (الفرعونيين). فاستغاثه الذي من شيعته علىٰ الذي من عدوه، فوكزه موسىٰ فقضىٰ عليه. ولم يكن ينتظر موسىٰ أن تؤدي هذه الضربة إلىٰ الموت، ولذلك ندم علىٰ هذا العمل الخطير الذي انساق إليه بسبب مشاعره النبيلة في الإنتصار إلى المظلومين، فاستغفر ربه عليه.

---

(١) القصص: ٧ ـ ١٤، طه: ٣٧ ـ ٤٠.

وأصبح موسىٰ في المدينة خائفاً يترقب أن ينكشف أمره فيؤخذ بدم الفرعوني، فينزل إلىٰ المدينة مرة أخرىٰ فاذا به يواجه قضية أُخرىٰ متشابهة، وإذا بالذي استنصره بالأمس فنصره يستصرخه اليوم أيضاً، فعاتبه موسىٰ علىٰ عمله، ووصفه بأنّه غوي مبين يريد توريطه وإحراجه. ثم لمّا أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما (موسىٰ والإسرائيلي) ظن الإسرائيلي أنّ موسىٰ يقصد البطش به لا بالفرعوني، فقال لموسىٰ: ﴿... أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ...﴾[1]. وبذلك كشف الإسرائيلي عن هوية قاتل الفرعوني الأوّل، وفضح قتل موسىٰ له، فعمل الملأ وهمّ عليه القوم علىٰ قتله بدم الفرعوني.

وجاء رجل من أقصىٰ المدينة وأعاليها مسرعاً؛ ليخبر موسىٰ بالأمر ويقول له: ﴿... إِنَّ المَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ...﴾* وطلب منه المبادرة إلىٰ الخروج والهروب من الفرعونيين.

فخرج موسىٰ من المدينة خائفاً يترقب ان يوافيه الطلب أو تصل إليه ايدي الفرعونيين، فدعا ربّه أن ينجيه من القوم الظالمين.

موسىٰ في أرض مدين:

وانتهىٰ السير بموسىٰ إلىٰ أرض مدين، فلمّا وصلها أحسّ بالأمن، وانتعش الأمل في نفسه، فقال: ﴿... عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ...﴾ وهم الرعاة ﴿... يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ

---

(١) القصص: ٢٠.

(*) القصص: ٢٠.

امْرَأَتَيْنِ ...﴾ في حيرة من أمرهما تذودان الأغنام، وتجمعانها ولا تسقيان. فأخذه العطف عليهما، فقال لهما: ﴿...مَا خَطْبُكُمَا...﴾ ولماذا لا تسقيان؟ قالتا له: ﴿...لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ...﴾ وينتهوا من السقي؛ لأنّنا امرأتان لا يمكننا أن نزاحم الرجال ﴿...وأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ...﴾ لا يتمكن من القيام بهذه المهمة الشاقة. فتولىٰ موسىٰ عنهما هذه المهمة، فسقىٰ لهما، ثمّ انصرف إلىٰ ناحية الظل وهو يشكو ألم الجوع والغربة والوحدة، فقال: ﴿...رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[1].

ولما رجعت الامرأتان إلىٰ أبيهما الشيخ، وعرف منهما قصّة هذا الانسان الغريب الذي سقىٰ لهما، بعث إلىٰ موسىٰ أحداهما لتدعوه، فجاءته تمشي علىٰ استحياء فقالت ﴿...إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا...﴾ فأجاب موسىٰ الدعوة، وحين انتهىٰ إلىٰ الشيخ طلب منه أن يخبره عن حاله، فقصّ موسىٰ عليه قصّة هربه وسببها، وحينئذٍ آمنه الشيخ وقال له: ﴿...لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2].

وقد طلبت إحدىٰ ابنتي الشيخ من أبيها أن يستأجر موسىٰ للعمل عنده، وليقوم عنهما ببعض المهام الملقاة علىٰ عاتقهما نتيجة عجز الشيخ وضعفه، وذلك نظراً لقوة موسىٰ وقدرته علىٰ القيام بالعمل مع أمانته وشرف نفسه.

فقال له الشيخ: ﴿...إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ...﴾[3] شريطة

---

(١) القصص: ٢٤.

(٢) القصص: ٢٥.

(٣) القصص: ٢٧.

أن تأجرني نفسك ثماني حجج (سنين)، فإذا اتممتها عشراً فذلك من عندك، فوافق موسىٰ علىٰ هذا الزواج وتمّ العقد بينهما.

بعثة موسىٰ عليه السلام ورجوعه إلىٰ مصر:

وبعد أن قضىٰ موسىٰ الأجل (السنوات العشر) بينه وبين صهره سار بأهله، فإذا به يشاهد ناراً من جانب الطور الأيمن، وهو: جبل صغير، وقد كان بحاجة إليها، ﴿ ...فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً ﴾[1] فلمّا أتاها وجد شجرة، وجاء نداء الله ـ سبحانه ـ من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من جانب الشجرة: ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوىً * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ [لوحيي ورسالتي] فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾[2] إليك.

ثم قال الله له: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾ قال الله له: ﴿ ...أَلْقِهَا يَا مُوسَى ﴾ فإذا هي [تتحول إلىٰ] ﴿ ...حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾[3]، ﴿ ...فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى [هارباً] وَلَمْ يُعَقِّبْ [فناداه الله] يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ ﴾[4]، ﴿ ...إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾[5] ﴿ ...سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى ﴾[6].

---

(١) طه: ١٠.

(٢) طه: ١٢ ـ ١٣.

(٣) طه: ١٧ ـ ٢٠.

(٤) القصص: ٣١.

(٥) النمل: ١٠.

ثم قال له: ﴿... أدخِل يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوء...﴾[٧] ومرض، فأدخل يده واذا بها تخرج بيضاء، ثمّ ردها فعادت كما كانت.

وبعد ذلك أمره الله ـ سبحانه ـ أن يذهب بهاتين الآيتين المعجزتين إلىٰ فرعون وقومه؛ ليدعوهم إلىٰ الله سبحانه. فخاف موسىٰ من تحمل هذه المهمة، فقال: ﴿... رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي...﴾ وذلك من أجل أن ﴿... يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾.

قال الله له: ﴿... سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا...﴾[٨]. ﴿فأتياه﴾ (فرعون) ﴿... فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ...﴾[٩].

وحينما عاد موسىٰ إلىٰ مصر توجه مع أخيه هارون إلىٰ فرعون، فقالا له: ﴿... إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ...﴾ رب العالمين، ولا يمكن أن نقول علىٰ الله غير الحقّ الذي أرسلنا به، وقد جئناك ببينة من ربك ﴿... فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾ وارفع عنهم العذاب الذي تنزله فيهم، وقد قالا له ذلك بشكل لين وبأُسلوب استعطافي هادئ.

وكأنّ فرعون قد استغرب هذه الرسالة من موسىٰ وأخيه؛ لأنّه كان يعرف أنّ

---

(٦) طه: ٢١.

(٧) النمل: ١٢.

(٨) القصص: ٣٣ ـ ٣٥.

(٩) طه: ٤٧.

موسىٰ قد تربىّ وعاش بينهم، ولم يكن لديه شيء من هذه الأقوال والأحوال. فقال لموسىٰ: ﴿ ...أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ ثم بعد ذلك ﴿ ...فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ ... ﴾ بأن قتلت رجلاً من الفرعونيين؟ فأجابه موسىٰ: نعم لقد فعلت ذلك، ولكنّي لمّا خفتكم علىٰ نفسي فررت منكم ﴿ ...فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[1].

فرعون يجادل موسىٰ في ربوبية الله:

وبعد أن رأىٰ فرعون إصرار موسىٰ وهارون علىٰ الرسالة ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا ... ﴾ قال له موسىٰ ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ وهو ربّ السماوات والأرضين وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثرى. قال فرعون: ﴿ ... فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ ﴾ وما هو مصيرها؟ فأجابه موسىٰ ﴿ ... عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ ﴾، وهو ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾[2] مختلف ألوانه وأشكاله.

وقد استنكر فرعون هذه الدعوة الجديدة وهو يعتقد بنفسه الإلوهية، فتوجه لمن حوله مستنكراً وقال: ﴿ ...أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾[3]؟ ولمّا رأىٰ الإصرار من موسىٰ وأخيه اتهم موسىٰ بالجنون، وهدده بالسجن إذا اتخذ إلهاً غيره. ولم يستسلم موسىٰ وأخوه أمام هذه التهمة والتهديد، وإنّما حاولا أن يسلكا إلىٰ فرعون طريقاً آخر،

---

(١) الشعراء: ١٨ ـ ٢١.

(٢) طـه: ٤٩ ـ ٥٣.

(٣) الشعراء: ٢٥.

وهو إقامة الحجّة عليه: لاقناعه أو إحراجه، وذلك من خلال استثمار السلاح الذي وضعه الله بيد موسىٰ (معجزة العصا واليد)، فقال موسىٰ لفرعون: إنّي قد جئتك من ربي بآية تبين لك الحق الذي أنا عليه؛ قال فرعون: إذا كنت صادقاً فائت بهذه الآية والحجّة ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ ... ﴾[1]، ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾[2]. ولم يتمالك فرعون وملؤه انفسهم أمام هذه الآية الواضحة والموقف المحرج إلّا أنّ اتهموه بالسحر والشعوذة، وأنّه إنّما جاء بهذا السحر من أجل أن يخرجهم من أرضهم ويجلوهم عنها[3].

مباراة موسىٰ مع السحرة:

وقد أشار قوم فرعون وخاصته عليه بأن يواجه السحر الذي اتهم به موسى بالسحرة من بلاده، فيجمعهم في يوم يشهده الناس جميعاً؛ ليتباروا، وسوف يغلبونه وهم كثيرون. فيفتضح أمره ويترك دعوته، وعمل فرعون بهذه النصيحة، فطلب من موسىٰ وأخيه أن يعطياه مهلة إلىٰ وقت معين؛ لمواجهة السحرة.

وجمع فرعون كيده، وحشد جميع السحرة من بلادهم، وعرض عليهم الموقف، وطلب منهم أن يحرجوا موسىٰ ويغلبوه، وجمع الناس لهذه المباراة ظناً منه أنّه سوف ينتصر، وقد شجعه علىٰ ذلك تأكيد السحرة أنّهم سوف يغلبون موسىٰ، وما طلبه منه السحرة من أجر واعطيات إذا كانوا هم الغالبين.

---

(١) الشعراء: ٤٥.

(٢) الشعراء: ٣٢ ـ ٣٣.

(٣) الاعراف: ١٠٦ ـ ١٠٩. الشعراء: ٣٠ ـ ٣٥. يونس: ٧٥ ـ ٧٨.

وحين اجتمع موسىٰ بالسحرة خيّروه بين أن يلقي قبلهم، أو يكونوا هم الملقين قبله، فاختار أن يكونوا هم الملقين، فألقى السحرة ﴿ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ ﴾ وإذا بها تبدو لأعين الناس ـ من سحرهم ـ كأنّها تسعىٰ كالحيات، وعندئذٍ أوجس موسىٰ في نفسه خيفة إذ لم يكن ينتظر أن يواجه بالأسلوب الذي اتبعه في معجزته مع فرعون، فيكون ذلك سبباً لاضلال النّاس، وعدم وضوح حجته أمامهم، فأوحىٰ الله ـ سبحانه ـ له أن لا تخف، فإنك أنت الذي سوف تنتصر عليهم، وإنّما عليك أن تلقي عصاك ـ وحينئذٍ ـ تتحول إلىٰ حية حقيقية تلقف جميع ما صنعوا؛ لأنّ ما صنعوه ليس إلّا ﴿ ... كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾[١].

وعندما رأىٰ السحرة هذا الصنع من موسىٰ انكشفت لهم الحقيقة التي أُرسل بها، وأنّ هذا العمل ليس عمل ساحر، وإنّما هو معجزة إلهية، فآمنوا ﴿ ... قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴾[٢].

وأمام هذا الموقف الرائع من السحرة في هذا المشهد العظيم من الناس وجد فرعون نفسه في وضع محرج ومحرج، الأمر الذي اضطره لأن يلجأ إلىٰ أساليب الطغاة عند انقطاع حجتهم، وهو الانذار والوعيد والتهديد باستخدام أساليب القمع والارهاب، فقال للسحرة: ﴿ ... آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَىٰ ﴾[٣]. ولم يكن موقف السحرة ـ بعد أن انكشفت لهم

---

(١) طه: ٦٩.

(٢) طه: ٧٠.

(٣) طه: ٧١.

الحقيقة وهدى الله إليها ـ إلّا ليزدادوا صلابة وثباتاً واستسلاماً لله رجاء مغفرته ورحمته.

إصرار فرعون وقومه على الكفر ومجيء موسىٰ بالآيات:

وقد أصر فرعون وقومه علىٰ الكفر، وصمموا علىٰ مواصلة خط اضطهاد بني إسرائيل وتعذيبهم: إذ ﴿... قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ...﴾ فلا يخضعون لك ولا يتعبدون لها، ﴿... قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾[1].

وازداد العذاب والبلاء والأذى على بني إسرائيل، فاستغاثوا بموسى عليه السلام، فأوصاهم أن يستعينوا بالله، ويصبروا على البلاء والمحنة، فإنّ ﴿... الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[2].

وهكذا واجه موسىٰ وبنو إسرائيل ذلك بالصبر والثبات انتظاراً للوقت الذي يحقّق الله ـ سبحانه ـ فيه وعده لهم بوراثة الأرض.

وقد أمر الله ـ سبحانه ـ موسىٰ أن يخبر فرعون وقومه بأنّ العذاب سوف ينزل بهم عقاباً علىٰ تكذيبهم له، وتعذيبهم لبني إسرائيل، وامتناعهم عن إطلاقهم وإرسالهم. فجاءت الآيات السماوية يتلو بعضها بعضاً، فأصابهم الله بالجدب،

---

(١) الأعراف: ١٢٧.

(٢) الأعراف: ١٢٨ ـ ١٢٩.

ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وكانوا كلمّا وقع عليهم العذاب والرجز ﴿ ...قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾[1].

الائتمار بقتل موسى عليه السلام وطغيان فرعون:

وأمام هذه الآيات المتتاليات التي جاء بها موسىٰ لم يجد فرعون وقومه أُسلوباً يعالج به الموقف غير الائتمار بقتل موسىٰ، وادعاء القدرة علىٰ مواجهة آلهته. فنجد فرعون يأمر هامان بأن يتّخذ له صرحاً، ليطلع منه علىٰ أسباب السماوات، ويتعرف علىٰ حقيقة إله موسىٰ.

ولكنّ فرعون يفشل في كلا الجانبين، فلم يتمكن من أن يحقّق غايته من وراء بناء الصرح، كما لم تصل يده إلىٰ موسىٰ؛ لأنّ أحد المؤمنين من آل فرعون يقف فيعظهم ويؤنبهم علىٰ موقفهم من موسىٰ، ويبادر إلىٰ إخبار موسى بنبأ المؤامرة. فينجو موسى منها[2].

خروج موسى عليه السلام ببني إسرائيل من مصر:

وحين واجه موسىٰ محاولة اغتياله، ورأىٰ إصرار فرعون وقومه علىٰ اضطهاد بني إسرائيل وتعذيبهم، ووجد أنّه لم تنفع بهم الآيات والمواعظ، صمّم علىٰ

---

(١) الأعراف: ١٣٤ ـ ١٣٥.

(٢) القصص: ٣٨. غافر: ٢٨ ـ ٤٦.

الخروج ببني إسرائيل من مصر والعبور بهم إلىٰ جهة الأرض المقدسة، وقد نفّذ موسىٰ هذه العملية، وسار ببني إسرائيل متجهاً إلىٰ سيناء.

ولم يقف فرعون وقومه معه أمام هذه الهجرة مكتوف اليدين، بل جمع جنده من جميع المدائن، وقرر ملاحقة موسىٰ وبني إسرائيل وإرجاعهم إلىٰ عبوديته بالقوة.

ووجد موسىٰ وبنو إسرائيل ـ نتيجة هذه المطاردة ـ أنفسهم محاصرين، البحر من أمامهم وفرعون وجنوده من خلفهم، وارتاع بنو إسرائيل من هذا المشهد والموقف، وكادوا أن يكذبوا ما وعدهم به موسىٰ من الخلاص، ولكنّ موسىٰ بإيمانه الوطيد أخبرهم أنّ الله ـ سبحانه ـ سوف يهديه طريق النجاة حيث لا يخلف اللّه وعده. وتحقّق ذلك ـ فعلاً ـ اذ أوحىٰ الله إلىٰ موسىٰ ﴿... أَنْ اضْرِب بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ...﴾[1] وإذا به ينفلق كلّ فِرق كالطود العظيم، ويظهر بينهما طريق يبس يعبر من خلاله بنو إسرائيل، ويحاول فرعون وجنوده أنّ يتبعوهم من هذا الطريق أيضاً، وإذا بجانبي البحر يلتقيان فيغرق فرعون مع جنده.

موسىٰ مع بني إسرائيل:

وتتوالىٰ بعد ذلك الأحداث علىٰ موسىٰ، وإذا به يواجه المشاكل الداخلية منفرداً مع قومه بني إسرائيل، فيسمع طلبهم وهم يمرون علىٰ قوم يعبدون الأصنام بأن يتخذ لهم أصناماً يعبدونها كما أنّ لهؤلاء الأصنام، فينكر عليهم ذلك، ويسفّه عمل هؤلاء الوثنيين. ثمّ بعد ذلك يتفضل الله ـ سبحانه ـ علىٰ بني إسرائيل عندما

---

(١) الشعراء: ٦٣.

استسق موسىٰ قومه، فيأمره بضرب الحجر فتنفجر منه العيون بعدد الأسباط الاثني عشر، كما ينزل عليهم المن والسلوىٰ، ثمّ يبدلهم عنه ببعض المآكل الأُخرى بعد أن يطلبوا منه ذلك.

ويواجه موسىٰ بعد ذلك أقسى وأشدّ حادثة في حياته، وهي ردّة بني إسرائيل عند ذهابه لميقات ربه؛ لتلقي الشريعة في ألواح التوراة، فيخبره الله ـ تعالىٰ ـ بعبادتهم للعجل الذي صنعه السامري، فيرجع إلىٰ قومه ﴿... غضباناً أسِفاً ...﴾[1] ويعتب بقسوة علىٰ أخيه هارون؛ إذ كان قد استخلفه عليهم فترة ذهابه، فيأخذ برأسه ولحيته تعبيراً عن غضبه لهذا العمل الشنيع، ويطرد السامري، ويفرض عليه عقوبة المقاطعة، ويحرق العجل، وينسفه، ويرميه في اليم. ثمّ يتوب الله علىٰ بني إسرائيل بعد أن فرض عليهم عقاباً صارماً، وهو القتل لأنفسهم.

وعلىٰ هذا المنوال يذكر لنا القرآن الكريم أحداثاً مختلفة عن حياة موسىٰ مع بني إسرائيل. كقضية البقرة ونتق الجبل، وامتناعهم عن تلبية الدعوة للدخول إلىٰ الأرض المقدسة، وما كتب الله عليهم من التيه مدّة أربعين سنة، وذهابهم للمواعدة من أجل التوبة، فإذا بهم يطلبون رؤية الله جهرة، فأخذتهم الرجفة، وقصّة قارون وتآمره على موسى. وفي بعض هذه الأحداث لا نجد القرآن الكريم يحدّد المتقدّم منها على الأحداث الأُخرى بشكل واضح. وبهذا القدر نكتفي من سرد القصّة حسب تسلسلها الزمني[2].

---

(١) طـه: ٨٦.

(٢) تراجع (قصص الانبياء) لعبد الوهاب النجار بصدد الأحداث التي وقعت لموسىٰ مع قومه بني إسرائيل، وإن كنا ربما لا نتفق معه في بعض الخصوصيات التي يسردها.

دراسة مختصرة لقصة موسىٰ عليه السلام :

بعد أن ذكرنا بحث قصة موسىٰ بحسب ذكرها في القرآن الكريم[1] وعرضها بتسلسلها التأريخي يجدر بنا أن ندرسها بحسب المنهج الاجتماعي، وذلك من جانبين :

الجانب الأوّل : هو ملاحظة المراحل العامة التي مرّ بها موسىٰ في حياته وميزاتها وخصائصها.

الجانب الثاني : هو ملاحظة الموضوعات التي تحدّثت عنها القصّة بشكل عام.

الأوّل ـ مراحل حياة موسىٰ عليه السلام :

وبصدد الجانب الأوّل نجد موسىٰ عليه السلام قد مرّ بمراحل ثلاث رئيسة خلال حياته؛ إذ تبدأ المرحلة الأُولىٰ بولادته وتنتهي ببعثته إلىٰ فرعون وقومه، وتبدأ الثانية من البعثة وتنتهي بالعبور، وتبدأ الثالثة بالخروج وتنتهي بنهاية حياته.

ويعتمد هذا التحديد في المراحل الثلاث علىٰ المقدار الذي تحدث القرآن الكريم فيه عن حياة موسىٰ عليه السلام.

وتتمثل المرحلة الأُولىٰ من حياة موسىٰ في دورين :

الأوّل : ينتهي بخروجه من مصر خائفاً.

(١) الفصل الرابع من القسم الأوّل.

الثاني: هو الذي ينتهي برؤيته النار عند بعثته.

وحين نلاحظ الظواهر العامة في هذين الدورين يبرز لنا موسىٰ في شخصيته ذلك الإنسان الذي يريد الله ـ سبحانه ـ أن يعدّه لأعباء مهمة تخليص بني إسرائيل من الظلم الاجتماعي الذي حاق بهم، وتخليص شعب مصر من عبودية الأوثان وهدايتهم لوحدانية الله سبحانه.

وتتلخص هذه الظواهر بميزات ثلاث لها دور كبير في شخصية الإنسان القائد، وهي كالتالي:

الأُولىٰ: المركز الاجتماعي الذي كان يتمتع به موسىٰ دون بني إسرائيل نتيجة لتبني العائلة المالكة في مصر تربيته ورعايته.

وهذا المركز الاجتماعي الفريد وإن كان قد فقد تأثيره ـ إلىٰ حد كبير ـ بعد هروب موسىٰ من مصر بسبب قتله الفرعوني، ولكنّنا يمكن أن نتصوره عاملاً مهماً في إظهار موسىٰ ـ في المجتمع بشكل عام والإسرائيلي بشكل خاص ـ شخصيةً تتبنىٰ قضية الدفاع عن بني إسرائيل وتعمل من أجلها.

ولعل ضياع هذا المركز الاجتماعي المهم بسبب قتل الفرعوني هو الذي يفسر لنا نظرة موسىٰ إلىٰ قتل الفرعوني ـ نظرته ـ إلىٰ ذنب يستحق الاستغفار والتوبة منه إلىٰ الله تعالىٰ؛ إذ ضيّع موسىٰ بهذا العمل الارتجالي ـ الذي صدر منه بدوافع نبيلة وصحيحة ـ فرصة ثمينة كان من الممكن استثمارها في سبيل استنقاذ الشعب الإسرائيلي، خصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ موسىٰ كان يتصف بالعلم والحكمة في هذه المرحلة كما وصفه القرآن الكريم.

الثانية: الشعور الإنساني والحس النبيل الذي كان يحس به موسىٰ بوصفه إنساناً يتحلىٰ بالأخلاق الكاملة، ويتمثل لنا هذا الخلق الإنساني في ثلاثة مواقف

لموسىٰ جاءت ضمن هذه المرحلة من حياته، وهي: قتله الفرعوني، ومحاولته لضرب الفرعوني الآخر، وتبرعه بمعاونة ابنتي الشيخ الذي أصبح صهراً له بعد ذلك. وما يشعر به وصف ابنة الشيخ له بأنّه قوي أمين.

فإن هذه المواقف تعبّر عن المحتوىٰ الداخلي والشعور الإنساني الذي كان يعيشه موسىٰ عليه السلام، فهو يبادر لنجدة المظلوم بالرغم من تربيته في البيت الفرعوني المالك، هذه التربية التي كان من الممكن أن تعطيه الشعور بالتميز الطبقي الذي يختلف عن عمله الإنساني هذا، ثمّ لا يكتفي بأن يرتكب ذلك مصادفة، بل يندفع ليقوم بنفس العمل حين يجد من يستصرخه إليه مع شعوره بحراجة موقفه الاجتماعي نتيجة لهذا العمل.

وفي موقفه من ابنتي الشيخ نجد موسىٰ تدفعه ذاته الخيّرة النبيلة للسؤال عن تلكئهما في السقاية، ويعرض المعاونة عليهما في حالة الحاجة إليها، ونجده يخفّ إلىٰ تنفيذ ذلك دون أن ينتظر منهما أجراً أو مثوبة مادية، علىٰ الرغم من ظروفه الموضوعية الخاصة الصعبة.

الثالثة: القوة البدنية والشجاعة التي كان يتمتع بها موسىٰ، ويكشف لنا عن ذلك موقفه من الفرعوني وقضاؤه عليه بوكزة واحدة، والالتزام الذي أخذه علىٰ نفسه بأن لا يكون ظهيراً للمجرمين حتىٰ بعد قتله الفرعوني الأوّل، وشعوره بحراجة موقفه، ووصف ابنة الشيخ له بأنه (قوي)، خصوصاً إذا أخذنا بالتفسير الذي يقول: إنّ موسىٰ حين سقىٰ لابنتي الشيخ طرد السقاة عن البئر من أجل أن يعجل بالسقاية لهما.

وهذه الميزات الثلاث تحقق شروطاً ضرورية لحمل أعباء الرسالة التي أراد الله ـ سبحانه ـ لنبيه موسىٰ القيام بها، ولعلّ في الامداد الإلهي في قصّة مولده ونجاته

من الذبح عاملاً جديداً في خلق الأجواء النفسية والاجتماعية والروحية والظروف المناسبة لتأهيل هذا الإنسان لقيادة شعبه المضطهد.

وتمثل المرحلة الثانية مسؤوليتين:

إحداهما: هداية قوم فرعون إلىٰ وحدانية الله والإيمان بربوبيته.

والأُخرىٰ: دعوة بني إسرائيل للخلاص من الاضطهاد والظلم الذي كانوا يعانونه في مصر.

وقد توسّل موسىٰ من أجل تحقيق هذين الهدفين البارزين في حياة دعوته بأساليب مختلفة ومتعدّدة: كانت تبتدئ بالمناقشة الهادئة، والكلام اللين، والحجة التي تعتمد علىٰ المنطق والعقل، وتنتهي بالعذاب والرجز الذي أنزله الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ عليهم في آيات عديدة.

كما أنّه من جانب آخر كان يدعو بني إسرائيل إلىٰ الاستعانة بالله، والصبر علىٰ المكاره، ومواصلة الطريق من أجل الخلاص.

والقرآن الكريم وإن كان لا يتحدّث عن المدّة التي عاشها موسىٰ من أجل تحقيق ذلك، ولكن من الممكن أن نتبين أنّ هذه المدّة كانت طويلة نسبياً، خصوصاً إذا لاحظنا الآيات القرآنية التي تشير إلىٰ المعجزات التي جاءت علىٰ يد موسىٰ، وأنّها كانت في سنين متعددة.

كما يؤيد ذلك ـ أيضاً ـ أمر الله ـ سبحانه ـ لموسىٰ بأن يتخذ بيوتاً مع قومه، ويجعلها قبلة تنطلق منها الدعوة.

ويبدو أنّ موسىٰ لم يصل إلىٰ نتيجة واضحة بصدد تحقيق الهدف الأوّل مع فرعون وقومه، لذا قرر الهجرة ببني إسرائيل، والعبور بهم إلىٰ الجانب الآخر من البحر.

ولا يشير القرآن بشكل قاطع إلىٰ أنّ هذه الحركة في بدايتها كانت برضا فرعون بعد أن شاهد هذه المعجزات وآيات العذاب، أو أنّها كانت بدون رضاه، ولكن قد يكون في قصّة مطاردة فرعون بجنوده لموسىٰ وبني إسرائيل دلالة علىٰ أنّ الحركة كانت رغماً علىٰ فرعون وبدون رضاه.

ونحن يمكن أن نلاحظ في هذه المرحلة أموراً ثلاثة:

الأوّل: أنّ بني إسرائيل كانوا يلتفون حول موسىٰ دون أن يكون هناك خلاف في صفوفهم، أو دون أن يبرز هذا الخلاف إلىٰ السطح الاجتماعي، والقرآن وإن كان لا يصرّح بشيءٍ من ذلك، ولكن تدعونا إلىٰ هذا الحكم طبيعة الأشياء؛ إذ كان الإسرائيليون بالأصل أهل كتاب ونبوّات، كما أنّهم كانوا يتعرضون لأشدّ ألوان العذاب، وبذلك هم ينشدون الخلاص، إضافة إلىٰ سكوت القرآن عن إبراز أي خلاف بين بني إسرائيل وبين موسىٰ في هذه المرحلة، واستجابة بني إسرائيل إلىٰ متابعة موسىٰ في هذه الهجرة من مصر.

نعم، يشير القرآن إلىٰ نقطتين قد يفهم الخلاف منهما، هما: قلة الأشخاص الذين آمنوا بموسىٰ من قومه، واعتراضهم عليه بنزول الأذى فيهم قبل موسىٰ وبعده.

الثاني: أنّ موسىٰ كان يعمل بوسائل شتىٰ من أجل إنجاح دعوته، فكان يتوصل إلىٰ ذلك بالمناقشات الهادئة مرة، وبالمعاجز والآيات ذات الطابع الانتقامي الشديد ثانية، وبالصبر والصمود والانتظار ثالثة.

وقد توصل نتيجة لذلك إلىٰ تحقيق بعض أهدافه. حيث نجد الدعوة تحقق نجاحاً في صفوف بعض الفرعونيين أيضاً، كإيمان السحرة له، ووجود ظاهرة مؤمن آل فرعون، وإيمان زوجة فرعون.

الثالث: أنّ موسىٰ كان يعتمد للحماية من الغضب والانتقام الفرعوني علىٰ

جهات متعدّدة يمكن أن نلحظ منها: التفاف بني إسرائيل حوله، وهم يمثلون أُمة كبيرة من الناس وإن كانت مضطهدة، ومركزه الاجتماعي السابق في البيت الفرعوني المتميز، واستجابة بعض الفرعونيين لدعوته وخصوصاً زوجة فرعون؛ ولعلّ موقف مؤمن آل فرعون من الائتمار بموسىٰ لقتله يشير إلىٰ العنصر الأخير من الحماية؛ وكذلك قبول فرعون بالدخول معه في مناقشة ومباراة تمثل العنصر الثاني، إضافة إلىٰ قضية الآيات والمعاجز وإيمان السحرة به.

وتمثل المرحلة الثالثة: جانب استقلال الجماعة والحكم وما يستتبعه من مضاعفات وخلافات؛ ذلك لأنّ الدعوة في مرحلتها الأُولىٰ تعمل من أجل تحقيق أهداف عامة وترفع شعارات معينة، وفي هذه الأهداف والشعارات قد تلتقي آمال الشعب كلّه وتتجمع تدريجاً، وأمّا حين يأتي دور تحديد هذه الأهداف في صيغ معينة وطريقة خاصة، وتطبيق هذه الشعارات في نهج وأُسلوب خاص، وتجسيدها عملياً، فقد نجد بعض الأعضاء في المجموعة لا يلتقي مع هذا التحديد والتطبيق في مصالحه الخاصة، أو أفكاره وعقليته الاجتماعية، بل قد تتعارض المصالح الخاصة، أو المنافع التي يحصل عليها الإنسان في مسيرة عمله، أو المواقع التي ينتهي إليها مع هذه الأهداف والشعارات؛ إذ إنّ الأهداف والشعارات الإلهيّة الرسالية تنطلق من المبادئ ومتبنيات الفطرة الإنسانية التي أودعها الله ـ تعالىٰ ـ في الإنسان، وهي في البداية لا تبدو أنّها متناقضة مع رغبات الإنسان وميوله، بل هي محبوبة وحسنة في نظر الإنسان خصوصاً المظلومين من الناس. وأمّا في دور التطبيق والتجسيد حيث تتحول هذه المبادئ إلىٰ واقع خارجي، وحدود وقيود لهذه الحركة، أو ذلك الموقف، أو لتلك المصلحة، فعندئذٍ تتناقض مع الهوىٰ والشهوات والطموحات الذاتية للإنسان.

ولذلك نجد في هذه المرحلة بوادر الخلاف تبدو في الشعب الإسرائيلي، وتطفو علىٰ السطح اتجاهات شتىٰ: فكرية، ومصلحية، ونفسية و... حتىٰ إنّها تتحول ـ أحياناً ـ إلىٰ المروق عن الدين، أو إلىٰ التمرد علىٰ الجماعة والنظام.

ففي جانب الفكر والعقيدة ـ مثلاً ـ نجد تأثيرات المجتمع الوثني علىٰ الإسرائيليين تظهر بشكل واضح؛ لأنّهم يطلبون من موسىٰ ـ عندما مرّوا علىٰ جماعة يعبدون الأوثان ـ أن يتخذ لهم أصناماً وآلهة كما لهؤلاء القوم آلهة، مع أنّ الإسرائيليين بالأصل هم ذرية إبراهيم وإسحاق ويعقوب الذين حملوا رسالة التوحيد ورفضوا الوثنية والأصنام، كما تبرز هذه الرواسب والمخلّفات مرة أُخرىٰ عندما اتخذوا العجل إلهاً؛ لمجرد أنّهم رأوا فيه ظاهرة غير طبيعية، وفي موقفهم في الميقات عند الاستغفار أيضاً حينما طلبوا أن يروا الله جهرة.

وفي جانب المصالح نجد موقف قارون وجماعته، وإيذاءهم موسىٰ وتمردهم علىٰ أوامره، وغير ذلك من الإشارات القرآنية التي تشير إلىٰ عوامل النفاق والمعارضة.

وفي جانب الواقع الروحي والنفسي تشير قصّة الدخول إلىٰ الأرض المقدسة وغيرها من الإشارات القرآنية إلىٰ رواسب الضعف والاستخذاء والخوف.

فالميزة الرئيسة لهذه المرحلة هي ظهور هذه الخلافات المتعدّدة، ومعاناة النبي موسىٰ منها علىٰ اختلاف اتجاهاتها ودوافعها، وهذه الظواهر هي من مستلزمات المجتمع الذي تتحكم فيه عقيدة جديدة ونظام جديد.

ونجد موسىٰ في كلّ هذه الخلافات مثال القائد الحكيم، والنبيّ العطوف الذي يأخذ قومه بالشدّة في مروقهم عن الدين، كما في قضية العجل، وباللين في جوانب أُخرىٰ فيدعو الله ـ سبحانه ـ لهم بالرحمة والمغفرة، كما في قضية الميقات.

الثاني ـ موضوعات القصة :

وبصدد الجانب الثاني من دراسة القصّة: نجد القصّة تحدّثت عن ستة موضوعات رئيسة، وهي كالتالي:

١ ـ بعثة موسىٰ ومعاجزه.

٢ ـ أساليب الدعوة وأدلتها.

٣ ـ مواجهة الكافرين له من فرعون وأتباعه.

٤ ـ التحريفية في العبادة.

٥ ـ الحياة الشخصية لموسىٰ.

٦ ـ الأوضاع العامة للشعب الإسرائيلي.

وقد جاءت هذه الموضوعات الرئيسة المتعدّدة في مواضع من القرآن مختلفة ومتفرقة، ويجدر بنا أن نشير إلىٰ الأهداف العامة التي توخاها القرآن الكريم من وراء الإشارة إلى هذه الموضوعات أو التأكيد عليها مع بيان المهم منها.

١ ـ بعثة موسىٰ ومعاجزه :

لا شك أنّ من الأهداف الرئيسة التي تواخاها القرآن الكريم هو ربط الإنسان بعالم الغيب، وتأكيد إيمانه وتوجيه فطرته الأصيلة ـ التي فطره الله ـ تعالىٰ ـ علىٰ الإيمان به ـ وجهة صحيحة؛ لأنّ الإنسان بدأ من الغيب ـ كما أشارت إلى ذلك قصة آدم عليه السلام ـ وينتهي بعالم الآخرة الذي هو غيب، فلابدّ أن يبقىٰ مرتبطاً ومتفاعلاً من الناحية الواقعية مع الغيب في كلّ أدوار حياته الدنيوية وشؤونها.

ومن أجل هذا الهدف الرئيس نجد القرآن يتحدّث في مواضع كثيرة عن عالم الغيب وجوانبه المتعدّدة، وبعض القوانين العامة التي تتحكم فيه، والعلاقات التي

تسوده، بالإضافة إلىٰ طرحه لمفاهيم معينة عن هذا العالم ربّما لا يكون لها أثر كبير في حياته الدنيوية غير هذا الربط الذي يهدف إليه القرآن الكريم، كما هو الحال في طرح مفاهيم اللوح والقلم والكرسي والعرش[1]، وعلىٰ هذا الأساس يمكن أن نرىٰ أنّ هذا الهدف مما استهدفه القران من قصة موسىٰ عندما تعرض إلى ذكر هذا القدر من المعاجز والتأكيد عليها.

ولعلّ في هذا ما يبرّر الاهتمام القرآني في تكرار هذا الموضوع وإعطاء تفصيلات كثيرة عنه في القصّة. وإذا أردنا أن نقارن بين الآيات التي جاءت تتحدّث عن هذا الموضوع والآيات التي تحدّثت عن بقية الموضوعات الأُخرىٰ في القصّة لوجدنا هذا الموضوع يكاد يطغىٰ علىٰ بقية الموضوعات، من حيث ما ذكر فيه من تفصيلات.

فقد وجدنا أنّ هذا الموضوع يشار إليه في مواطن عديدة منها: كيفية نجاة موسى من الذبح عند ولادته، وكيفية بعثة موسى وخطابه من وراء الشجرة التي تشتعل ناراً، وفي معجزة العصا واليد، وفي توالي الآيات علىٰ الفرعونيين: من الدم، والجراد، والقمل، والطوفان، ونقص السنين والثمرات، وفي انفلاق البحر لبني إسرائيل، وفي موت الأشخاص الذين اختارهم موسىٰ لميقات ربه ثمّ بعثهم، وفي قضية قارون وخسف الأرض به، وفي نتق الجبل في قصّة البقرة، وغيرها من الآيات الأُخرى، ويكاد أن تستوعب هذه الأُمور أكثر قصّة موسى.

مضافاً إلىٰ هذا الهدف القرآني العام لاحظنا في دراستنا في القسم الأوّل

---

(١) تناولنا هذا الموضوع بشيء من التوضيح في بحث المحكم والمتشابه، وبحث التفسير في علوم القرآن عندما تعرضنا لبيان الحكمة من المتشابه. راجع علوم القرآن: ١٨٩، وكذلك: ٢٢٠.

وجود أهداف ثانوية أخرى لهذا الموضوع فرضها السياق القرآني، وكان من أهمّها إيضاح فكرة أنّ صدود الكافرين عن الدعوة وعدم انخراطهم فيها.. لم يكن نتيجة سبب موضوعي مرتبط بالدعوة نفسها، مثل: عدم استكمالها للحجج والرافضين، والمعاجز الغيبية، أو شخصية النبي وعدم لياقته، أو بذله للجهد الكافي، وإنّما يكون بسبب الظروف النفسية والاجتماعية التي يعيشها الكافرون أنفسهم، حيث تتحول المواقف السلبية اليومية من خلال الصراع، أو العادات والتقاليد الموروثة، أو الانحرافات الجزئية، إلىٰ حالة نفسية تغلف القلب والعقل وتختم عليه، فيصبح الجحود هو الموقف العام دون أن يستخدم الإنسان عقله أو فطرته، بل قد يتمسّك بالجحود حتىٰ مع تعيينه بالحقيقة من خلال أدلّتها، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك.

وبذلك يكون طرح هذا الموضوع له تأثير كبير في تربية الإنسان المسلم على الإيمان بالغيب من ناحية، كما أن إيضاح هذا القانون الاجتماعي له علاقة بالدعوة والموقف منها من ناحية ثانية، كما يكون له تأثير كبير علىٰ فهم المواجهة بين المسلمين والكافرين أيام النبي محمّد صلى الله عليه وآله وما بعدها من ناحية ثالثة.

ويمكن أن نضيف إلى ذلك ـ أيضا ـ هدفاً آخر، وهو: أنّ الإشارة إلىٰ تفاصيل الآيات بشكل خاص في عصر موسىٰ وغيره يبين بوضوح المبرر لعدم مجيء الآيات في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله التي كان يطالب المشركون بنزولها أحياناً، أو يتوقع المسلمون نزولاً بالمشركين أحياناً أُخرى، كما أشار القرآن الكريم إلىٰ هذا الهدف؛ إذ يصبح من الواضحات أنّ الأنبياء السابقين بالرغم من أنّهم جاؤا بالآيات العديدة ولكنهم لم يتمكنوا من خلالها أن يكسروا هذا الحاجز النفسي، ويرفعوا هذا الغلاف القلبي، وإنّ هذه الآيات إنّما جاءت للعذاب والانتقام، وهذا لا يتناسب مع الرسالة الخاتمة والتطور الإنساني لها ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ

وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾(١).

٢ ـ أساليب الدعوة وأدلتها :

لا شك أنّ العقيدة في الدعوة الإلهيّة تمثل جانبين :

الجانب الإلهي فيها، وهو الإيمان بوجود الله تعالىٰ ووحدانيته وصفاته، وهذا جانب يمكن أن يعتمد في معرفته علىٰ العقل والدليل والبرهان.

والجانب الآخر الذي يعبّر عن ارتباط الداعية (الرسول) بالله سبحانه وصدوره عن أمره تعالىٰ، وهذا الجانب ربّما لا يمكن إثباته مبدئياً إلا عن طريق المعجزة(٢). فالمعجزة تعبير عن الاستجابة إلىٰ الحاجة في هذا الجانب من الدعوة ـ كما شرحنا ذلك في بحث المعجزة ـ بخلاف الجانب الأوّل الذي يمكن فيه الاعتماد علىٰ أسلوب الأدلة والبراهين المنطقية والوجدانية.

وعلىٰ هذا الأساس من الفهم نجد الأنبياء لم يكتفوا في دعوتهم ورسالتهم بالادلة المنطقية وحدها، كما لم يكتفوا بالمعجزة وحدها، فلم يترك الأنبياء هذه الأدلة المنطقية والوجدانية في مخاطبتهم للناس بالدعوة إلىٰ الله وتوحيد الاله، ولم يكتفوا بالاتيان بالمعجزات علىٰ أساس أنّها الدليل الوحيد لاثبات ذلك. وإن كنا لا

---

(١) الأنفال : ٣٣.

(٢) قد يكون إخبار النبي بالوحي والرسالة ـ وهو انسان عاقل معروف بالصدق والأمانة، وعلىٰ مستوىٰ عالٍ من الكمالات النفسية والاخلاقية ـ كافياً في تصديقه والإيمان به، ولكن هذا الأمر لا يمكن أن يكون عاماً لجميع النّاس الذين يدعوهم النبي إلى الإيمان برسالته، وإنّما هو لمن يعرف ذلك فيه، وأمّا الآخرون فقد يتهمونه عناداً أو جهلاً بشخصيته، فيحتاج النبي إلى المعجزة عندئذٍ.

ننكر ما للمعجزة من تأثير كبير في الجانب الأوّل من العقيدة أيضاً.

وفي قصّة موسىٰ نجد في الموضوعات التي تحدّثت عنها القصّة هذه الأساليب والأدلة، وأكّدتها في مواضع عديدة، حيث تناولت بعض الأدلة والبراهين التي اعتمدها موسىٰ في مخاطبة فرعون بالإضافة إلىٰ المعجزات.

بل نجد أنّ هذه المخاطبة (مخاطبة العقل والوجدان) جاءت قبل أن يستند موسىٰ إلىٰ دليل آخر من الآيات والمعجزات؛ لأنّ التسلسل المنطقي للتفكير والانفعال كان يفرض ذلك، فإنّ النبي يخاطب العقل والوجدان في بداية الأمر، ثمّ يعمل بعد ذلك علىٰ كسر الحواجز النفسية والروحية التي تمنع العقل والوجدان من الإدراك والفهم.

كما نجد موسىٰ في هذه المخاطبة يتبع الأساليب المختلفة التي كانت تتصف باللين والرفق تنفيذاً لأمر ربه، فكان يتوسل إلىٰ فرعون أحياناً، ويتحدّث إليه بالقول (اللين) ويذكره بآيات الله أحياناً أُخرىٰ، كما قد يشير إلىٰ عذاب الآخرة وعاقبة الإصرار علىٰ الكفر والطغيان ثالثة، كلّ ذلك من أجل أن يحقّق النبيّ غاياته التي يرمي إليها، وهي: هداية الناس إلىٰ الله سبحانه وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

ويهدف القرآن الكريم من تناول هذا الموضوع في القصّة وغيرها إلىٰ هدف من أهدافه الرئيسة، وهو: تأكيد أنّ مسألة الإيمان بالله ـ سبحانه ـ ليست مسألة غريبة في حياة الانسان غرابة المعاجز والآيات، وإنّما هي شيء فطري ينبع من ذات الإنسان ويهديه إليها عقله وحسه ووجدانه، ولذلك اعتمد الأنبياء مخاطبة الناس عن هذا الطريق قبل أن يخاطبوهم عن طريق المعجزة والآية.

كما أنّه يهدف ـ أيضاً ـ إلىٰ أن الرسول ﷺ حين يدعو الناس إلىٰ الله لا يكتفي بطرح الفكرة فحسب، ويطلب منهم الإيمان المقلد الساذج نتيجة لوجود

المعجزة، وإنّما يحاول أن يصل إليهم ويتوسل إلىٰ إيمانهم عن طريق الدليل والبرهان العقلي والمخاطبة الوجدانية؛ لتحقّق القناعة والاطمئنان بذلك.

مضافاً إلىٰ الأدلة والبراهين تجد في القصّة إشارات إلىٰ عدّة قضايا مهمة ترتبط بنجاح الدعوة الإلهيّة وتحقيق أهدافها:

الأُولىٰ: قضية أخلاق الحركة والرسالة، مثل: الصبر، والصمود، والأمل بالمستقبل، والثقة بالله، والتوكل عليه.

الثانية: قضية الطاعة للقيادة والنظم في العمل.

الثالثة: قضية الاطلاع علىٰ مواقف الأعداء وحركتهم، كما يظهر ذلك من قضية مؤمن آل فرعون، ومجيء الرجل من أقصىٰ المدينة.

٣ـ مواجهة الكافرين والمنافقين:

يعطينا القرآن الكريم صوراً وألواناً من المواجهة التي تحصل بين النبي وجماعته من جانب، والكافرين بدعوته أو أُولئك المنافقين المتظاهرين بقبولها ولكنّهم يعادونها في مواقفهم وأعمالهم من جانب آخر.

وتتخذ هذه المواجهة صوراً وألواناً مختلفة متفاوتة علىٰ اختلاف مدىٰ نجاح النبي في الدعوة، وسعة أهدافه، ومقدار معارضته للمفاهيم الاجتماعية السائدة، والتحوّل الذي يسعى لايجاده. وتكاد أن تكون هذه المواجهة شيئاً طبيعياً نتيجة الصراع الذي يدور بين الفكرة الجديدة وأنصارها والفكرة السائدة في المجتمع وحماتها.

والقرآن الكريم حين يعرض هذا الموضوع في قصّة موسىٰ يريد أن يؤكّد هذا المفهوم الاجتماعي والسنة التأريخية في الصراع، ولاسيّما إذا كان صراعاً شاملاً وإخراجاً للنّاس من الظلمات إلى النور وأن هذه المعارضة القوية من المشركين وغيرهم التي حصلت للنبي محمّد ﷺ ليست بدعاً في التاريخ، وإنّما هي النتيجة

الطبيعية للصراع الفكري والاخلاقي والسياسي والاجتماعي، كما أنّنا نجد في هذا العرض للموضوع في القصّة إيضاحاً للأعباء التي يتحملها النبي في سبيل الدعوة، وأنّها ليست أعباء عادية يتمكن كلّ واحد من الناس أن يتحملها، وإنّما هي تحتاج إلىٰ إرادة قوية وعزم شديد وتصميم عميق الجذور علىٰ السير في خط الدعوة حتىٰ في أشدّ الظروف الموضوعية قسوة وأبعدها ملائمة، ويتعرض فيها الرسول إلىٰ ألوان من العذاب النفسي والجسدي والأخطار التي ترتبط بحياته وسمعته وشخصيته، بل قد ينتهي الأمر بأن يتعرض النبي إلىٰ القتل والاغتيال نتيجة لذلك.

وهذه الآلام قد تكون بسبب الموقف الخارجي للاعداء الظاهرين العلنيين، وقد تكون من مرضىٰ القلوب والنفوس، والاعداء الداخليين المنافقين، وقد تكون من ضعفاء الايمان والبسطاء والجهال من الناس.

وحين يشير القرآن إلىٰ ألوان المواجهة وأساليبها في هذه القصّة نجد أنفسنا أمام الواقع الاجتماعي الذي كان يواجه به النبي صلى الله عليه وآله في دعوته وأمام الأساليب والألوان نفسها، فكأنّ قصّة موسىٰ عليه السلام إنّما هي تعبير عن مسيرة دعوة النبي وآلامه، ولعلّ هذا هو أحد الأسباب المهمة الذي يفسر لنا مجيء قصّة موسىٰ بهذا القدر من التفصيل في القرآن الكريم.

٤ ـ الجانب التحريفي في العبادة:

من الموضوعات الهامة التي تعرضت لها القصّة هو الجانب التحريفي في العبادة، فإنّ بني إسرائيل وغيرهم ـ كما يبدو من انقيادهم لموسىٰ ـ آمنوا به وبدعوته، ولكن هذا الإيمان بالشعارات العامة التي كان يرفعها موسىٰ لا يعني أنّهم كانوا يعرفون محتواها الأصيل بأدق معانيه وجميع أبعاده. الأمر الذي لو حصل كان من الممكن أن يصدهم عن الانسياق وراء أفكار وثنية أُخرىٰ. لذلك نجدهم ـ وهم قد خلصوا من عذاب فرعون ومطاردته، وتحرّروا من طغيانه ـ تطفوا علىٰ

أفكارهم ومشاعرهم الكثير من الرواسب الوثنية ذات المدلول المنحرف، هذه الرواسب التي كانوا قد تأثروا فيها بالمجتمع الفرعوني الذي كانوا يعيشون فيه.

وهي حين تطفو على السطح لا يعني أنّهم كانوا قد تنازلوا عن شعاراتهم السابقة ومدلولاتها أو تخلّوا عن عقيدة التوحيد... وإنّما يعني ذلك: أنّهم كانوا يفهمون مدلول الشعارات بصورة سطحية وساذجة من حيث ينسجم مع هذا العمل المنحرف. فالعجل في نظرهم هو تجسيد للإله الذي دعا إليه موسىٰ، والأصنام ـ أن يتخذها لهم موسىٰ للعبادة ـ هي الوسائط المادية للتعبير عن العبادة للإله الذي دعا إليه موسىٰ... وهكذا.

ولعلّ القرآن الكريم يهدف في هذه الإشارة إلىٰ ناحيتين:

الأُولىٰ: مناقشة أفكار الجاهليين المعاصرين لنزول القرآن حين كانوا يقولون في أصنامهم ويبرّرون عبادتهم لها: إنّهم اتخذوها واسطة وزلفىٰ إلىٰ الله.

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ... ﴾[1].

الثانية: أنّ الإنسان حين يؤمن بالله وبالرسول ويحظىٰ بصحبته ويستمع إليه لا يعني أنّه قد تجرد دفعة واحدة عن جميع محتوياته الداخلية، وقضىٰ علىٰ كلّ الرواسب التي لا تلتقي في واقعها مع أصالة الرسالة والدعوة التي يدعو إليها الرسول، وإنّما غاية ما يدل عليه ذلك هو الإيمان بالمدلول الحرفي للشعار والفكرة، الأمر الذي قد يؤدي إلى التحريف والخطأ في التطبيق. والوصول إلى الدرجة العالية من الإيمان يحتاج إلى ممارسة واقعية وعملية في الالتزام والطاعة، وإلى فهم وتدبّر في المفاهيم والافكار، وهذا ممّا أشار إليه القرآن في بعض الموارد حين ميز بين ادعاء

(١) الزمر: ٣.

الإسلام والإيمان:

﴿ قَالَتْ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلْ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ... ﴾[1].

وهذه المظاهر من أخطر الظواهر التي واجهت الأديان الإلهيّة حين تعرضت للتحريف في العبادة والعلاقة مع الله تعالىٰ مع الاحتفاظ بنفس المفاهيم والشعارات الأصلية، ووجد المحرفون دائماً المبررات والذرائع والعناوين التي يوجهون فيها هذه الانحرافات.

ومن أجل ذلك تبنىٰ الاسلام مبدأ التوقيفية في العبادة والتزم بأنّها منهج معين يضعه الله ـ سبحانه ـ للانسان ليصوغ به غريزة التدين واحساسه بالدين، ويحدد فيه شكل العلاقة بالله تعالىٰ وصيغتها، ولا يصح للإنسان أن يتصرف في هذا الأمر بحسب ميوله أو اجتهاده للتعبير عن هذه العلاقة، والسر في ذلك كله هو: أنّ طبيعة العلاقة بين الله ـ تعالىٰ ـ والإنسان إنّما هي علاقة غيبية، لأنّ طرفها الآخر هو الله تعالىٰ، ولا يمكن للإنسان ـ وهو موجود مادي ـ أن يدرك الطريق الذي يوصله للتقرب إلىٰ الله تعالىٰ بنفسه، فلا بدّ له من أجل تحقيق ذلك أن يشخص الله ـ تعالىٰ ـ له هذا الطريق، فقد يكون ما يتصوره الإنسان مقرباً نحو الله مبعداً عنه، كما جاء ذلك في بعض النصوص التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام[2].

---

(١) الحجرات: ١٤.

(٢) وقد ورد عن الإمام الصادق لمّا سئل عن العبادة: أنّه قال: «حسن النية بالطاعة من الوجوه التي يطاع الله منها». كما ورد عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله «ألا إنّ لكلّ عبادة شرة [الرغبة الشديدة] ثمّ تصير إلى فترة، فمن صارت شرة عبادته إلى سنتي فقد اهتدى، ومن خالف سنتي فقد ضلّ، وكان عمله إلى تبار». الكافي ٢: ٨٣ و ٨٥.

٥ ـ الحياة الشخصية لموسىٰ :

لقد تناولت المواضع السابقة من قصّة موسىٰ بعض التفاصيل عن الحياة والسيرة الشخصية لموسىٰ خصوصاً فترة ما قبل بعثته عليه السلام.

ولعلّ القرآن الكريم استهدف من وراء عرض هذا الموضوع في قصّة موسىٰ هدفين :

الأوّل : ما أشرنا إليه سابقاً في تحليلنا لمقاطع القصّة من سورة القصص من أنّ هذه التفصيلات قد تدلّ علىٰ جانب من إعجاز القرآن ؛ إذ يدل الاطلاع عليها علىٰ مدلول يختلف عن مدلول الاطلاع علىٰ أحوال موسىٰ (الرسول) ؛ لأنّ أحوال موسىٰ (الرسول) كانت تتحرك في المجتمع العام ، وبذلك تكون معروفة بشكل طبيعي ويتناقلها التأريخ ، علىٰ خلاف أحوال موسىٰ (الرسول) قبل البعثة خصوصاً إذا كانت هذه التفاصيل ممّا ينفرد به القرآن الكريم عن الكتب السماوية الأُخرىٰ .

الثاني : ما أشرنا إليه في بحث مراحل الدعوة : من أنّ هذا الجانب يبرز لنا موسىٰ في صورة الانسان الذي قد أعده الله ـ تعالىٰ ـ للقيام بأعباء الرسالة ، وأنّه يتمكن بما يتمتع به من خلق وعاطفة وجرأة ومكانة علىٰ تحمل أعباء الدعوة .

ويمكن أن نضيف إلىٰ ذلك ـ أيضاً ـ أمراً ثالثاً هو : أنّه من خلال التعرّف على حياة موسىٰ الشخصية سوف تتكشف لنا بعض الأوضاع الاجتماعية السائدة حينذاك في المجتمع الفرعوني ، ومستوىٰ الظلم الذي كان يعاني منه الإسرائيليون واستسلامهم لهذا الواقع المرير ، وما أنعم الله به ـ سبحانه ـ علىٰ بني إسرائيل عامة وموسىٰ بشكل خاص من نعم وألطاف .

٦ ـ الأوضاع العامة للشعب الإسرائيلي :

لقد تناول القرآن الكريم بعض الأوضاع والصفات العامة للشعب

الإسرائيلي، وأشرنا إلىٰ بعضها عند دراستنا للمرحلة الثالثة من دعوة موسىٰ، ويمكن أن نلخص ما تكشف عنه هذه الأوضاع والصفات التي تناولها القرآن وهي:

أوّلاً: في أنّ الشعب الإسرائيلي كان يتصف بازدواجية فضيعة نتيجة لمختلف الظروف التأريخية والاجتماعية التي مرّ بها، والتي تراكمت آثارها المتنوعة والعميقة في سلوكه الاجتماعي ومحتواه النفسي والروحي.

وكانت تتمثل هذه الازدواجية في الشعور بالعظمة والامتياز والقربىٰ من الله بوحي من تأريخه المجيد الذي عاشه أباؤه وأجداده، كتأريخ النبوّات والمقام الاجتماعي المتميز الذي كان ليوسف عليه السلام وانقاذه للمجتمع من الكوارث الطبيعية، والتخطيط الاقتصادي الرائع الذي قام به من ناحية، ونجد هذا الشعب في الوقت نفسه قد قاسىٰ حياة طويلة من الاضطهاد والاستعباد ورزح في ظل مستلزماتها من جهل وفقر وانحطاط خلقي ونفسي واجتماعي من ناحية أخرى.

ولعلّ هذه الازدواجية هي التي تفسر لنا تململ الإسرائيليين، وعدم تحملهم لأعباء الرسالة وعملية الخلاص والانقاذ من ناحية، وتمادي الإسرائيليين في الطلبات، وكثرة تمنياتهم علىٰ موسىٰ، وعدم استجابتهم للخط الذي رسمه لهم لانقاذهم، وهو خط الجهاد لتحرير الأرض المقدسة من ناحية أُخرىٰ، وقد صنعوا كلّ ذلك علىٰ الرغم ممّا يتمتع به موسىٰ من مكانة عظيمة عندهم، لأنّه كان مخلصهم ومنقذهم من الظلم الفرعوني وضحى من أجلهم بموقعه الاجتماعي وحياته الهنيئة.

وقد استهدف القرآن من وراء إعطاء هذه الصورة للشعب الإسرائيلي تسليط الأضواء علىٰ واقع اليهود الذين كانوا يعايشون المسلمين، وكان ينظر إليهم العرب قبل ظهور الاسلام علىٰ أنّهم أهل الكتاب والمعرفة بالأديان وبكلّ ما يتصل بعالم الغيب. وحيث تتكشف هذه الصورة الواقعية لهذا الشعب (الازدواجية)

وتتضح معالمها سوف يظهر للمسلمين مدىٰ إمكان الثقة باليهود وعدم صحة نظرتهم للأشياء، ويتضح تفسير موقفهم السلبي من الرسالة والنبي صلى الله عليه وآله، وأنّه موقف نفسي واخلاقي فاسد.

كما يمكن أن نلاحظ ـ أيضاً ـ مدىٰ الأثر الذي تركته سنوات الاضطهاد والظلم علىٰ الأوضاع النفسية والروحية للإسرائيليين، والشعور بالضعف والحذر، ومعاناة موسىٰ عليه السلام في محاولة التغلّب علىٰ ذلك. حيث يظهر هذا الأمر بصورة واضحة في قضية دعوة موسىٰ قومه للدخول إلىٰ الأرض المقدسة التي كانت هدفهم وأملهم، خصوصاً أنّ هذه الدعوة جاءت بعد الانتصارات العظيمة التي حققها لهم موسىٰ والاستقلال والعزة والكرامة الإنسانية، ومع ذلك رفضوا هذه الدعوة بسبب الخوف.

ويبدو هذا الأمر واضحاً ـ بالمقارنة ـ مع دعوة النبي محمّد صلى الله عليه وآله للمسلمين إلىٰ قتال الروم في معركة (تبوك)؛ إذ استجاب عامة المسلمين لذلك باستثناء نفر منهم كانوا يشعرون بهذا اللون من الخوف والضعف.

الفصل الرابع

منهج تحليلي في دراسة القِصّة القرآنيّة

عيسى وقصّته :

عيسى عليه السلام هو ابن مريم ابنة عمران على ما ذكره القرآن الكريم، وهو آخر الأنبياء الذين ذكرهم القرآن الكريم بالاسم قبل نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله، وهو رابع أنبياء أولي العزم الذين تحدثنا عنهم.

وقد جاءت قصته في الأناجيل الأربعة المعروفة (متي، ومرقس، ولوقا، ويوحنا) التي يعترف بها المسيحيون بشكل عام، كما جاءت في الإنجيل الخامس (إنجيل برنابا)، ولكنّها جاءت في هذه الأناجيل مع اختلاف كبير بينها في التفاصيل بحيث لا يمكن الجمع بينها كما سوف نعرف.

وهي في الوقت نفسه مختلفة عمّا جاءت في القرآن الكريم في بعض الجهات.

ولم يرد ذكر هذه القصّة في التوراة بطبيعة الحال؛ لأنّها أقدم من وجوده، إلّا أنّ الغريب أنّه لم يرد ذكر لعيسى عليه السلام في التاريخ اليهودي والإنساني العام، ولا في تاريخ اليهود وجماعتهم إلّا في وقت متأخر نسبياً الأمر الذي جعل بعض المؤرخين يذهبون إلى إنكار وجوده، وادعاء أنّ قصّته هي من الأساطير التاريخية التي تشبه قصص بعض الأبطال الأسطوريين، مثل: كرشنا، واوزديس، واتيس، واونيس،

وديونش، ومتراس[١].

ولذلك يعتبر تأكيد القرآن الكريم لوجوده وذكر قصّته من أهمّ الادلة وأوضحها على وجود هذا النبي العظيم.

وقد ورد ذكره في القرآن الكريم باسمه الشريف (عيسى) خمساً وعشرين مرّة، كما ورد اسمه باسم المسيح أحد عشر مرّة، ثلاثة منها مقرونة بإسمه الشريف، وورد ذكره تحت عنوان (ابن مريم) بشكل مستقل مرّتين، فيكون مجموع الموارد التي ذكر فيها في القرآن الكريم خمساً وثلاثين مرّة.

كما أنّ قصّته وردت في القرآن الكريم متفرقة ومتناثرة ـ أحياناً ـ ضمن قصّة والدته مريم عليها السلام التي تعتبر من مقدمات وشؤون قصّته.

وأكثر الموارد تفصيلاً ما ورد في سورة آل عمران، وسورة المائدة، وسورة مريم[٢]، وبعد ذلك في سورتي النساء والصف[٣].

ولم ترد القصّة كاملة ولو على نحو الإجمال إلاّ في موضع واحد. وهو آل عمران، كما أنّها جاءت في هذه المواضع مختلفة اللفظ والهدف بحسب السياق الذي جاءت فيه القصّة، وإن كانت للقصّة أهداف خاصة كما سوف نشير إلى ذلك في الملاحظات العامة حول القصّة إن شاء الله.

وتتلخص قصّة عيسى عليه السلام في الفصول الثلاثة الآتية:

---

(١) راجع كتاب قصّة الحضارة ١١: ٢٠٢ ـ ٢٠٦.

(٢) آل عمران: ٣٢ ـ ٦٢، والمائدة: ٧٢ ـ ٨٦، و ١١٠ ـ ١١٩، ومريم: ١٦ ـ ٣٧.

(٣) النساء: ١٥٥ ـ ١٥٩، و ١٧١ ـ ١٧٢، والصف: الآيات ٦ ـ ٨، و ١٤.

قوم عيسى عليه السلام

قد يظهر من القرآن الكريم أنّ قوم عيسى عليه السلام هم بنو إسرائيل؛ لأنّه جاء الحديث في القرآن عن إرسال عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل: ﴿وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ ...﴾[1].

كما أنّه في سياق الحديث عن بني إسرائيل يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾[2]. وهكذا نجد ذلك في الآية ١٥٦ من سورة النساء.

وجاء في بعض الموارد حديث عيسى عليه السلام مخاطباً بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[3]. ﴿... وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ...﴾[4]. كما يظهر ذلك ـ أيضاً ـ ممّا يذكره القرآن عن

(١) آل عمران: ٤٩.

(٢) البقرة: ٨٧.

(٣) الصف: ٦.

(٤) المائدة: ٧٢.

نتائج الرسالة من موقف بني إسرائيل تجاه عيسى وموقفه تجاههم في قوله تعالى: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ ... وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾[2].

وكلّ هذه الآيات الكريمة وما يشبهها يظهر منه أنّ قوم عيسى عليه السلام هم بنو إسرائيل.

بل قد يبدو ولأوّل وهلة أنّ عيسى عليه السلام كانت دعوته مختصة ببني إسرائيل، كما قد يبدو ذلك في موسى عليه السلام أيضاً، إلّا أنّنا سوف نذكر في الحديث عن مراحل حياة عيسى عليه السلام أنّ دعوته لم تكن مختصة ببني إسرائيل، ولكنّ قومه الذين عاش بينهم وتحدّث إليهم هم بنو إسرائيل.

وإنطلاقاً من هذا الفهم يمكن أن نحدّد معالم هؤلاء القوم ممّا تحدّث عنه القرآن الكريم من مواصفات عامة لهذه الجماعة، وكذلك ممّا أشار إليه من مواصفات لهم في إطار الحديث عن عيسى عليه السلام في أيام حضوره معهم أو بعده، حيث يلاحظ أنّ القرآن قد تحدّث عن قوم عيسى في أيام حضوره ببعض المواصفات، وبعد وفاته ورفعه ببعض المواصفات الأُخرى تتناول عدّة أبعاد:

أ ـ البعد العقائدي:

١ ـ كان الإسرائيليون يؤمنون بالله والوحي الإلهي والرسالات، ويؤمنون

---

(١) المائدة: ٧٨ ـ ٧٩.

(٢) المائدة: ١١٠.

بالتوراة والزبور، ولكنّهم في الوقت نفسه كانوا قد حرفوا هذه العقائد، فقالوا في الله: إن له ولد ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[١].

٢ ـ كما أنّهم في الوقت نفسه كانوا قد اختلفوا في تفسير التوراة إلى حدّ كبير بحيث أصبح يمثل ذلك مشكلة مستعصية انتهت بهم ـ أحياناً ـ إلى الكفر بآيات الله؛ ولذا كان من أهداف رسالة عيسى عليه السلام هو حل مشكلة هذا الاختلاف وبيان الحقيقة ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾[٢].

٣ ـ وبسبب تحريف التوراة والاختلاف في تفسيرها والكفر بآيات الله التي يأتيهم بها أنبياؤهم كانوا يقتلون هؤلاء الأنبياء أحياناً، كما تشير إلى ذلك الآيات القرآنية بشكل إجمالي: ﴿... أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾[٣]. ﴿... فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[٤]. ﴿... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[٥].

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا

---

(١) التوبة: ٣٠.

(٢) الزخرف: ٦٣.

(٣) البقرة: ٨٧.

(٤) الصف: ٦.

(٥) البقرة: ٦١، وكذلك الآية ٢١ من سورة آل عمران.

وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾[١].

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ... ﴾[٢].

وقد جاء في النصوص أنّهم قد قتلوا زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، ويذكر القرآن الكريم محاولتهم لقتل المسيح وادعاءهم قتله[٣].

ب ـ البعد الاجتماعي :

لقد كانت العلاقات الاجتماعية بين الإسرائيليين عند ولادة عيسى عليه السلام تدور على محور (الهوى) و(حب الدنيا وزينتها) : من الأولاد والنساء، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾[٤].

---

(١) آل عمران : ١٨١.

(٢) النساء : ١٥٥ ـ ١٥٧.

(٣) البحار ١٤ : ١٨١ عن قصص الأنبياء للراوندي : ص ١٨٩ عن الكامل لابن الأثير : (إنّ يحيى عليه السلام لمّا قتل وسمع أبوه بقتله فرّ هارباً، فدخل بستاناً عند بيت المقدس فيه أشجار، فأرسل الملك في طلبه، فدخل في باطن شجرة، وقطعوا الشجرة وشقوها بالمنشار فمات زكريا عليه السلام ...).

(٤) البقرة : ٩٦.

ولذلك شاع بينهم الاختلاف إلى حدّ الاقتتال والاسر والاستعباد، كما شاع بينهم الأثم والعدوان، والتمرد على الأحكام والقوانين (العصيان)، والسكوت عن المنكرات، واتباع الهوى في الاخذ من التوراة أو رفضها، فيؤمنون بما تهواه أنفسهم منها، ويكفرون ببعضه الآخر الذي لايتفق مع هوى النفس والمصالح الخاصة، والولاء للكافرين دون المؤمنين ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾(١)

وبهذا يمكن أن نفهم صدور اللعن لهم على لسان داود وعيسى بن مريم ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾(٢).

---

(١) البقرة: ٨٤ ـ ٨٧.

(٢) المائدة: ٧٨ ـ ٨٠.

كما يمكن بهذا أن نفسّر النتائج التي وصل إليها الاسرائيليون، وأشار إليها القرآن الكريم: من الذلّة والمسكنة والغضب الإلهي الذي باءوا به، وقد أكّدت النصوص التأريخية سيطرة الكفّار الرومان عليهم ثم ما تعرّضوا له من إبادة وتشريد وتخريب على يد (بخت نصر) الحاكم البابلي عندما غزا الأرض المقدّسة[1].

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾[2].

ج ـ البعد السياسي:

وعلى مستوى العلاقات السياسية نجد بني إسرائيل كانوا قد وضعوا أُمور حياتهم وشؤونهم الاجتماعية والسياسية بيد أحبارهم ورهبانهم الذين حرفوا التوراة والكتب الإلهيّة، فاتخذوا هؤلاء الأحبار أرباباً لهم من دون الله يسمعون لهم ويطيعونهم، ولا يسمعون كلام الله ولا يطيعونه.

وكان هؤلاء الأحبار قد تحولوا إلى الدنيا والرئاسة ـ وأصبحوا يمثلون (علماء السوء) في المصطلح الإسلامي ـ حتى أصبحت الدنيا مبلغ همهم، وتحولت هذه

---

(١) وقد ورد في بعض النصوص عن أهل البيت عليهم السلام: أنّ نتائج هذا اللعن هو: أنّهم مسخوا قردة في عهد عيسى عليه السلام. راجع البحار ١٤: ٢٣٥ عن العياشي في تفسيره. وفي نص آخر عن إكمال الدين: أنّهم مسخوا شياطين. البحار ١٤: ٢٤٩.

(٢) آل عمران: ١١٢.

المقامات من مواقع للهداية والاصلاح إلى مناصب لأكل أموال الناس بالباطل يجمعونها ويكنزونها، ولا ينفقونها في سبيل الله.

بل أخذوا من خلال هذه المواقع يصدون عن سبيل الله، ويمنعون الناس من سماع كلمة الحق والهدى أو اتباعه خوفاً منهم على مواقعهم وسلطانهم[1].

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[2].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾[3].

كلّ ذلك وهم يعيشون تحت سلطة الرومان، وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة بذلك، كما ذكرنا.

وقد سرت هذه الحالة بعد ذلك في النصارى من اتباع عيسى عليه السلام بعده، كما يشير القرآن الكريم إلى ذلك.

---

(١) تشبه هذه الحالة التي يصفها القرآن ما وصلت إليه حالة الكنيسة الكاثوليكية والارثوذكسية في بلاد أُروبا في القرون الوسطى؛ إذ كانت تقوم الكنيسة بهذا الدور حتى وقعت الثورة في بريطانيا وفرنسا بعد ذلك، وسقطت سلطة الكنيسة كلياً أو جزئياً، ثم تحولت إلى جهاز تابع للسلطة الاستعمارية.

(٢) التوبة: ٣١.

(٣) التوبة: ٣٤ ـ ٣٥.

د ـ البعد الأخلاقي :

لقد تحدّث القرآن الكريم عن جوانب من البعد الأخلاقي لبني إسرائيل بشيء من التفصيل لم يتحدّث به عن الأقوام الآخرين.

والسبب في ذلك :

أوّلاً : أنّ البعد الأخلاقي يمثل القاعدة الأساسية للمجتمع الإنساني بعد العقيدة والإيمان بالله تعالى.

ثانياً : أنّ أصل المشكلة في جماعة بني إسرائيل ترتبط بهذا البعد الأخلاقي، ويمكن أن تكون بقية الأبعاد الأخرى نتائج لهذا البعد الأخلاقي، كما يفهم ذلك من القرآن الكريم ـ كما شرحنا ذلك في أبحاث تفسير القرآن الكريم ـ وبقيت هذه المشكلة قائمة ومؤثرة إلى حد كبير في هذه الجماعة حتى نزول القرآن الكريم.

ويمكن تلخيص أهم الجوانب الأخلاقية لهذه الجماعة التي أكّدها القرآن الكريم بالأمور التالية :

١ ـ قسوة القلب إلى حدّ الطبع والختم عليه، وهذا ما كانوا يتحدّثون به عندما يقولون : ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ فَقليلاً ما يُؤمِنُونَ﴾[1].

ثم ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ * وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ

---

(١) البقرة : ٨٨.

رَبِّي وَرَبَّكُمْ ...﴾[١].

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[٢].

٢ ـ نقض الميثاق والعهد، وهي صفة عامة أكّدها القرآن في بني إسرائيل، وهي أحد الأسباب الأخلاقية والنفسية التي تنتهي إلى قسوة القلب ثمّ الطبع والختم وقتل الأنبياء.

وقد تقدمت الآيات (١٥٥ ـ ١٥٧) من سورة النساء في البعد العقائدي التي تربط بين نقض الميثاق وغلف القلوب وقتل الأنبياء.

٣ ـ العناد والجحود حيث أكّد القرآن هذه الصفة فيهم في عدّة موارد من خلال ما أشار إليه من تكذيبهم لعيسى بن مريم عليه السلام بعد أن جاءهم بالبينات، وقولهم بشأنه: إنّه ﴿ ... هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾[٣].

٤ ـ المكر والخديعة؛ إذ صرح القرآن الكريم بذلك بشان قصّة عيسى عندما مكروا به في محاولتهم لقتله وصلبه:

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ... ﴾[٤].

---

(١) المائدة: ٧٠ ـ ٧٢.

(٢) البقرة: ٧٤.

(٣) الصف: ٦.

(٤) آل عمران: ٥٤ ـ ٥٥.

٥ ـ البهتان والكذب والقول بغير علم، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في بهتانهم العظيم لمريم عليها السلام وادعائهم قتل المسيح مع أنّهم لم يعرفوا ذلك باليقين، وقد تقدّم ذلك:

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

٦ ـ الغرور: الشعور بالامتياز من الآخرين والاختصاص بالله تعالى، وإنّهم أحباء الله وأولياؤه، وإنّ الدار الآخرة مختصة بهم من دون الناس، وإنّ الله ـ تعالى ـ إذا كان يعذّبهم بعصيانهم فإنّما هو لأيام معدودة.

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[2].

﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[3].

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ... ﴾[4].

﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً ... ﴾[5].

---

(١) آل عمران: ٧٨، وكذلك الآيات ١٥٦ ـ ١٥٧ من سورة النساء.

(٢) الجمعة: ٦.

(٣) البقرة: ٩٤.

(٤) المائدة: ١٨.

(٥) البقرة: ٨٠.

ووصل بهم الغرور والجرأة على الله ـ تعالى ـ حداً أن ادعوا أنّهم هم الأغنياء والله هو الفقير ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الّذِينَ قَالُوا إنّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾(١).

ومن هذا المنطلق الأخلاقي المتردّي وجدوا لأنفسهم الحق في استباحة أموال ودماء الناس الآخرين من غير بني إسرائيل كما تحدّث عنهم القرآن الكريم: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَ يُؤَدِّهِ إلَيْكَ إلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(٢).

وقد تحدّث القرآن الكريم عن قوم عيسى عليه السلام بعده أيضاً، فأشار إلى كثير من الانحرافات التي كان عليها الإسرائيليون أيام عيسى عليه السلام، مضافاً إلى نقطتين مهمتين:

الأولى: وجود الاختلاف بين المسيحيين في عيسى عليه السلام حتى أصبحوا أحزاباً وجماعات بشأنه.

﴿ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِم فَوَيْلٌ لِلّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾(٣).

الثانية: وجود من يقول بالغلو في عيسى عليه السلام بحيث يصعد به إلى درجة الألوهية فيقول: إنّه ثالث ثلاثة أو إنّه هو الله تعالى، وكذلك في أمه.

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إلاَّ الْحَقَّ إنَّمَا الْمَسِيحُ

---

(١) آل عمران: ١٨١.

(٢) آل عمران: ٧٥.

(٣) الزخرف: ٦٥.

عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً ﴾[1] ﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾[2].

ومع كل ذلك فقد كانت لرسالة عيسى عليه السلام ودعوته نتائج إيجابية مهمة سوف نشير إليها في الملاحظات العامة حول القصّة إن شاء الله.

---

(١) النساء : ١٧١.

(٢) المائدة : ١١٦.

شخصية عيسى عليه السلام

لقد ذكر العلاّمة الطباطبائي تحت عنوان [منزلة عيسى عند اللّه تعالى وموقفه في نفسه]: أنّ عيسى عليه السلام كان عبداً للّه وكان نبياً، ورسولاً إلى بني إسرائيل، وكان واحداً من الخمسة أُولي العزم صاحب شرع وكتاب، وهو: الإنجيل.

كما أنّ اللّه ـ تعالى ـ سمّاه بالمسيح عيسى، وكان كلمة اللّه وروحاً منه، وكان إماماً، ومن شهداء الأعمال، وكان مبشراً برسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، وكان وجيهاً في الدنيا والآخرة، ومن المقربين، وكان من المصطفين، وكان من المجتبين، وكان من الصالحين، وكان مباركاً أينما كان، وكان زكياً، وكان آية للناس ورحمة من اللّه وبراً بوالدته. وكان مسلّماً عليه، وكان ممّن علّمه اللّه الكتاب والحكمة.

فهذه اثنتان وعشرون خصلة من مقامات الولاية، هي جمل ما وصف اللّه ـ تعالى ـ به هذا النبي المكرم، ورفع بها قدره، وهي على قسمين: اكتسابية كالعبودية والقرب والصلاح، واختصاصية...[1].

وهذه الصفات على الأكثر هي مشتركه بينه وبين سائر أنبياء أُولي العزم الذين سبقوه وإن كان بعضها يختص به عليه السلام.

وهنا نحاول أن نقسّم هذه الصفات على الأبعاد الأربعة التي قسّمنا بها صفات إبراهيم عليه السلام، كما نضيف إليه خصال وخصائص أُخرى أشار إليها القرآن الكريم، ونتحدّث قليلاً عن الصفات التي اختص بها عيسى عليه السلام:

---

(١) الميزان ٣: ٢٨١ ـ ٢٨٢ وقد وضع أمام كلّ صفة رقم الآية التي يشير إليها.

الأوّل ـ البعد الرسالي:

وهي الصفات التي تشير إلى موقع عيسى عليه السلام من الرسالة الإلهيّة:

أ ـ الإمامة: وهي وإن لم يصرّح بها القرآن الكريم كما في إبراهيم وموسى عليهما السلام ولكن يمكن أن نستنبطها من آية سورة الأحزاب التي تحدّثت عن أخذ الميثاق الغليظ من الأنبياء؛ إذ يُذكر عيسى عليه السلام في سياق الخمسة أُولي العزم: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾[١].

كما أنّ القدر المتيقن من الذرية التي استجاب الله دعاء إبراهيم فيهم هو: عيسى عليه السلام فإنّه أفضل من إسحاق ويعقوب الذي يصرّح القرآن فيهما بعنوان الإمامة.

ب ـ النبوّة والرسالة على مستوى أُولي العزم، كما أشرنا إلى ذلك في إبراهيم عليه السلام، وهذا ما يؤكّده القرآن الكريم عند ما يذكر عن عيسى أن الله ـ تعالى ـ قد آتاه الإنجيل، وعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل؛ إذ يفصل بذلك بيان هذه الشريعة ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾[٢]؛ لأنّ القرآن يصرح في سياق آية سورة المائدة بوجود الشريعة والمنهاج المستقل: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً

---

(١) الأحزاب: ٧.

(٢) آل عمران: ٤٨.

لِلْمُتَّقِينَ ﴾[١].

ج ـ الاصطفاء والاجتباء كما في إبراهيم عليه السلام وغيره من الأنبياء، بل يبدو من القرآن الكريم أن هذا الاصطفاء كان لجده وأُمه أيضاً:

﴿ إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[٢].

د ـ التصديق بالتوراة والتبشير برسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، وبهذا يكون عيسى عليه السلام صلة الوصل وحلقة التكامل للرسالة السابقة عليه والمُمهد للرسالة الخاتمة لنبينا محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم.

وهو بهذا وإن كان لا يختلف عن موسى عليه السلام الذي كان مصدّقا لصحف إبراهيم عليه السلام ووصايا يعقوب ومبشراً برسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، ولكنّ القرآن الكريم يصرّح هنا في عيسى بكلا الأمرين بشكل يجعل ذلك صفة بارزة من صفاته ولا سيما التصريح بالاسم الشريف للرسول (أحمد):

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾[٣].

ولعلّ هذا التأكيد منه عليه السلام على هذا الدور؛ لأنّه كان يواجه التكذيب والشك بذلك في أوساط بني إسرائيل، وهذا على خلاف موسى الذي لم يكن يواجه مشكلة

---

(١) المائدة: ٤٦.

(٢) آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤.

(٣) الصف: ٦.

في هذا المجال.

هـ ـ آية للناس ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً ... ﴾[١]، فكان وجوده الشريف بنفسه وولادة أمّه له من دون أب وتكليمه للناس في المهد آيات إلهيّة ومعاجز ربانية تثبت له هذا المقام الرسالي.

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾[٢]

﴿ ... وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِياً ﴾[٣].

وهذه الصفة والخصلة من المقامات الرسالية التي اختص بها عيسى عليه السلام

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[٤].

وبذلك كان سلام الله عليه كلمة من الله ـ تعالى ـ وروح منه وآية للناس بنفس وجوده الشريف وكلامه في المهد.

﴿ ... إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[٥].

و ـ نزول المعجزات الخاصة على يديه بحيث اختص بهذا النوع من المعجزات عن بقية الأنبياء الذين سبقوه في ذكر القرآن لهم، فهو يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويجعل لهم كهيئة الطير فينفخ فيه، فيكون طيراً باذن الله تعالى،

---

(١) آل عمران: ٤٦.

(٢) المؤمنون: ٥٠.

(٣) مريم: ٢١.

(٤) آل عمران: ٥٩.

(٥) آل عمران: ٤٥ ـ ٤٦.

ويخبرهم بما يدخرون في بيوتهم من الطعام والشراب وغيرهما من المتاع.

ولذا جاء تأكيد القرآن الكريم لذلك أكثر من مرّة:

﴿... أنّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أنّي أخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ وَالأبْرَصَ وَأُحْيِي المَوْتَى بِإذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إنّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[1].

الثاني ـ العلاقة بالله تعالى:

وهي الصفات التي تتحدّث عن نوع ومستوى العلاقة بين اللّه تعالى وعيسى عليه السلام، وهنا نلاحظ أنّ القرآن الكريم يتحدّث في هذا البعد عن الخصال التي تعبّر عن موقف العناية والرحمة الإلهية بعيسى عليه السلام في تصوير هذه العلاقة، بدل الصفات التي تعبّر عن موقف عيسى عليه السلام من اللّه باستثناء صفة واحدة، وهي صفة العبودية.

أ ـ عبد اللّه ﴿قَالَ إنِّي عَبْدُ اللّه آتَانِي الكِتَابَ وجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾[2]، والعبودية المطلقة تشتمل على كل صفات التسليم والقنوت والشكر للّه تعالى التي تحدث عنها القرآن الكريم في وصف إبراهيم عليه السلام.

ب ـ أنعم اللّه عليه بنعم كثيرة، هي كل المقامات السابقة التي حصل عليها عيسى عليه السلام.

---

(١) آل عمران: ٤٩.

(٢) مريم: ٣٠.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[١]، وهي نعم قد اختص بها عيسى عليه السلام.

ج ـ وجيهاً عند الله ومن المقربين لديه، وهي صفة اختص بها عيسى عليه السلام وموسى في القرآن الكريم.

د ـ مسلّماً عليه من قبل الله تعالى ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾[٢]، وهي صيغة من السلام ذكرت ليحيى عليه السلام، كما أنّ السلام ذكر لنوح وإبراهيم وعلى موسى وهارون وعلى آل ياسين وعلى المرسلين.

هـ ـ كان عيسى عليه السلام مؤيداً بروح القدس؛ إذ ذُكر ذلك من جملة النعم التي أنعم الله بها عليه، وقد أكّد القرآن ذلك في عدّة مواضع:

﴿... وَآتَيْنَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ...﴾[٣]، وكذلك الآية ٢٥٣ من البقرة، والآية ١١٠ من المائدة ولم تذكر هذه الصفة والخصلة إلاّ له ولنبينا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم في سورة النحل ١٠٢.

و ـ رفعه الله إليه بعد الوفاة، وطهره من الكافرين، وهي من الصفات التي

---

(١) المائدة: ١١٠.

(٢) مريم: ٣٣.

(٣) البقرة: ٨٧.

اختص بها الله ـ تعالى ـ رسوله عيسى عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ...﴾[1].

﴿... وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[2].

الثالث ـ العلاقة بالناس :

لقد ذكر القرآن الكريم نوعاً آخر من الصفات لعيسى عليه السلام توضح فيه طبيعة العلاقة بينه وبين الناس بصورة عامة، أو مع والدته وقومه من بني إسرائيل بصورة خاصة.

أ ـ رحمة من الله تعالى للناس، فعلاقته مع الناس علاقة رأفة وخير وهدى وصلاح ومحبة وإحسان ﴿... وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً﴾[3].

كما أنّ القرآن الكريم يصوّر هذا الموقوف من الرأفة والرحمة في عيسى عليه السلام عندما يتحدّث عن عيسى عليه السلام وموقف قومه منه في يوم القيامة : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ...﴾[4]، ثم يعقب القرآن الكريم بعد ذلك فيذكر

---

(١) آل عمران : ٥٥.

(٢) النساء : ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٣) مريم : ٢١.

(٤) المائدة : ١١٦.

موقف الرأفة والرحمة في عيسى في قوله: ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[1].

ب ـ الشاهد عند الله على أعمال الناس والرقيب على سلوكهم في أقوالهم وأفعالهم.

﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ﴾[2].

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[3].

ج ـ الوجيه في الدنيا، فهو كان له الجاه عند الله في الآخرة ـ كما ذكرنا ـ ولكنّه مع وجاهته عند الله فهو وجيه بين الناس؛ لموقع بيته العظيم الذي اصطفاه الله ـ تعالى ـ من بين الناس والآل، ولولادته المتميزة، وللآيات والمعاجز التي جاء بها، ثم لسلوكه وأخلاقه الخاصة التي جعلته وجيهاً عندهم مع تواضعه وزهده في هذه الدنيا، ﴿ ... وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾[4]، فهو يشبه من هذه الصفة نبينا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم الذي كانت لديه هذه الوجاهة عند الناس أيضاً.

د ـ البر بوالدته والإحسان إليها والاحترام والوفاء والتقدير لها، ﴿ وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً ﴾[5].

---

(١) المائدة: ١١٨.

(٢) النساء: ١٥٩.

(٣) المائدة: ١١٧.

(٤) آل عمران: ٤٥.

(٥) مريم: ٣٢.

معالم الشخصية :

فقد ذكر القرآن الكريم إلى جانب الصفات السابقة بُعداً رابعاً في شخصية عيسى عليه السلام ترتبط بمعالم شخصيته الذاتية الرفيعة.

أ ـ كان عيسى عليه السلام إنساناً (مباركاً) من الله تعالى، ولا يستبعد العلّامة الطباطبائي أنّ تسميته بالمسيح في البشارة الإلهية ﴿... إنّ اللّه يُبَشّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيسى ابْنُ مَرْيَمَ ...﴾[1]، إنّما هو بمعنى (المبارك)؛ لأنّ الملك منهم إذا قام بأمر المُلك مسحته الكهنة بالدهن المقدس ليبارك له في ملكه، فكان يسمّى (مشيحا)، ومعرب هذه الكلمة (مسيح) فعناه المبارك[2].

﴿قَالَ إنّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَني نَبِيّاً * وَجَعَلَني مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ ...﴾[3].

والمبارك ما يكون فيه الخير والنماء، والمسيح كان كذلك؛ إذ كان يصحبه الخير أينما كان.

ب ـ وقد كان المسيح عليه السلام (صالحاً) شأنه شأن الأنبياء السابقين عليه ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[4].

وقد كان هذا إخباره عن نفسه منذ ولادته عندما تحدّث في المهد مع بني إسرائيل عن نفسه فقال: ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَتي وَلَمْ يَجْعَلْني جَبّاراً شَقِيّاً﴾[5].

---

(١) آل عمران: ٤٥.

(٢) الميزان ٣: ١٩٤ والنقل كان بالمعنى.

(٣) مريم: ٣٠ ـ ٣١.

(٤) الأنعام: ٨٥.

(٥) مريم: ٣٢.

ج ـ كما كان المسيح (مطيعاً) لله تعالى مسلّماً لأمره يعمل بالعدل والإحسان؛ إذ لم يجعله ﴿جَبّاراً شَقِيّاً﴾ والجبار هو: المتمرد العاتي المفسد في الأرض بالظلم والعدوان.

د ـ وكان المسيح عليه السلام (زكياً) طاهراً نقياً في ولادته وفي نفسه وعمله، وورد وصفه بذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً﴾[1]. ولمزيد من الفائدة نذكر ما ورد على لسان أمير المؤمنين علي عليه السلام في وصف زهد المسيح عليه السلام وسلوكه العام:

«وإن شئت قلت في عيسى بن مريم عليه السلام، فلقد كان يتوسّد الحجر، ويلبس الخشن، ويأكل الجشب، وكان إدامه الجوع، وسراجه بالليل القمر، وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها، وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهائم، ولم تكن له زوجة تفتنه، ولا ولد يحزنه، ولا مال يلفته، ولا طمع يذله، دابته رجلاه، وخادمه يداه!»[2].

وقد ورد في وصفه عليه السلام عن الرضا عليه السلام أنّه قال: «كان عيسى عليه السلام يبكي ويضحك، وكان يحيى عليه السلام يبكي ولا يضحك، وكان الذي يفعل عيسى عليه السلام أفضل[3].

---

(١) مريم: ١٩.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٦٠.

(٣) البحار ١٤: ٢٤٩ عن قصص الراوندي.

حياة عيسى عليه السلام

يمكن تقسيم قصّة عيسى ومراحل حياته من خلال ما عرضه القرآن الكريم منها في مواضع متعدّدة إلى مراحل وهي :

١ ـ مرحلة الولادة والنبوة .

٢ ـ مرحلة الدعوة والرسالة .

٣ ـ مرحلة الانتشار والتنظيم .

٤ ـ مرحلة الوفاة والاختلاف .

المرحلة الاولى ـ الولادة والنبوة :

أ ـ الإعداد للولادة :

لقد كانت ولادة عيسى عليه السلام حالة استثنائية في تاريخ البشرية ، لم يعرف لها مثيلاً إلاّ في خلق آدم عليه السلام ، ومع ذلك فإنّ آدم خُلق من طين وتراب ابتداءً بكلمة الله تعالى ومن دون أب وأُم ، وأمّا المسيح فقد خُلق بهذه الكلمة ، لكن كان خلقه في رحم امرأة صالحة مصطفاة ، هي : مريم ابنة عمران .

ولما كانت هذه الحالة استثنائية اقتضت الحكمة الإلهيّة أن يكون هناك إعداد نفسي وروحي واجتماعي في محيط هذه الولادة ؛ من أجل قبولها ودفع الشبهات عنها .

ومن هنا يقصّ علينا القرآن الكريم هذا الإعداد في خطوات وحلقات مترابطة بعضها مع بعض ؛ لتكوّن هذا الوضع النفسي والروحي في داخل الدائرة

الخاصة المحيطة بمريم عليها السلام، ولإيجاد الوضع الاجتماعي والحصانة المعنوية والمادية التي تحقّق هذا الهدف الإلهي.

والخطوة الأُولى هي: القرار الإلهي باصطفاء آل عمران واجتبائهم من بين بني إسرائيل؛ ليكونوا الشجرة الطيبة التي تؤتي هذه الثمرة الزكية.

﴿ إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

وتؤكّد بعض النصوص ماتشير إليه هذه الآية الكريمة: من أنّ عمران كان نبياً من أنبياء اللّه[2]؛ إذ أوحى اللّه ـ تعالى ـ إلىٰ عمران أنّي واهب لك ذكراً مباركاً يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتىٰ بإذني، وجاعله رسولاً إلى بني إسرائيل، فحدّث امرأته (حنّة) بذلك، وهي: أُم مريم، فلمّا حملت بها كان حملها عند نفسها غلاماً، فنذرت أن يكون مولودها محرراً إلى المسجد ومكان العبادة؛ إذ يختص بالمسجد ليعبد اللّه ويخدم فيه، فلمّا وضعت مولودها أُنثى قالت: ربّ إنّي وضعتها أُنثى وليس الذكر كالأُنثى؛ لأنّ البنت لا تكون رسولاً، وإنّي سميتها (مريم) ـ قيل: إنّ معنى مريم: الخادمة ـ فكانت التسمية متناسبة مع النذر، وقد استعاذت باللّه فيها وفي ذريتها من الشيطان الرجيم، فلما وهب اللّه لمريم عيسى عليه السلام كان هو الذي بشّر اللّه به عمران ووعده إياه[3].

وكانت الخطوة الثانية في الإعداد هو: وضع مريم عليها السلام في المسجد؛ لتنبت نباتاً

---

(١) آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤.

(٢) البحار ١٤: ٢٠٢ عن قصص الأنبياء للراوندي.

(٣) البحار ١٤: ٢٠٠، عن تفسير علي بن إبراهيم بتصرف.

حسناً في جوّ العبادة والصلاة، والخدمة للعُبّاد والصالحين، وفي رعاية زكريا النبي عليه السلام؛ إذ كان يتنافس على رعايتها العبّاد والصالحون من الكهنة، فساهموا عليها بأقلامهم[1]، فكانت من نصيب زكريا عليه السلام في هذه الرعاية.

وكانت الخطوة الثالثة في الإعداد: الكرامات التي كان يشاهدها زكريا عند مريم مضافاً إلى عبادتها وصلاحها؛ لأنّه كان يرى عندها رزقاً حسناً كلّما دخل عليها المحراب، فيسألها عن مصدره؟ فتخبره أنّه يأتيها من عند الله تعالى[2]، وهي كرامة إلهيّة غيبية لمريم عليها السلام أثارت في نفس زكريا عليه السلام مشاعر التقدير والتقديس لها، وفتحت في نفسه الأمل في شموله بهذه الكرامة، فيدعو ربه أن يتفضل عليه بكرامة أُخرى خارقة للعادة، ويهب له ذُرية طيبة؛ لأنّه شيخ كبير وامرأته عاقر لا تلد.

﴿ إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ

---

(١) ورد في بعض النصوص: أنّ امرأة سوهم عليها بالأقلام كانت مريم، وكانت السهام ستة. البحار ١٤: ١٩٨، عن الخصال ومن لا يحضره الفقيه مرسلاً، كما ورد في بعض النصوص: أنّ مريم ابنة أُخت زوجة زكريا يكون زوج خالتها.

(٢) البحار ١٤: ٢٠٣، وورد في النصوص: أنّ هذا الرزق الحسن كان هو فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، الأمر الذي كان يثير السؤال.

يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾[1].

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾[2].

وكانت الخطوة الرابعة في الإعداد هي: استجابة اللّٰه ـ تعالى ـ لدعاء زكريا، وقد كان يخاف الموالي من ورائه على وراثته؛ لأنّهم ربّما لا يحسنوا الصنع في إرثه وخلافته، فبشّره اللّٰه ـ تعالى ـ بمولود ذكر يكون سيداً وحصوراً قد أحصن فرجه ونفسه، ونبياً من الصالحين اسمه يحيى لم يجعل اللّٰه له من قبل سمياً.

﴿ كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً * يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً * قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً * قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً * فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾[3].

﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقاً

---

(١) آل عمران: ٣٥ ـ ٣٨.

(٢) آل عمران: ٤٤.

(٣) مريم: ١ ـ ١١.

بِكَلِمَةٍ مِنْ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنْ الصَّالِحِينَ * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾[١].

وكانت الخطوة الخامسة في هذا الإعداد: أن آتى اللّٰه ـ سبحانه وتعالى ـ يحيى الحكم وهو النبوّة ـ على رأي بعض المفسرين، أو الحكمة وفصل النزاعات على رأي آخر ـ في صباه، وكان مثالاً وقدوة للصفات التي أراد اللّٰه ـ تعالى ـ أن يتصف بها عيسى عليه السلام؛ ليكون بوجوده الشريف حجّة ودليلاً على هذا النبي الجديد المصطفى[٢].

﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً * وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً * وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً * وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً ﴾[٣].

وكانت الخطوة السادسة في هذا الإعداد هو: الاصطفاء والاجتباء لمريم لهذه المهمّة الصعبة، وهي: حمل وولادة عيسى عليه السلام من غير أب؛ لأنّها تحتاج إلى طهارة

---

(١) آل عمران: ٣٩ ـ ٤١.

(٢) بهذا يمكن تفسير هذا الاقتران ـ في سورة مريم ـ في عرض شخصية يحيى وعيسى عليهما السلام في سورة مريم، ثمّ التشابه في الصفات بينهما في هذا العرض وذكر قصّة ولادته وصفاته قبل ذكر قصّة عيسى عليه السلام خصوصاً أنّ القرآن الكريم هنا يقرن بين الولادتين دون تمهيد ودون ربط بينهما في الحديث غير السياق، ويختم كلاً من القصتين بالسلام عليهما.

(٣) مريم: ١٢ ـ ١٥.

ونقاء وصبر وتحمل وارتقاء في درجات الكمالات الإلهيّة من خلال القنوت للّه تعالىٰ والصلاة والدعاء.

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾[١].

وبهذا تصبح البتول مريم عليها السلام قد أُعدّت إعداداً إلهيّاً غيبياً وبشرياً لهذه الولادة الفريدة في تاريخ البشرية.

وقد تظافرت النصوص عن طريق أهل البيت عليهم السلام وطريق الجمهور وبأسناد صحيحة عندهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ أفضل نساء الجنّة أربع: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمّد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون»[٢]. وفي رواية أُخرى تقديم اسم فاطمة على الجميع.

ب ـ الحمل ـ الولادة ـ النبوة:

الخلوة:

١ ـ لقد اختَلَتْ مريم وانتبذت ـ في وقت من الاوقات ـ من أهلها إلى مكان شرقي كانت قد اتخذت فيه حجاباً من دونهم يسترها عنهم، ولم يحدّد القرآن الكريم هذا المكان الشرقيّ، فقيل فيه: إنّه شرقيّ المعبد الذي كانت تتخذه للعبادة، حيث كانت قد اعتزلت فيه إلى مكان شرقيّ، واتخذت فيه حجاباً، حيث كان لا يدخل عليها فيه إلّا زكريا عليه السلام.

وقيل فيه: إنّها كانت تقيم في المعبد إذا حاضت خرجت منه، وأقامت في بيت

---

(١) آل عمران: ٤٢ ـ ٤٣.

(٢) راجع البحار ١٤: ٢٠١ عن الخصال، وقصص القرآن لابن كثير: ٤٨٦ ـ ٤٨٧.

زكريا حتى إذا طهرت عادت إلى المسجد، فبينما هي في (مشرقه) لها في ناحية الدار وقد ضربت بينها وبين أهلها حجاباً تستتر به للغسل، إذا أرسل اللّه جبرئيل عليه السلام [١]، فدخل عليها، فتمثل لها في حواسها أنّه شاب سويّ الخلق، فكان دخول هذا البشر السوي عليها في خلوتها مفاجأة لامرأة عذراء منقطعة إلى اللّه تعالى هزّتها من الأعماق، فقالت: ﴿... إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً﴾ [٢] حيث تستنجد باللّه، وتحاول أن تثير في هذا الغريب مشاعر التقوى الذي تمنعه من ارتكاب المعصية والانسياق مع الشهوات.

فكان جوابه ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً﴾ [٣] يبشرك اللّه بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم، وسوف يكون وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين، فتسأله مستنكرة مريم في صراحة المرأة التى تريد أن تدافع عن نفسها وهي في حالة العجب والاستغراب من فكرة هذا الرسول الإلهي؛ ذلك لأنّ الغلام في نظرها لا يولد إلّا من مس البشر المشروع، وهو الزواج، أو البغيّ غير المشروع ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً﴾ [٤] وهنا

---

(١) يذكر العلّامة الطباطبائي قرائن من الآيات القرآنية على أنّ المقصود من الروح هنا هو: جبرئيل. وإنّه ظهر في حواس مريم عليها السلام في صورة البشر؛ إذ إنّ القرآن يعبّر عن جبرئيل بالروح المرسل من اللّه تعالى. راجع الميزان ١٤ : ٣٥، ونسبة الحديث إلى الملائكة في سورة آل عمران من باب نسبة قول الواحد إلى الجماعة، وهو أُسلوب شائع ومتبع في القرآن.

(٢) مريم : ١٨.

(٣) مريم : ١٩.

(٤) مريم : ٢٠.

أوضح لها الرسول أنّ الولادة وإن كانت خارقة للعادة؛ لأنّها لم تكن بمس بشر ولا ببغي، ولكنّها هي أمر هيّن على الله ـ تعالى ـ الذي خلق الناس من قبل أن يكونوا شيئاً، وهو قادر على أن يخلق مايشاء، واذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون. كلّ ذلك من أجل أن يتحقّق هدف إلهي من هذه الولادة، وهي: أن يكون هذا المولود آية للناس ورحمة لهم من الله تعالى.

وسوف يعلّمه الله ـ تعالى ـ الحكمة والتوراة والإنجيل، ويبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل، وإنّ هذا قرار إلهي لا مردّ له من الله تعالى.

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذْ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيّاً * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُنْ بَغِيّاً * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً ﴾[١].

﴿ إِذْ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنْ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾[٢].

النفخ:

٢ ـ وهنا نفخ الله ـ تعالى ـ بواسطة الرسول في مريم، كما نفخ من روحه في

---

(١) مريم: ١٦ ـ ٢١.

(٢) آل عمران: ٤٥ ـ ٤٨.

آدم، فكان الحمل بعيسى عليه السلام ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾[١].

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[٢].

ولا يحدّثنا القرآن الكريم عن كيفية الحمل ولا مدته، ولكن تذكر بعض النصوص أنّ الحمل كان لستة أشهر[٣]، وبعضها الآخر يقول لتسع ساعات[٤] ولكن يذكر القرآن الكريم أنّ مريم عليها السلام بعد الحمل اعتزلت قومها إلى مكان قصي بعيد عنهم، ولا يذكر القرآن الكريم هذا المكان بالتحديد، وإنّما ورد في النصوص المعتبرة عن أهل البيت عليهم السلام[٥] إنّ مكان الولادة كان في بيت لحم، وهو محل ولادتها المعروف عند النصارى الآن[٦]. فإذا كان مكان ولادتها هو مكان اعتزالها فذلك يعني: أنّ مريم عليها السلام كانت قد رجعت إلى بيت لحم بعد الحمل؛ لأنّها تتعبد في بيت

---

(١) التحريم: ١٢.

(٢) آل عمران: ٥٩.

(٣) البحار ١٤: ٢٠٧ عن الكافي والعلل. والحديثان ضعيفان سنداً.

(٤) ذكر ذلك القمي في تفسيره دون إسناد. البحار ١٤: ٢٠٨ وقد حاول بعضهم أن يستفيد هذا المعنى من الآيات الكريمة في سورة مريم؛ إذ استخدم القرآن في العطف حرف (الفاء) وهو يدل على الفوريّة.

(٥) البحار ١٤: ٢٠٨ عن تفسير القمي.

(٦) ورد في عدة نصوص أُخرى عن أهل البيت عليهم السلام: أنّ ولادتها كانت في العراق على نهر الفرات في الكوفة. وفي بعضها الآخر في كربلاء أو براثا. راجع البحار ١٤: ٢١١ ـ ٢١٢ و ٢١٦ ـ ٢١٧.

المقدس ما هو المعروف، ثمّ اعتزلت الناس في بلدها بسبب قلقها من هذا الحمل الغريب، وخوفها من الإفك والبهتان من الناس بشأنه.

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً ﴾(١).

ويمكن للخيال أن يتصور حال مريم في هذا المكان المعزول عن الناس البعيد عنهم، المنبوذ منهم، والمدة التي قضتها في هذا الحال من القلق والاضطراب والانتظار والخوف.

المخاض :

٣ ـ ثمّ يفاجئها المخاض، فيلجئها إلى جذع نخلة؛ لتستند إليها في مخاضها؛ إذ اعتادت النساء في حالات الوضع والمخاض أن تستند إلى أذرع نساء الأهل والقابلات المولدات، وأن يجدن الرعاية والعطف والسلوة في خضم آلام المخاض العنيفة، أمّا هذه العذراء البتول التي لم يمسسها بشر، ولم تعرف الحمل والولادة من قبل لا في نفسها ولا في أهلها، فليس لها من سند ولا معتمد تلجأ إليه إلّا هذه النخلة التي وردت بعض النصوص في أنّها كانت نخلة يابسة، وهو ممّا توحي به الآية الكريمة عندما تتحدّث عن المكان القصي المنبوذ(٢).

عندئذٍ يبلغ الألم النفسي فيها مبلغه والمحنة غايتها، وتشعر بالإنقطاع عن هذه الدنيا وكل مافيها من حياة؛ لأنّ الكرامة والسمعة الحسنة هي أعزّ ما لدى الإنسان

(١) مريم : ٢٢.

(٢) مضافاً إلى ما يذكره العلّامة الطباطبائي : من أنّ نسبة الهز إلى الجذع والمساقطة إلى النخلة لا تخلو من إشعار بأن النخلة كانت يابسة، وإنّما اخضرّت وأورقت وأثمرت رطباً جنيّاً لساعتها، الميزان ١٤ : ٤٢.

الصالح في هذه الحياة، فتعبّر عن ألمها ومحنتها ومشاعرها بأن تتمنى أن تكون في هذه الدنيا خرقة بالية متروكة لا يهتم بها أحد من الناس، أو يلتفت إليها ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً ﴾(١).

وفي قمّة المحنة وشدّة الألم يأتيها اليسر بعد العسر، والفرج بعد الكرب، والرخاء بعد الشدّة، وهذا القانون الإلهي، والسنة الربانية ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾(٢).

فتحقق الولادة الميسورة لآلامها، وانفراج النفس لكربتها، والطمأنينة والسكينة لنفسها حيث تضع مولودها الموعود.

النداء:

٤ ـ ويأتيها النداء المطمئن من تحتها ـ وهل كان النداء من عيسى عليه السلام مولودها الموعود الجديد؟ أو من الروح الذي أرسله الله إليها من تحت الأكمة؟ ـ ويتحدّث إليها حديث العارف بحالها، ويقدّم لها العلاج والحل لكلّ آلامها ومشاكلها:

أ ـ فيطلب منها أن تتخلى عن الحزن والكرب؛ لأنّ الله ـ تعالى ـ قد جعل تحتها ولداً رفيعاً في الشرف (سرياً)(٣) ووجيهاً في الدنيا والآخرة، ومن المقربين،

---

(١) مريم: ٢٣.

(٢) الشرح: ٥ ـ ٦.

(٣) ورد في تفسير (السري): أنّه الشريف الرفيع، فهو صفة للمولود الذي أصبح من خلال الوضع والولادة. كما ورد في تفسير (السري) ـ أيضاً ـ أنّه النهر الجاري، فيكون إشارة إلى ما منحها الله ـ تعالى ـ ورزقها من شراب وغذاء، تسدّ به حاجاتها الفعلية المادية، وهو يناسب ما ورد في الآية ٢٦ من السورة.

وهذه كرامة من الله ـ تعالى ـ لها، ما بعدها كرامة.

ب ـ كما طلب منها أن تهزّ جذع النخلة إليها؛ ليتساقط عليها الرطب الجني، فيسدّ جوعها وحاجتها إلى الغذاء الجيد الذي يدرّ عليها ـ أيضاً ـ باللبن والغذاء لولدها.

ج ـ ثمّ يطلب منها أن تداري نفسها بالأكل والشراب، وتطمئن إلى حالها، وتستقر من القلق والاضطراب، وتقر عينها، فتسرّ بهذه الولادة الكريمة.

د ـ ثم يذكر لها ما تعالج به المشكلة الرئيسة، وهو: خوفها من حديث الناس وإفكهم وبهتانهم: ـ إذ يكون التفسير البدوي لظاهرة هذه الولادة في نظر هؤلاء العامة هو: إتهامها بالزنى والإثم ـ وذلك بأن تمتنع عن الحديث مع الناس، وتقول لهم بالإشارة إلى أنّها قد نذرت للرحمن صوماً عن الحديث والكلام[1] بأن تنوي لساعتها وتنذره لله على نفسها.

﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً ﴾[2].

المواجهة:

٥ ـ بعد هذا النداء والحديث المطمئن للنفس والمطيّب للخاطر المقرون بالعناية

---

(١) هذا الصوم يعرف بصوم زكريا حيث يشير القرآن الكريم في سورة مريم في سياق قصّة مريم وعيسى عليهما السلام إلى هذا الصوم الذي جعل آية لزكريا عليه السلام: ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً ﴾ حيث قد أصبح هذا الصوم عبادة معروفة بينهم.

(٢) مريم: ٢٤ ـ ٢٦.

والكرامات الإلهيّة الواضحة، جاءت مريم بولدها الذي كان اللّٰه ـ سبحانه ـ قد سمّاه بالمسيح عيسى تحمله إلى قومها، فكان التعجب والاستغراب والاستنكار من قومها: امرأة لها سابقة الزهد والعبادة، والالتزام بالمسجد، والاحتجاب عن الناس، والرعاية الصالحة من زكريا، وابنة البيت المصطفى من اللّٰه (آل عمران) لم يكن أبوها امرأ سوءٍ، ولا كانت أمّها بغياً إذا بها تأتي بمولود لها تحمله على يدها دون زواج أو سابقة سوءٍ في تاريخها، ولا بغي وإثم في سلوكها!! فهذا شيءٌ فري عظيم الابتداع، ومنكر قبيح لا ينسجم، ومخالف للواقع الذي كانت تعيشه هذه المرأة.

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ [أَنّىٰ لَكِ هٰذا؟!] لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً * يَا أُخْتَ هَارُونَ[1] مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمّكِ بَغِيّاً ﴾[2].

﴿ إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[3].

لقد كانت حجّة قومها في ظاهر الحال قوية لاسبيل لمريم في الدفاع عن

(١) ورد في تفسير تسمية قومها لها بـ(أُخت هارون) احتمالات أربع:

أحداها: أنّ هارون هذا كان رجلاً صالحاً في بني إسرائيل يُنسب إليه كلّ من عرف بالصلاح، وقيل: إنّه لمّا مات شيع جنازته أربعون ألفاً كلّهم يُسمّى هارون، فقولهم: يا أُخت هارون معناه: يا شبيهة هارون في الصلاح ما كان هذا معروفا منك.

ثانيها: أنّ هارون أخو موسى عليه السلام، فنسبت إليه؛ لأنّها من ولده كما يقال: يا أخا تميم.

ثالثها: أنّ هارون كان أخاها لأبيها ليس من أمها، وكان معروفاً بحسن الطريقة.

رابعها: أنّه كان رجلاً فاسقاً مشهوراً بالعهر والفساد، فنسبت إليه، وقيل لها: يا شبيهته في قبح فعله. مجمع البيان ٣: ٥١٢.

(٢) مريم: ٢٧ ـ ٢٨.

(٣) آل عمران: ٣٣.

النفس، فكيف يمكن توضيح هذه الحقيقة الغيبية بالبيانات الإنسانية العادية؟! لذا كان السكوت هو الموقف الطبيعي لمريم عليها السلام، ولا بدّ لتوضيح هذه الحقيقة من معجزة إلٰهية وحجّة غيبية.

النبوّة:

٦ ـ وقد كان الملك والروح قد أخبرها عند بشارتها بالمسيح عيسى عليه السلام: أنّه ﴿... يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنْ الصَّالِحِينَ﴾[١]، ومن هنا أشارت مريم عليها السلام إلى وليدها وهي ملتزمة بنذرها، فكان ذلك سبباً آخر للإثارة والاستغراب والاستنكار.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً﴾[٢]؟!

وعند ما بلغ الإستنكار مداه، وظواهر الاستغراب أقصاها، كانت المفاجأة، وكانت الآية، وكانت المعجزة الإلهيّة التي يجسدها القرآن الكريم:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً * وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً * وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾[٣].

كلام كلّه غيب وأخبار عن الكمالات الإلهيّة التي أودعها اللّه ـ تعالى ـ في عيسى عليه السلام، تتحدث عن صفات وأعمال ومقامات لا يمكن لهؤلاء الناس أن يدركوها بحواسهم، أو يعرفوا حقيقتها في وقت سماعها، ولكنّه في الوقت نفسه كلام

---

(١) آل عمران: ٤٦.

(٢) مريم: ٢٩.

(٣) مريم: ٣٠ ـ ٣٣.

مقرون بأبلغ حجّة على صحته، وأوضح آية ودليل وبرهان على واقعيته هو: أنّ الذي ينطق بهذا الكلام هو هذا الصبي الصغير حديث الولادة الذي لا زال يلازم المهد، إذن فوجوده ـ بغير أب ـ من أم طاهرة زكية مصطفاة، وفي بيت طاهر، هو أمر غيبي وبتدخل إلهي مباشر، وهذا ما فهمه الناس والقوم، فعرفوا طهارة الولادة وحقيقتها ونبوّة المولود الجديد، فانقطعت الحجة الظاهرة لهؤلاء القوم، ولم يكن أمامهم إلّا الخضوع لقبول هذه الحقيقة[١].

خصائص هذه المرحلة:

تتميز هذه المرحلة من حياة عيسى عليه السلام بعدة ميّزات:

الأولى: هي تصوير قضية الاصطفاء لعيسى عليه السلام في أصولها وجذورها الإنسانية المعنوية من خلال ربط هذا الاصطفاء بسلسلة الاصطفاء الإلهي للإنسان: في آدم، والاصطفاء الإلهي للأنبياء من بني الإنسان في نوح، والاصطفاء للآل، والبيوتات من الناس في آل ابراهيم، ومن ثمّ آل عمران.

فالاصطفاء قانون إلهي يسير وفق نظام غيبي في هذا الكون، وقد يكون

---

(١) في الحديث ورد أنّ السّلام في هذه المواطن لأنّها أشد المواطن على الانسان، عن ياسر الخادم قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: «إنّ أوحش ما يكون هذا الخلق في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيخرج من بطن أمّه فيرى الدنيا، ويوم يموت فيعاين الآخرة وأهلها، ويوم يبعث فيرى أحكاماً لم يرها في دار الدنيا. وقد سلّم الله على يحيى عليه السلام في هذه الثلاثة المواطن، وآمن روعته فقال: ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيّا﴾ وقد سلّم عيسى بن مريم على نفسه في هذه الثلاثة فقال: ﴿والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّا﴾». البحار ١٤: ٢٤٦، حديث ٢٦.

للنوع وقد يكون للفرد، وقد يكون للآل والبيت، وقد تكون للإرادة الانسانية -أيضاً- دور في تهيئة واعداد مقدماته، ولكنّه يبقى الاصطفاء قراراً وتوفيقاً إلهيّاً.

وكذلك من خلال بيان الاصطفاء في مسيرته الأرضية من خلال رؤيا عمران ونذر امرأته لله -تعالى- في إخلاصها، ورعاية زكريا عليه السلام في حبه وصفائه وعبادة وطهارة مريم، وخلوصها لباريها، واحتجابها عن الأهل والخلق، وانصرافها عن الدنيا، وصبرها وتحملها لهذه الآلام، والامتحان العسير.

الثانية: أنّ القرآن يفصّل أحداث هذه المرحلة، كما لم يفصّل أحداث أي مرحلة اُخرى من مراحل حياة عيسى عليه السلام؛ لأنّ الهدف (الرئيس) من قصّة عيسى عليه السلام -كما سوف نعرف- يرتبط بهذا التفصيل. وهذا الهدف هو: معالجة الفكرة العقائدية المركزية في انحراف النصارى.

ولذلك نجد القرآن الكريم يختم كلاًّ من المقطعين الرئيسين اللذين يتحدثان عن هذه المرحلة، وهما: مقطع سورة آل عمران وسورة مريم بتأكيد هذه الحقيقة:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۞ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾(١).

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۞ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(٢).

الثالثة: أنّ الإسرائيليّين لم يتناولوا مريم عليها السلام بالإتهام بعد أن تكلّم عيسى في المهد حيث لا ينسب القرآن الكريم لهم في الحديث عن قصّة عيسى الإصرار على

---

(١) آل عمران: ٥٩ـ٦٠.

(٢) مريم: ٣٤ـ٣٥.

ذلك، بل يكتفي بالإشارة إلى البهتان عليها، وتسرعهم بذلك قبل حديث عيسى عليه السلام ﴿...وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً﴾[1]، ويؤكد ذلك ما تحدّث عنه القرآن الكريم، ويشير إليه الواقع التاريخي الذي تحدّث عنه القرآن في وصف عيسى عليه السلام: من أنّه كان وجيهاً في الدنيا، الأمر الذي يؤكد فكرة عصمة الأنبياء في جميع خصائصهم ومواصفاتهم، ومنها أن يكونوا على طهارة المولد في الواقع والظاهر؛ ليتمكنوا من أداء رسالتهم ومسؤوليتهم بشكل طبيعي.

والأناجيل لا تشير من قريب ولا بعيد إلى هذه التهمة أو المواجهة مع بني إسرائيل، وإنّما تكتفي بذكر قصّة يوسف النجار (عشيرها)، الأمر الذي يعطي تفسيراً للسكوت عنها وعدم تهمتها. وبهذا نعرف كذب الرواية الإنجيلية عن قصّة يوسف النجار[2].

الرابعة: وجود الارتباط بين قصّة زكريا ويحيى عليهما السلام، بل ومريم عليها السلام وقصّة عيسى عليه السلام في هذه المرحلة بالذات، ولذا جاءت قصتهما في القرآن الكريم مقرونة بهذه المرحلة، وإن كان ذكرهما أوسع من ذلك، الأمر الذي يعني: أنّ الهدف من قصّتهما هو: التمهيد لهذه المرحلة وتوضيح الهدف منها.

---

(١) النساء: ١٥٦.

(٢) قارن ما ذكرنا ما ورد في قصص الأنبياء للنجار: ٥١٣ ـ ٥١٧، فإنّه حاول أن يكتفي بادعاء سكوت القرآن عن هذه القصّة، مع أنّ حديث القرآن واضح في تكذيب هذه القصّة، أوّلاً: بما ذكره من أنّ مريم كانت محررة للمسجد بنذرها أمها، وإنّما كانت تتعبد فيه، وثانياً: الاتهام الذي واجهها به قومها، وكذلك شعورها بالحرج والخوف من التهمة، مع أنّ قصّة يوسف لو صحت لكانت كافية في أن تدفع عنها التهمة.

الخامسة: أنّ الظاهر من القرآن الكريم: أنّ هذه المرحلة كانت تتصف ـ أيضاً ـ وتتميّز بالنبوة والكتاب، وهو ممّا يتميّز به عيسى عليه السلام من بقية الأنبياء، فإنّه سلام الله عليه كما امتاز من بقية البشر بهذه الولادة الفريدة كذلك امتاز من بقية الأنبياء: بأن كانت نبوته وإتيانه الكتاب عند ولادته؛ لأنّ ظاهر قوله تعالى على لسان عيسى وهو يتكلم في المهد: ﴿... إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ...﴾ أنّ هذه الصفات كانت ثابتة له في الحال لا في الاستقبال، ومن الواضح: أنّ ثبوت النبوة لهذا المولود ليس عزيزاً على الله ـ تعالى ـ وعلى قدرته، كما أنّ المصلحة والهدف من ذلك واضح من القرآن الكريم؛ إذ جعله مثلاً لبني إسرائيل كما جعله وأُمه آية لهم[1].

---

(١) «عن يزيد الكناسي قال: سألت أبا جعفر عليه السلام أكان عيسى بن مريم عليه السلام حين تكلم في المهد حجّة [ا]لله على أهل زمانه؟ فقال: «كان ـ يومئذٍ ـ نبياً حجّة [ا]لله غير مرسل. أما تسمع لقوله حين قال: ﴿إني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبيّا وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّا﴾ »؟! قلت: فكان ـ يومئذٍ ـ حجّة لله على زكريّا في تلك الحال وهو في المهد؟ فقال: «كان عيسى في تلك الحال آية للنّاس ورحمة من الله لمريم حين تكلّم فعبّر عنها. وكان نبيّا حجّة على من سمع كلامه في تلك الحال، ثمّ صمت فلم يتكلّم حتّى مضت له سنتان. وكان زكريّا الحجّة لله ـ عزّوجلّ ـ على الناس بعد صمت عيسى بسنتين، ثمّ مات زكريّا. فورثه ابنه يحيى الكتاب والحكمة وهو صبيّ صغير. أما تسمع لقوله عزّوجلّ: ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوّة وآتيناه الحكم صبيّاً﴾؟! فلمّا بلغ عيسى عليه السلام سبع سنين تكلّم بالنبوة والرسالة حين أوحى الله ـ تعالى ـ إليه. فكان عيسى الحجّة على يحيى وعلى الناس أجمعين، وليس تبق الأرض يا أبا خالد يوماً واحداً بغير حجّة لله على الناس منذ يوم خلق الله آدم عليه السلام وأسكنه الأرض». فقلت: جعلت فداك أكان عليّ عليه السلام

المرحلة الثانية ـ الدعوة والرسالة :

١ ـ لم يحدّد القرآن الكريم الوقت الذي بدأ عيسى عليه السلام بإبلاغ دعوته ورسالته إلى بني إسرائيل، وإن كان عليه السلام قد أخبرهم بهذه (الحقيقة) عندما كان في المهد.

ولكن بعض النصوص عن أهل البيت عليهم السلام التي سبقت الإشارة إليها ذكرت بأنّ ذلك كان بعد سبع سنين من ولادته أو ثلاث سنين منها[1].

حجّة من الله ورسوله على هذه الأمّة في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال: «نعم، يوم أقامه للناس ونصّبه علماً، ودعاهم إلى ولايته، وأمرهم بطاعته». قلت: وكانت طاعة عليّ عليه السلام واجبة على الناس في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وبعد وفاته؟ فقال: «نعم، ولكنّه صمت فلم يتكلّم مع رسول الله صلى الله عليه وآله وكانت الطاعة لرسول الله صلى الله عليه وآله على أمته وعلى علي عليه السلام في حياة رسول الله، وكانت الطاعة من الله ومن رسوله على الناس كلّهم لعلي عليه السلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان عليّ عليه السلام حكيماً عالماً».

عن صفوان بن يحيى قال: قلت للرّضا عليه السلام: قد كنّا نسألك قبل أن يهب الله لك أبا جعفر عليه السلام فكنت تقول: «يهب الله لي غلاماً» فقد وهب الله لك فقرّ عيوننا، فلا أرانا الله يومك، فإن كان كونٌ فإلى من؟ فأشار بيده إلى أبي جعفر عليه السلام وهو قائمٌ بين يديه، فقلت جعلت فداك هذا ابن ثلاث سنين؟! قال: «وما يضرّه من ذلك شيءٌ، قد قام عيسى عليه السلام بالحجّة وهو ابن ثلاث سنين». أصول الكافي ١: ٣٨٢ ـ ٣٨٣، والرواية الثانية معتبرة، وتقترها الرواية الأولى عن البحار ١٤: ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

(١) راجع هامش الخصيصة الخامسة من المرحلة الأولى، كما يؤكد ذلك ـ أيضاً ـ خبر الخيراني عن أبيه الذي رواه الكليني في الكافي ١: ٣٨٤، البحار ١٤: ٢٥٦.

وقد علّمه اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ في هذه النبوة والرسالة: الكتاب، والحكمة، والتوراة، والانجيل؛ إذ تُشعر بعض الآيات الكريمة بوجود التسلسل بين هذه الأُمور في التعليم، وتذكر بهذا التسلسل في آيتين مختلفتي السياق: إحداهما تتحدّث عن المستقبل، والأُخرى تتحدّث عن الماضي:

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ﴾[1].

﴿ ... وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ... ﴾[2].

٢ ـ ويبدو من القرآن الكريم أنّ المضمون الرسالي الذي طرحه عيسى عليه السلام في رسالته ودعوته لبني إسرائيل كان بهذا التسلسل:

أ ـ الآيات والمعجزات التي كانت تثبت نبوته ورسالته وارتباطه الوثيق باللّه تعالى، مثل: خلق الطير باذن اللّه تعالى بعد أن يتخذ منه مثالاً من الطين، فينفخ فيه فيكون طيراً باذن اللّه.

وكذلك إبراء الأكمه والأبرص بإذن اللّه.

وإحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم بإذن اللّه.

وإخبار الناس بما كانوا يأكلون ويدّخرون في بيوتهم.

إلى غير ذلك من الآيات والمعجزات التي يذكر بعض تفاصيلها ما ورد في الإنجيل أو النصوص الدينية الأُخرى.

ب ـ التصديق لما جاء قبله في التوراة من شريعة وأحكام ومفاهيم وعقائد، وهذا يفسر لنا عدم تفصيل القرآن لشريعة عيسى عليه السلام، وإنّما اكتفى بالإشارة إلى

---

(١) آل عمران: ٤٨.

(٢) المائدة: ١١٠.

التوصية بالصلاة والزكاة وبر الوالدين، والجهاد في سبيل اللّه وتقوى اللّه.

ج ـ التخفيف من الإصر والأغلال والالتزامات والمحرمات التي كانت مفروضة عليهم، أمّا من قبل الشريعة السابقة، أو من قبل الأحبار الذين كانوا يفرضون الضرائب، ويلزمون بالنذور لجمع الأموال، كما تشير إليه الآيات الكريمة، وتنصّ عليه الروايات... أو غير ذلك من الفروض.

د ـ بيان الحق والحكم به فيما كانوا يختلفون فيه من الدين والشريعة؛ إذ كانوا قد تفرقوا أحزاباً وشيعاً.

هـ ـ الدعوة إلى الإخلاص في العبودية للّه تعالى وعبادته، وتنزيهها من الشرك أو عبادة الدنيا وشهواتها وزينتها، أو عبادة الأحبار والرهبان من دون اللّه، والاستماع لهم والأخذ عنهم دون اللّه تعالى.

﴿ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِي * إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾[1].

﴿ ... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي ... ﴾[2].

---

(١) آل عمران: ٤٩ ـ ٥١.

(٢) المائدة: ١١٠.

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾(١).

﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ * وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾(٢).

﴿ ... قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي * إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾(٣).

و ـ البشارة برسول يأتي من بعده اسمه (أحمد) وهو الرسول النبي الأُميّ الذي يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

وقد ورد في القرآن الكريم أنّ هذه البشارة باقية في التوراة والإنجيل المتداول بين اليهود والنصارى:

﴿ ... وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَد ... ﴾(٤).

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(٥).

---

(١) المائدة: ١١٧.

(٢) البيّنة: ٤ ـ ٥.

(٣) الزخرف: ٦٣ ـ ٦٤.

(٤) الصف: ٦.

(٥) الأعراف: ١٥٧.

وقد اختص رسول الله (محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم) بالجمع بين هذه الصفات الثلاث والأوائل، وورد ذكرها بهذه الخصوصيات في التوراة والإنجيل. كما أنّ بقيّة الصفات في دعوته ورسالته وإن كانت موجودة في الجملة وفي بعض مراتبها في الشرائع الأُخرى، ولكنّها موجودة بأعلى مراتبها وبأوسع تفاصيلها في الرسالة الخاتمة الإسلامية[1].

٣ ـ ومن أحداث هذه المرحلة ما قيل من هجرة عيسى عليه السلام على مايذكره بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[2].

---

(١) لقد وردت البشارة برسول الله صلّى الله عليه وآله في (العهد القديم) في عدّة مواضع، منها ماجاء في الباب الثامن عشر من سفر التثنية: « فقال الرب لي نعم جميع ماقالوا. وسوف أُقيم لهم (نبياً) (مثلك) من بين إخوتهم، وأجعل كلامي في فمه ويكلمهم بكلّ شيءٍ أمره به » وهذه الصفات لا تنطبق على المسيح كما حاول المسيحيون أن يفسّروها، وإنّما تنطبق على النبي محمد صلّى الله عليه وآله.

كما جاءت البشارة به في الإنجيل في عدّة مواضع خصوصاً إنجيل يوحنا، حيث عبّر عنه عدّة مرات بـ(بارقليط) ومعناه: (الذي له الحمد الكثير) وهو مطابق لـ(أحمد)، راجع قصص الأنبياء للنجار: ٥٢٢.

كما ورد تأكيد وتفصيل ذلك في روايات أهل البيت، ولا سيّما احتجاج الإمام الرضا عليه السلام الذي رواه الصدوق في عيون أخبار الرضا. والطبرسي في كتاب الاحتجاج ٢: ٤١٥، وقد تناول علماء الإسلام هذا الموضوع بالبحث كالعلّامة البلاغي (الهدى إلى دين المصطفى) والشيخ رحمة الله أفندي الهندي (اظهار الحق)، ويحسن مراجعة بشائر الأسفار بمحمّد وآله الأطهار الذي يذكر البشائر بالنبي والأئمة المعصومين.

(٢) المؤمنون: ٥٠.

حيث إنّ عيسى عليه السلام كان يرى العجائب في صباه إلهاماً من الله، فنشأ ذلك في اليهود وترعرع عيسى عليه السلام، فهمّت به بنو إسرائيل، فخافت أُمّه عليه، فأوحى الله إلى أمّه أن تنطلق به إلى أرض مصر[1].

وقيل في (الربوة): إنّها المكان التي ولد فيها المسيح عليه السلام. وقيل فيها: إنّها دمشق. وقيل: بيت المقدس، وقيل: الرملة[2].

وروى الصدوق في معاني الأخبار أن (الربوة) هي: الكوفة، و(القرار) هو: المسجد فيها، و(المعين) هو: الفرات، ولكن هذه النصوص والأقوال لا يمكن الاعتماد عليها، ولذا فلا دليل على وجود هذه الهجرة.

٤ ـ ومن أحداث هذه المرحلة هو نزول الإنجيل على عيسى عليه السلام.

وقد تحدّث القرآن الكريم في عدّة مواضع عن نزول هذا الكتاب المقدس، سواءٌ في قصّة عيسى عليه السلام أو في مواضع أُخرى حتى بلغت موارد ذكره اثني عشر مرة، وقد جاء ذكره في أكثرها مقروناً بالتوراة، وفي بعضها مقروناً بالقرآن أيضاً:

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ... ﴾[3].

﴿ ... وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾[4].

---

(١) قصص الانبياء لابن كثير: ٥٠٩ عن ابن عباس.

(٢) التبيان ٧: ٣٧٣.

(٣) آل عمران: ٣ ـ ٤.

(٤) المائدة: ٤٦.

ويظهر من القرآن الكريم: أنّ الإنجيل كانت فيه: شريعة ومنهاج وأحكام لو طبقت لتحقق العدل والخير والبركة، وشأنه في ذلك شأن نفسها، ولكنّهم حرفوه في العمل، فلم يطبّقوه، كما حرّفوه عن مواضعه في القول:

﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[١].

وفي موضع آخر يتحدث القرآن عن انحراف اليهود والنصارى، ويقول في سياق ذلك: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾[٢].

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾[٣].

ويبدو أنّ الإنجيل أُنزل على المسيح عليه السلام جملة كما أُنزل التوراة، ولكنّ القرآن الكريم لا يصرح بذلك، وإنّما تذكره بعض الروايات المروية عن أهل البيت عليهم السلام[٤]

(١) المائدة: ٤٧ ـ ٤٨.

(٢) المائدة: ٦٦.

(٣) المائدة: ٦٨.

(٤) البحار ١٤: ٢٨٤، عن الصدوق في علل الشرائع، عن يزيد بن سلام إنه سأل رسول

وتذكر أنّ وقت نزوله كان في رمضان في ثلاث عشر ليلة خلت منه أو اثني عشر ليلة[١].

وقد وردت في النصوص المروية عن أهل البيت عليهم السلام تفاصيل عن المواعظ التي تحدّث بها عيسى عليه السلام، أو تضمنها الإنجيل، كما ورد في أحاديثهم الإشارة إلى بعض تفاصيل شريعة عيسى عليه السلام، ومنها: السياحة في البلاد، وحرمة معاونة الظالمين، والقتال في سبيل الله[٢].

٥ ـ وقد كان موقف بني إسرائيل العام من عيسى عليه السلام تجاه دعوته هو: تكذيب هذه الرسالة، واتهام عيسى عليه السلام بأنّه ساحر، وبذلك يكونوا قد ارتكبوا أشدّ ألوان الظلم والعدوان.

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الإِسْلَامِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[٣].

الله عليه السلام لم سمّي الفرقان فرقاناً؟ قال: «لأنّه متفرق الآيات، والسور أُنزلت في غير الألواح وغير الصحف، والتوراة والإنجيل والزبور أُنزلت كلها جملة في الألواح والورق».

(١) المصدر السابق: ٢٨٣ عن الكافي.

(٢) فقد نقل في البحار ١٤: ٢٨٨ ـ ٢٩٩ عن الكافي وأمالي الصدوق مواعظ عديدة بإسنادها عن الصادق عليه السلام تتحدّث عن مواعظ وعظ الله بها عيسى عليه السلام. كما نقل ـ أيضاً ـ عن تحف العقول مواعظ المسيح في الإنجيل وغيره: ٣٠٤ ـ ٣١٧. وروايات أُخرى تجدها في الباب الذي كان قد عقده لهذا الموضوع.

(٣) الصف: ٦ ـ ٧.

خصائص المرحلة الثانية :

في نهاية الحديث عن المرحلة الثانية يحسن بنا أن نشير إلى خصائصها وميّزاتها وبعض الملاحظات حولها :

الأُولى : أنّ المرحلة الثانية تميّزت بكثرة المعاجز والكرامات التي أشار القرآن الكريم اليها حتى أصبحت عنواناً بارزاً في شخصية عيسى عليه السلام ، يشبه العنوان البارز الذي اتسمت به شخصية موسى عليه السلام في العصا واليد البيضاء وبقية الايات التسع .

ولاشك أنّ طبيعة المرحلة تفرض ذلك؛ من أجل إقامة الحجّة البالغة على الإسرائيليّين الذين كانوا قد تحولوا إلى مجتمع يتحكم الأحبار والرهبان في شؤونهم الدينية والاجتماعية ، بما أوتوا من هيبة وقوة دينية بسبب موقعهم الديني ومعرفتهم بالكتب السماوية . فكان عيسى عليه السلام بحاجة إلى هذه المعاجز ذات البعد النافذ والقوي؛ لإقامة الحجّة على الخاصة والتأثير على الوسط العام.

وهنا قد يثار هذا السؤال ، وهو : أنّ القرآن الكريم لماذا لم يتناول بهذا القدر من التفصيل أو أكثر منه تفاصيل الشريعة ، مع أنّ طبيعة المرحلة كانت هي مرحلة بيان الأحكام؟

والجواب عن هذا السؤال واضح عند الالتفات إلى أن عيسى عليه السلام جاء مصدقاً للتوراة ، ومؤكداً لشريعة موسى عليه السلام ، وإنّ مشكلته الرئيسة مع الإسرائيليّين لم تكن حول تفاصيل الشريعة ، بقدر ما هي مشكلة حول مهمته في تصحيح الانحراف الأخلاقي الذي كان يتصف به الأحبار من الإسرائيليّين.

الثانية : أنّ الدعوة في هذه المرحلة كانت مختصة بالإسرائيليّين ، ولذلك نلاحظ أنّ الخطاب القرآني كان موجهاً لهم بالذات كما ذكرنا سابقاً ، وهذا

الاختصاص لا يعني اختصاص الرسالة بهم، كما سوف نذكره في المرحلة الثالثة، وإنّما كان يعني: أنّ عيسى عليه السلام كان يعمل على إيجاد قاعدة في هذه المرحلة تنطلق منها الرسالة الإلهيّة إلى الناس جميعاً، كما هو الشأن فيما صنعه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن الكريم في مخاطبة أهل المدينة والعرب الجاهليين، ومواكبة حركتهم وأوضاعهم السياسية والاجتماعية؛ لغرض إيجاد هذه القاعدة على ما أوضحناه في كتاب (الهدف من نزول القرآن).

الثالثة: أنّنا ذكرنا أنّ هذه المرحلة تميّزت بنزول الإنجيل فيها، والقرآن الكريم لم يحدّد الوقت لنزول الإنجيل، ويمكن أن نفترض نزوله في المرحلة الآتية، ولكن تسلسل عرض القرآن الكريم للنعم الإلهية التي تفضل الله بها على عيسى عليه السلام ـ ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[1] ـ قد يفهم منه التسلسل الزماني لها، أو في الأقل أنّها كانت في مرحلة واحدة.

كما أن مقتضى هذه الرسالة أن تكون للناس جميعاً، وإنّ المكلف بإبلاغها لهم هو عيسى عليه السلام، فهذا يفرض أن يكون الإنجيل قد أُنزل في هذه المرحلة؛ ليقوم عيسى عليه السلام بإبلاغه للناس الذين كان يواجههم ويتحرك فيهم، وهم جماعة بني إسرائيل.

---

(١) المائدة: ١١٠.

الرابعة: أنّ هذه المرحلة اتصفت بقلة الاستجابة لعيسى عليه السلام في دعوته ورسالته، بالرغم من الحركة الواسعة التي قام بها عيسى عليه السلام في التجوال والسيح بين الناس؛ إذ كان من شريعته ذلك، كما نصت عليه بعض الروايات، وأكّدته النصوص التاريخية والإنجيلية، وكذلك رغماً على هذا القدر الواسع من الكرامات والمعجزات التي جاء بها عيسى عليه السلام.

وهذه النتيجة تؤشّر على قانون وسنة اجتماعية، وهي: أن الجماعة كلّما زاد تعقيدها العقائدي والفكري والمدني، كانت استجابتها للإصلاح الديني أقل.

وهذا ما يفسّر لنا نزول الرسالة الخاتمة في أمّة العرب الجاهليين، وتقبلهم لهذه الرسالة مع رفض اليهود والإسرائيليّون لها في الوقت نفسه.

الخامسة: أنّ القرآن الكريم لا يحدّثنا عن تفاصيل المواجهة بين عيسى عليه السلام وقومه، ولكنّه يشير إلى أنّها كانت تتسم بالشدّة والعنف، سواءٌ من خلال التكذيب له بعد مجيئه بالبيّنات والآيات، أو من خلال وصفهم بأشدّ أنواع الظلم ـ ﴿... فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلَامِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1] ـ أو من خلال وصفهم بالمكر ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[2] ـ أو من خلال ما وصفهم بنقض المواثيق بقتل الأنبياء، أو أنّهم كانوا لا يتناهون عن المنكر، وأنّهم كانوا في موضع اللعن من عيسى عليه السلام[3].

---

(١) الصف: ٦ ـ ٧.

(٢) آل عمران: ٥٤.

(٣) النساء: ١٥٥، والمائدة: ٧٨ ـ ٧٩.

المرحلة الثالثة ـ التنظيم والانتشار :

١ ـ في المرحلة السابقة عرفنا بأنّ الإسرائيليّين (بصورة عامة) لم يؤمنوا بعيسى عليه السلام، بل كذّبوه وكفروا به واتهموه بالسحر.

وبذلك عرف عيسى منهم الكفر بصورة واضحة محسوسة لا شكّ فيها ولا ريب.

فأراد عيسى عليه السلام أن يعرف من بين هؤلاء الناس من آمن به منهم على قلتهم، ويختارهم؛ لمواصلة رسالته ودعوته بطريقة أُخرى، هي: تربية هذه النخبة وإعدادهم؛ ليتمّ التركيز في العمل عليهم، وليتحملوا هذه المسؤولية معه، ويقوموا مقامه إذا ألمّت به النوائب، وتعرض إلى القتل أو الوفاة، فأطلق نداءه بين الإسرائيليّين ﴿من أنصاري إلى اللّه﴾ أي: من أنصاري في طريقي إلى اللّه تعالى.

٢ ـ وهنا كانت استجابة الحواريين[1] وإيمانهم المطلق بعيسى بعد اللّه

---

(١) والحواريون: هم خاصة الإنسان وخالصته، وأصل الكلمة: من (الحور)، وهو البياض الناصع، ويطلق (الحواريون) في اللغة على (قصاري الثياب)؛ لأنّهم يبيضونها وينظفونها من الأوساخ. وأُطلق على الخاصة من الاصحاب؛ لمكان الطهارة والصفاء والبياض في علاقتهم وإخلاصهم.

وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم خمس مرات، وفي ثلاث مواضع منه، هي: في سورة آل عمران، والمائدة، والصف. كما أنّ القرآن الكريم لم يذكر هذا الوصف في خاصة أحد من الأنبياء أو غيرهم باستثناء عيسى عليه السلام، فكان من الأوصاف الخاصة بخالصته.

وقد روى الصدوق في علل الشرائع وعيون أخبار الرضا عن علي بن الحسن بن فضال، عن أبيه قال: قلت للرضا عليه السلام: لِمَ سُمّي الحواريون الحواريين؟ قال: «أمّا عند الناس فإنّهم

ورسالته، واستعدادهم لتحمل هذه المسؤولية، فعبّروا عن ذلك:

أوّلاً: بالتعبير عن تلبية هذا النداء بالاستعداد لتحمل المسؤولية ﴿قال الحواريّون نحن أنصار الله﴾.

وثانياً: الإيمان المطلق الكامل بالله تعالى.

وثالثاً: الالتزام أمام عيسى عليه السلام والتعهد له بالتسليم لله تعالى والإيمان بوحيه والاتباع لرسوله.

ورابعاً: الطلب من الله ـ تعالى ـ أن يوفقهم ويعينهم على هذه المسؤولية: بأن يكتبهم من الشاهدين على أعمال الناس وحياتهم.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾(1).

ويشير القرآن الكريم إلى أن هذا الموقف الرسالي من الحواريين إنّما كان وحياً إلهياً لهم، ولعلّه لإخلاصهم ولبلوغهم الدرجة العالية من الإيمان والكمالات

سموا حواريين: لأنّهم كانوا قصّارين يخلّصون الثياب من الوسخ بالغسل، وهو اسم مشتق من الخبز الحواري (الذي نخل مرّة بعد أخرى)، وأمّا عندنا فسمّي الحواريون حواريين: لأنّهم كانوا مخلّصين في أنفسهم، ومخلّصين لغيرهم من أوساخ الذنوب بالوعظ والتذكير». البحار ١٤ : ٢٧٣.

ولم يحدد القرآن الكريم عددهم، ولكن ورد في بعض النصوص: أنّ عددهم اثنا عشر رجلاً، وكان أفضلهم وأعلمهم الوقا (لوقا). المصدر السابق: ٢٧٩ عن التوحيد وعيون أخبار الرضا للصدوق و(الوقا) هو المسمّى عند النصارى بـ(لوقا) وإليه يُنسب أحد الأناجيل.

(1) آل عمران: ٥٢ ـ ٥٣.

الإلهيّة. ويحتمل العلّامة الطباطبائي أن يكون هؤلاء الحواريون أنبياء[1]، على أنّ هذا الوحي يمكن أن يكون إلهاماً من قبيل ما ذكره القرآن الكريم في أم موسى عليه السلام، كما تشير إلى ذلك بعض الروايات عن أهل البيت عليهم السلام[2]:

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾[3].

٣ ـ ولا يتحدّث القرآن الكريم عمّا قام به عيسى عليه السلام تجاه الحواريين بعد انتخابهم واستجابتهم لنصرته في سبيل اللّٰه والطريق إليه، ولكن مقتضى الحال الذي تؤكّده النصوص والروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام والأناجيل المتداولة عند النصارى: أنّ عيسى عليه السلام كان يعقد (الاجتماعات) مع الحواريين، ويصحبهم في (الأسفار) و(الحركة) العامة التي كان يقوم بها؛ لتربيتهم وتزكيتهم والارتقاء بهم إلى مستوى المسؤولية التي تعهدوا بها، وكذلك تعليمهم الكتاب والحكمة والإنجيل.

ومن هنا نجد كثيراً من النصوص المروية عن أحوال عيسى عليه السلام يختص الخطاب فيها بالحواريين أنفسهم.

ولعلّ الكثير ممّا هو في الأناجيل الموجودة هو من بقايا ما تلاه عيسى عليه السلام عليهم في هذه الاجتماعات، ومن ثمّ حفظوها، وتناقلوها بينهم وإلى المؤمنين بالرسالة الجديدة، ولكنّها لم تحفظ أو تدون بشكل متقن، أو تعرضت إلى التحريف

---

(١) الميزان ٣: ٢٠٤.

(٢) البحار ١٤: ٢٧٤، عن العياشي بسنده عن أبي جعفر الباقر عليه السلام.

(٣) المائدة: ١١١.

المتعمد بعد ذلك، أو كليهما[1].

٤ ـ نعم، يذكر القرآن الكريم من شؤون عيسى عليه السلام مع الحواريين قصّة طلبهم من عيسى عليه السلام في أن يسأل اللّه ـ تعالى ـ أن ينزل عليهم مائدة من السماء؛ إذ جاء السؤال بصفة الاستفهام تأدباً منهم في الطلب، وفي سياق اختيارهم واصطفائهم بالوحي الإلهي للإيمان باللّه وبالرسول من بين بني إسرائيل، والشهادة على أنفسهم بالإيمان والتسليم، وكان التعبير بالاستطاعة، هل ﴿ **يستطيع ربك؟** ﴾ إنّما هو للسؤال عن وجود المصلحة الإلهية في ذلك، لا الشك في قدرة اللّه على ذلك.

وقد طلب منهم عيسى عليه السلام أن يتقوا اللّه في طلبهم هذا إن كانوا مؤمنين به كما يذكرون؛ حذراً ممّا قد يوهمه مثل هذا الطلب من شكّ في قدرة اللّه تعالى، أو ريب في رسالته؛ لأنّهم كانوا قد رأوا الآيات العظيمة طيلة المدة السابقة، ومنها وجوده الشريف الذي هو من أعظم الآيات، فيكون الطلب ممّن رأى هذه الآيات أشبه بما يقترحه أرباب الهوى للتفكه والأنس، أو يكون اقتراحهم آية أُخرى اختاروها لأنفسهم بعد تلك الآيات على كثرتها من قبيل اقتراح الآية بعد الآيات، فيكونوا

---

(١) وهذا يشبه ما تعرضت له (السُنّة) من أقوال النبي صلى الله عليه وآله، وفعله، وتقريره، والأئمة المعصومين عليهم السلام، مع اختلاف في أنّ الظروف التي تعرض لها عيسى عليه السلام من حادثة الصلب، والوفاة، وإيمان العدد القليل من الاشخاص، وعدم وجود أهل البيت الذين يمثلون امتداداً لرسول اللّه وغير ذلك، هذه الظروف كانت أشد أثراً في ضياع أو تحريف الإنجيل.

وبهذا نعرف أهمية الدور الذي قام به أهل البيت ـ سلام اللّه عليهم ـ في حفظ السنة الشريفة وإدامتها، وكذلك أهميته في حفظ القرآن. وسوف نتعرف على مزيد من الوضوح تجاه الأناجيل الفعلية في المرحلة الآتية من البحث.

بذلك قد ركبوا أمراً عظيماً؛ ولذلك نبههم وحذّرهم سلام الله عليه من هذا النوع من الاقتراحات بقوله: ﴿... واتَّقُوا اللَّهَ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(١).

ويجيب الحواريون بما يوجه طلبهم ويفسره، وبما يوضح قصدهم، ويدفع الاحتمالات الأُخرى فيه، فذكروا أنّ هذا الطلب لأُمور أربعة:

أ ـ الأكل من المائدة السماوية؛ إذ يكون بركة وجائزة ومفخرة لهم من بين الأُمم يختصون بها، وسبباً لليقين والاطمئنان.

ب ـ اطمئنان القلب بالإيمان به تعالى، وبرسالته، وبالعلاقة التي لهم معه سبحانه وتعالى في اختيارهم واصطفائهم؛ لتحمل المسؤوليات العظيمة وبالطريق الذي هم عليه.

ج ـ العلم اليقيني بأنّه قد صدقهم فيما بلغهم عن ربه من مسؤوليتهم واختيارهم بما يدفع خطرات القلوب ووساوس النفوس.

د ـ ان يشهدوا على هذه الآية العظيمة التي تحققت باقتراحهم، فتكون أبلغ في الإيمان والاحتجاج عند المنكرين وعند الله في يوم القيامة، ويكونوا قد شهدوها بحواسهم جميعاً، فقد رأوها بأعينهم، وسمعوا الدعاء والاستجابة بآذانهم، ولمسوها بأيديهم، وأكلوا منها واستذاقوا طعمها بأفواههم، وشمّوا رائحتها بأُنوفهم.

ولما فسّر الحواريون طلبهم سأل عيسى ربه أن يكرمهم بها، ويجعل نزولها عيداً لأولهم وآخرهم، وجائزة ومفخرة وكرامة لهذه الأُمّة من الحواريين، أو من يلحق بهم من الناس، ويختصون بها من بين الناس جميعاً.

كما طلب عيسى عليه السلام من الله في الوقت نفسه أن يجعلها آية أُخرى على

---

(١) المائدة: ٥٧.

رسالته، والمهمة الجديدة التي يراد للحواريين أن يقوموا بها، وأن يرزقهم اللّٰه من فضله. وهو خير الرازقين.

وقد استجاب اللّٰه ـ تعالى ـ لعيسى عليه السلام دعاءه ومسألته، ووعد سبحانه بإنزالها مؤكداً ذلك، واللّٰه لا يخلف وعده. فأنزلها عليهم سبحانه، وقرن هذه الاستجابة بإنذار شديد يعبّر عن سنة إلهيّة في العدل والحكمة، وهو: أنّ اختصاصهم بهذه الكرامة يجعلهم أمام مسؤولية تتناسب مع هذه الكرامة والاختصاص، وهذا الإنذار هو: أنّ الكفر بهذه الآية بعد نزولها يؤدي إلى عذاب إلهي لا يماثله عذاب أحد من العالمين[1].

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ * إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾[2].

٥ ـ وتذكر بعض الروايات عن أهل البيت: أنّ عيسى عليه السلام قام بإرسال بعض

---

(١) يحسن هنا مراجعة بحث العلّامة الطباطبائي في الميزان ٦: ٢٢٧ ـ ٢٣٨ حيث تثار أسئلة وإشكالات وتذكر احتمالات عديدة، وقد اخترنا منها ما يوافق ظهور الآيات أو ينسجم مع ظهورها من الاحتمالات.

(٢) المائدة: ١١١ ـ ١١٥.

الحواريين إلى بعض الأقطار كأنطاكية؛ لدعوة الناس إلى الله تعالى وإبلاغ الرسالة الإلهية، وإنّ القرآن الكريم في سورة (يس) عندما تحدّث عن إرسال الله ـ تعالى ـ الرسل إلى القرية أراد بهم الحواريين ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾[1]، كما أنّ بعض هذه الروايات تتحدّث عن هذا الإرسال دون ربط لذلك بهذه الآيات الكريمة[2].

٦ ـ ثمّ إنّ الكافرين من بني إسرائيل لمّا كذّبوا عيسى عليه السلام أخذوا يتآمرون عليه وعلى إيذائه وقتله، ويمكرون به، ويحرّضون عليه الحكام والسلاطين، فكان أن أعد عيسى نفسه للوفاة والقتل، ولكن الله ـ تعالى ـ كفّ عنه أذى بني إسرائيل ومكرهم بعد أن كانوا قد مكروا بعيسى عليه السلام.

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[3].

وقد أوصى عيسى عليه السلام ـ كما تذكر بعض الروايات[4] ـ إلى شمعون الصفا، بأن يتحمل مسؤولية الرسالة وإبلاغها من بعده، وسلّمه الإنجيل من أجل ذلك.

خصائص المرحلة الثالثة:

في نهاية الحديث عن المرحلة الثالثة يحسن بنا ـ أيضاً ـ أن نشير إلى بعض خصائصها المهمة وبعض الملاحظات حولها:

---

(١) يس: ١٣ ـ ١٤.

(٢) راجع مجمع البيان ٤: ٤١٨ ـ ٤٢٠، وكذلك البحار ١٤: ٢٥٢ و٢٥٦ ـ ٢٦٧.

(٣) آل عمران: ٥٤.

(٤) البحار ١٤: ٢٥ عن إكمال الدين للصدوق.

الأُولى : أنّ هذه المرحلة تميّزت بظاهرة الحواريين، هذه الظاهرة التي لم يذكر القرآن الكريم لها مثيلاً في الأنبياء السابقين كما أشرنا، ومن هنا فإنّ هذه الظاهرة تستحق الدراسة والوقوف عندها؛ لمعرفة دور الحواريين هؤلاء، وللمقارنة بينها وبين نظائرها في التاريخ الإسلامي.

وهذا البحث وإن كان يخرج بنا عن إطار الاختصار فيه. ولكن يحسن أن نشير إلى رواية معتبرة رواها الكليني في الكافي، يعقد فيها الإمام الصادق عليه السلام المقارنة بين خاصتهم من شيعتهم والحواريين، ويشخّص طبيعة الدور الرسالي الذي قام به حواري عيسى عليه السلام.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ حواريّ عيسى عليه السلام كانوا (شيعته)، وإنّ شيعتنا حواريونا، وما كان حواري عيسى عليه السلام بأطوع له من حوارينا لنا، وإنّما قال عيسى عليه السلام للحواريين: ﴿... مَنْ أَنْصَارِي إِلَىٰ اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ ...﴾[1]، فلا والله ما نصروه من اليهود ولا قاتلوهم دونه، وشيعتنا والله لا يزالون منذ قبض الله ـ عزّ ذكره ـ رسول صلى الله عليه وآله وسلم ينصرونا، ويقاتلون دوننا، ويحرقون، ويعذبون، ويشرّدون في البلدان، جزاهم الله عنّا خيراً».

وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «والله لو ضربت خيشوم محبينا بالسيف ما أبغضونا، والله لو أدنيت إلى مبغضنا وحثوت لهم من المال ما أحبونا»[2].

الثانية : ذكرنا في النقطة الرابعة أنّ عيسى عليه السلام قد قام بإرسال بعض

---

(١) الصف: ١٤.

(٢) الكافي ٨: ٢٦٨، ح ٣٩٦.

الحواريين إلى مناطق خارج المنطقة التي يسكنها الإسرائيليّون، الأمر الذي يعني: أنّ دعوة عيسى عليه السلام لم تكن خاصة بالإسرائيليين. ولكن هذا الأمر لم يذكر في القران الكريم صراحة، وإنّما جاء ذكره في بعض الروايات تفسيراً لآيات سورة (يس).

ومع قطع النظر عن هذه الروايات، فهل هناك ما يدل على عموم رسالة عيسى عليه السلام؟

قد يقال: إنّ رسالة عيسى عليه السلام كانت خاصة ببني اسرائيل؛ لما ذكره القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿ وَرَسُولاً اِلىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ... ﴾(١).

كما أنّه قد تكرّرت مخاطبته لخصوص بني إسرائيل كما في سورة الصف، كما ذكرنا سابقاً.

ويؤكّد ذلك ـ أيضاً ـ ما ورد في بعض الروايات من اختصاص رسالة عيسى بخصوص بني إسرائيل(٢).

ولكن الصحيح: أنّ رسالة عيسى عليه السلام كانت عامة؛ لوجود قرائن على ذلك، سواءً في القرآن الكريم أو غيره:

الأولى: ما ورد من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ ... ﴾(٣).

---

(١) آل عمران: ٤٩.

(٢) البحار ١٤: ٢٥٠، عن إكمال الدين للصدوق.

(٣) المائدة: ١١٦.

نجد أنّ الخطاب والحديث عن الناس جميعاً كان هنا عامّاً وشاملاً لجميع الناس، وليس لبني إسرائيل.

الثانية: الآيات التي تتحدث عن عيسى عليه السلام في سياق أُولي العزم، وهم رسل اللّه ـ تعالىٰ ـ إلىٰ الناس جميعاً.

الثالثة: ما ذكره القرآن في أكثر من موضع: من أنّ عيسى جاء مصدّقاً للتوراة، ورسالة موسى عليه السلام كانت رسالة عامة لجميع الناس. كما ذكرنا ذلك في قصّة موسى عليه السلام.

الرابعة: الواقع التاريخي لرسالة عيسى عليه السلام وعدم اقتصارها على الإسرائيليين أنفسهم، بل شملت شعوباً كثيرة أُخرى.

ولذا فتكون الرواية عن إكمال الدين مردودة؛ لمخالفتها للقرآن، أو مؤوّلة بأنّ عيسى عليه السلام كانت دعوته في حياته قد اختصّت ببني إسرائيل خارجاً، ولم تتسع في زمانه لغيرهم، كما هو الحال بالنسبة إلى نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم التي شملت غير العرب من الأقوام.

الثالثة: أنّ هذه المرحلة اختصّت بمعجزة استثنائية لعيسى عليه السلام، وهي: نزول المائدة التي كانت تختلف عن المعاجز الأُخرى التي كانت تتحقق لعيسى في المرحلة السابقة: من حيث شكلها ومضمونها، وكذلك من حيث إنّها كانت بطلب من الخاصة الذين اصطفاهم الله ـ تعالى ـ لهذه المهمة، وهم الحواريون، ومن حيث هدفها الرسالي الذي أشرنا إليه في الحديث عنها.

ولا يبعد ـ والله أعلم ـ أن تكون هذه المعجزة والآية الإلهية هي كالشاهد والدليل الذي يؤكّد الميثاق الذي أخذه الله ـ تعالى ـ من الحواريّين على أن يقوموا بمسؤوليتهم. فيكون شبيهاً بما أشار إليه القرآن الكريم من رفع الطور عند أخذه

للميثاق من تقبله بني إسرائيل الاثنى عشر.

كما ورد في سورة النساء من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي ...﴾[1].

حيث جاء من سياقها قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[2].

ولا يبعد أن يكون الميثاق الذي أُخذ من النقباء هو الميثاق الذي أُخذ مع رفع الطور الذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[3].

والله أعلم بحقائق الأمور.

الرابعة: أنّ عيسى عليه السلام قد اختصّ الحواريين في هذه المرحلة: بالتعليم، والتربية، والصحبة في الحل والترحال، كما تؤكّد ذلك الروايات والنصوص التاريخية، واقترن ذلك بمجموع من النصائح والمواعظ الأخلاقية المهمة، بحسن الإشارة إلى بعضها كما وردت في تراث أهل البيت عليهم السلام، وهي مواعظ تنفع الخاصة من أهل العلم:

١ ـ عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال الحواريّون

---

(١) المائدة: ١٢.

(٢) المائدة: ١٤.

(٣) البقرة: ٦٣.

لعيسى بن مريم عليهما السلام : يا معلّم الخير علّمنا أيّ الأشياء أشدّ؟ فقال : أشدّ الأشياء غضب الله عزّ وجل، قالوا : فبم يتّقى غضب الله ؟ قال : بأن لا تغضبوا، قالوا : وما بدء الغضب؟ قال : الكبر، والتجبّر، ومحقرة الناس »[١].

٢ ـ ابن الوليد، عن ابن أبان، عن الحسين بن سعيد، عن الحسن بن علي الخزّاز قال : سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول : «قال عيسى بن مريم عليهما السلام : يا بني إسرائيل لا تأسوا على مافاتكم من دنياكم إذا سلم دينكم، كما لا يأسى أهل الدنيا على مافاتهم من دينهم إذا سلمت دنياهم »[٢].

٣ ـ أحمد بن الوليد، عن أبيه، عن الصفار، عن ابن المعروف، عن ابن مهزيار، عن رجل، عن واصل بن سليمان، عن ابن سنان قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : «كان المسيح عليه السلام يقول لأصحابه : إن كنتم أحبّائي وإخواني فوطّنوا أنفسكم على العداوة والبغضاء من الناس، فإن لم تفعلوا فلستم بإخواني، إنّما أُعلّمكم لتعملوا، ولا أُعلّمكم لتعجبوا، إنّكم لن تنالوا ما تريدون إلّا بترك ما تشتهون، وبصبركم على ما تكرهون، وإيّاكم والنظرة فإنّها تزرع في قلب صاحبها الشهوة، وكفى بها لصاحبها فتنة »[٣].

٤ ـ وكان عليه السلام يقول : « يا معشر الحواريين تحبّبوا إلى الله ببغض أهل المعاصي، وتقرّبوا إلى الله بالتباعد منهم، والتمسوا رضاه بسخطهم »[٤].

---

(١) الخصال ١ : ٨، ح ١٧.

(٢) أمالي الصدوق : ٥٨٥، ح ٨٠٥، والحديث معتبر. ط. مؤسسة البعثة.

(٣) البحار ١٤ : ٣٢٤، ح ٣٨.

(٤) البحار ١٤ : ٣٣٠، ح ٦٥.

٥ ـ عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد البرقي، عن شريف بن سابق، عن الفضل بن أبي قرّة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قالت الحواريّون لعيسى: يا روح الله من نجالس؟ قال: من يذكّركم الله رؤيته، ويزيد في علمكم منطقه، ويرغّبكم في الآخرة عمله»[1].

المرحلة الرابعة ـ الوفاة والاختلاف:

الوفاة والرفع:

١ ـ بعد أن تآمر الإسرائيليون على عيسى عليه السلام ومكروا به، اقتضت العناية الإلهية أن يرفع الله أذى الإسرائيليين عنه، ويرد مكرهم إلى نحورهم؛ لأنّهم كانوا يريدون قتله، وتحقيره، وتوهينه من خلال تعذيبه وصلبه، شبهه الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليهم، ثمّ توفاه ورفعه إليه، فقتلوا شبيهه، وصلبوه ظناً منهم أنّه عيسى عليه السلام.

وتذكر بعض الروايات[2]، أنّ الشخص الذي اشتبه به، وقتل وصلب عن عيسى عليه السلام كان هو (هوذا) الذي كان قد فدى نفسه لعيسى عليه السلام، فأُخذ وقتل، ويذهب بعض المفسرين إلى أنّ المقتول هو الذي وشى بعيسى لدى الرومان، وحرّضهم عليه[3]. وهذا التفسير يتناسب مع ما ورد في بعض الأناجيل[4].

---

(١) الكافي ١: ٣٩، ح ٣.

(٢) يأتي نص الرواية في هامش النقطة الثالثة.

(٣) مجمع البيان ٢: ١٣٦، عن السدي وبعث النصارى.

(٤) ذكرت الأناجيل: أنّ تلميذ المسيح يهوذا الأسخرلوطي هو الذي شبه بالمسيح، وإنّه كان قد

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ... ﴾[1].

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً * بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾[2].

ولم ينسب الرفع في القرآن الكريم إلى نبي من الأنبياء غير عيسى عليه السلام، وعندما نسب إلى إدريس عليه السلام فإنّه خصص بالمكان أيضاً. على أنّ إدريس عليه السلام يقال فيه: إنّه رفع إلى السماء أيضاً، والله أعلم.

الصراع والمواجهة:

٢ ـ وقد كانت هذه الحادثة وهي: محاولة قتل المسيح وصلبه والتشبيه فيه سبباً في حدوث المواجهة والصراع والمطاردة بين الإسرائيليين من المؤمنين بعيسى عليه السلام من جهة، والكافرين به الذين كانوا يلقون دعماً وإسناداً من الحكام الظالمين من جهة أُخرى.

ولا يحدّثنا القرآن الكريم عن تفاصيل هذه المواجهة وأحداثها ولو على نحو الاختصار، وإنّما يحدّثنا عنها وعن نتائجها تارة بلسان الوعد الإلهي بتحقّق الغلبة للمؤمنين برسالته وتمكنهم من الكافرين إلى يوم القيامة، وأُخرى بلسان الاخبار عن تأييد الله ـ تعالى ـ للمؤمنين في معركتهم مع الكافرين بحيث تحقّق لهم النصر والتسلّط على الكافرين.

خان المسيح، فأُخذ وصلب وقتل.

(١) آل عمران: ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) النساء: ١٥٧ ـ ١٥٨.

﴿... وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾[2].

الاختلاف في عيسى عليه السلام:

٣ ـ كما أنّ الرفع والصلب كان سبباً لوقوع الاختلاف بين الإسرائيليين، سواءٌ الكافرون منهم أو المؤمنون؛ إذ كان الكافرون يدّعون قتل المسيح وصلبه، ووافقهم على ذلك جماعة من المسيحيين؛ إذ كان قد شبّه لهم أمره، وكذلك بعض المتأخرين منهم زمناً عن هذه الحادثة؛ لأنّهم لم يعيشوا ظروفها، واستقروا فيها على النقل الذي تعرّض إلى التحريف، أو كان يعتمد على ظاهر الأمور، وهم عامة المسيحيين واليهود في نزول القرآن الكريم وإلى يومنا الحاضر[3].

---

(١) آل عمران: ٥٥ ـ ٥٧.

(٢) الصف: ١٤.

(٣) فقد روى الصدوق في إكمال الدين عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنّ في القائم من أهل بيت محمّد صلى الله عليه وآله شبهاً من خمسة من الرسل ـ وساق الحديث إلى أن قال ـ وأمّا شبهه من عيسى عليه السلام فاختلاف من اختلف فيه: قالت طائفة منهم: ما ولد، وقالت طائفة: مات، وطائفة قالت: قتل وصلب». البحار ١٤: ٣٣٩، ح ١٣.

﴿... وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ...﴾[1]، ولكن جماعة أُخرى منهم كانوا قد عرفوا الحقيقة بطبيعة الحال، ولا سيّما الحواريين منهم الذين أخبرهم عيسى عليه السلام بذلك، على ما تشير إليه بعض النصوص والروايات وتقتضيه طبيعة الأشياء[2].

وتطوّر هذا الاختلاف، فكان سبباً ومجالاً للتحريف في العقيدة، والغلوّ في

---

(١) النساء : ١٥٧.

(٢) فقد ورد في تفسير علي بن ابراهيم القمي بسند صحيح عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ...﴾، حدثني أبي، عن ابن أبي عمير، عن أبي جعفر عليه السلام قال : «إنّ عيسى عليه السلام وعد أصحابه ليلة رفعه الله إليه، فاجتمعوا إليه عند المساء، وهم اثنا عشر رجلاً، فأدخلهم بيتاً، ثمّ خرج عليهم من عين في زاوية البيت وهو ينفض رأسه من الماء، فقال : إنّ الله أوحى إليّ أنّه رافعي إليه الساعة ومطهّري من اليهود، فأيّكم يلقى عليه شبحي فيقتل ويصلب، ويكون معي في درجتي ؟ فقال شاب منهم : أنا يا روح الله، قال : فأنت هوذا، فقال لهم عيسى : أمّا إنّ منكم لمن يكفر بي قبل أن يصبح اثنتي عشرة كفرة، فقال له رجل منهم : أنا هو يا نبي الله ؟ فقال له عيسى : أتحس بذلك في نفسك ؟ فلتكن هو، ثمّ قال لهم عيسى عليه السلام : أما إنّكم ستفترقون بعدي على ثلاث فرق : فرقتين مفتريتين على الله في النار، وفرقة تتبع شمعون صادقة على الله في الجنة. ثمّ رفع الله عيسى إليه من زاوية البيت وهم ينظرون إليه».

ثمّ قال أبو جعفر عليه السلام : «إنّ اليهود جاءت في طلب عيسى من ليلتهم، فأخذوا الرجل الذي قال له عيسى عليه السلام : إنّ منكم لمن يكفر بي قبل أن يصبح اثنتي عشرة كفرة، وأخذوا الشابّ الّذي أُلقي عليه شبح عيسى فقتل وصلب، وكفر الّذي قال له عيسى : تكفر قبل أن تصبح اثنتي عشرة كفرة». تفسير القمي ١ : ١٠٣.

شخصية عيسى عليه السلام؛ إذ حاول بعض المسيحيّين الغلاة والمنحرفين أن يهربوا من الآثار السلبية الاجتماعية والنفسية للقتل والصلب: بأن يدّعوا أنّ المسيح هو الله الذي حل في روح القدس فجاء مريم عليها السلام فحملته ثمّ تحول إلى صورة بشر، وهو عيسى المسيح؛ ليفدي البشرية من خطيئتها بتعرضه للقتل والصلب والعذاب والآلام البدنية والروحية، ثمّ ليرتفع مرة أُخرى إلى السماء ومحلّه الأول، ويرجع إلى حاله الأُولى. فكانت عقيدة التثليث.

وبذلك حاولوا ـ أيضاً ـ أن يفسروا ولادة المسيح بدون أب؛ إذ وصفوا المسيح بالأُلوهية والربوبية، وأخرجوه من الإنسانية، فهو غير بشر؛ لذا كانت ولادته استثنائية.

وإلى هذا الاختلاف يشير القرآن الكريم بعد ذكر ولادة عيسى عليه السلام في سورة مريم بقوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1].

كما تشير إليه الآية (٦٥) من سورة الزخرف:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى

---

(١) مريم: ٣٧.

يُؤْفَكُونَ * قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾(١).

﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾(٢).

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(٣).

---

(١) المائدة: ٧٢ ـ ٧٧.

(٢) المائدة: ١١٦ ـ ١١٩.

(٣) آل عمران: ٥٩ ـ ٦٢.

الرهبانية وعبادة الرهبان:

٤ـ إنّ المسيحيين اختلفوا بعد ذلك في مجال السلوك الاجتماعي والأخلاقي؛ إذ أشار القرآن الكريم إلى نوعين من هذا الاختلاف:

الأوّل: هو الاختلاف في الرهبانية التي كتبها الله ـ تعالى ـ عليهم: من الزهد في الدنيا، والإعراض عن زخارفها وشهواتها المحرمة إلى الابتداع فيها؛ إذ تحوّلت إلى الانعزال عن المجتمع الإنساني، والتخلي عن المسؤوليات، وتحريم ما أحل الله ـ تعالى ـ من الزواج والمعاشرة.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ وَ جَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[1].

---

(١) الحديد: ٢٧. ورد في تفسير هذه الآية الكريمة عن ابن مسعود قال: كنت رديف رسول الله ﷺ على حمار، فقال: «يا ابن أمّ عبد هل تدري من أين أحدثت بنو إسرائيل الرهبانية؟» فقلت: الله ورسوله أعلم فقال: «ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بمعاصي الله، فغضب أهل الإيمان، فقاتلوهم، فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات، فلم يبق منهم إلّا القليل فقالوا: إن ظهرنا لهؤلاء أفنونا، ولم يبق للدين أحد يدعو إليه، فتعالوا نتفرق في الأرض إلى أن يبعث الله النبي الذي وعدنا به عيسى عليه السلام، يعنون محمداً ﷺ، فتفرقوا في غيران الجبال، وأحدثوا رهبانية، فمنهم من تمسك بدينه، ومنهم من كفر» ثم تلا هذه الآية: ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم﴾ إلى آخرها، ثمّ قال: «يا ابن أمّ عبد أتدري ما رهبانية أمّتي؟» قلت: الله ورسوله أعلم قال: «الهجرة، والجهاد، والصلاة، والصوم، والحج، والعمرة». مجمع البيان ٥: ٢٤٣.

الثاني: في اتخاذهم الرهبان أربابا من دون الله، يقدسونهم، ويبذلون لهم الأموال، ويعتقدون فيهم أنّهم يعاقبون ويثيبون، وأنّه لا يغفر لهم إلّا بواسطتهم، وبذلك تأثروا بسلوك الأحبار المنحرفين من اليهود، والقياصرة من ملوك الرومان.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ ... ﴾[١].

وفي بيان قصّة عيسى عليه السلام من آل عمران:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[٢].

---

(١) التوبة: ٣٤.

(٢) آل عمران: ٦٤. جاءت هذه الآية في سياق آية المباهلة، وهي قوله تعالى: ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندعو أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكافرين ﴾، وقد ورد في تفسير هذه الآية: أنّها {قيل نزلت الآيات في وفد نجران: العاقب، والسيد، ومن معهما، قالوا لرسول الله: هل رأيت ولداً من غير ذكر؟ فنزل ﴿ إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم ... ﴾ الآيات، فقرأها عليهم. عن ابن عباس وقتادة والحسن، فلمّا دعاهم رسول الله إلى المباهلة استنظروه إلى صبيحة غد من يومهم ذلك، فلمّا رجعوا إلى رحالهم قال لهم الأسقف: انظروا محمّداً في غد، فإن غدا بولده وأهله فاحذروا مباهلته، وإن غدا بأصحابه فباهلوه، فإنّه على غير شيء، فلمّا كان الغد جاء النبي صلى الله عليه وآله آخذاً بيد علي بن أبي طالب عليه السلام، والحسن عليه السلام والحسين عليه السلام بين يديه يمشيان، وفاطمة عليها السلام تمشي خلفه، وخرج النصارى يقدمهم أسقفهم، فلمّا رأى النبي صلى الله عليه وآله قد أقبل بمن معه سأل عنهم، فقيل له: هذا ابن عمه، وزوج ابنته، وأحب الخلق إليه، وهذان ابنا بنته من

تحريف الإنجيل :

٥ ـ وقد كان السبب في هذه الاختلافات وغيرها ضياع الإنجيل أو تحريفه ـ في اللفظ أو التطبيق والعمل ـ من قبل بعض الإسرائيليين الذين آمنوا بالمسيحية،

علي ﷺ، وهذه الجارية بنته فاطمة أعز الناس عليه، وأقربهم إلى قلبه، وتقدّم رسول الله فجثا على ركبتيه، قال أبو حارثة الأسقف: جثى والله كما جثا الأنبياء للمباهلة. فكعّ ولم يقدم على المباهلة، فقال السيد: ادن يا أبا حارثة للمباهلة، فقال: لا، إنّي لأرى رجلاً جريئاً على المباهلة، وأنا أخاف أن يكون صادقاً، ولئن كان صادقاً لم يحُل ـ والله ـ علينا الحول وفي الدنيا نصراني يطعم الماء. فقال الأسقف: يا أبا القاسم إنّا لا نباهلك، ولكن نصالحك. فصالحنا على ما ينهض به. فصالحهم رسول الله ﷺ على ألفي حلة من حلل الأواقي، قيمة كل حلة أربعون درهماً، فما زاد أو نقص فعلى حساب ذلك، وعلى عارية: ثلاثين درعاً، وثلاثين رمحاً، وثلاثين فرساً، إن كان باليمن كيد، ورسول الله ضامن حتى يؤدّيها، وكتب لهم بذلك كتاباً. وروي أن الأسقف قال لهم: إنّي لأرى وجوهاً لو سألوا الله يزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تبتهلوا فتهلكوا، ولا يبق على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة. وقال النبي: «والذي نفسي بيده لو لا عنوني لمسخوا قردة وخنازير، ولا ضطرم الوادي عليهم ناراً». ولمّا حال الحول على النصارى حتى يهلكوا كلّهم قالوا: فلمّا رجع وفد نجران لم يلبث السيد والعاقب ألّا يسيرا حتى رجعا إلى النبي، وأهدى العاقب له: حلة، وعصاً، وقدحاً، ونعلين وأسلما. مجمع البيان ١: ٤٥١ ـ ٤٥٢.

وفي ختام حديث القرآن عن النصارى وأهل الكتاب من هذه السورة والآية يذكر القرآن الكريم المؤمن منهم بقوله تعالى: ﴿ليسوا سواءً مّن أهل الكتاب أمّة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصّالحين * وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتّقين﴾. آل عمران: ١١٣ ـ ١١٥.

أو أظهروا الإيمان بها في عصر متأخّر عن وفاة المسيح ورفعه.

والقرآن الكريم وإن كان لا يحدّثنا عن زمان وظروف تحريف الإنجيل، ولكنّه يحدّثنا عن هذا التحريف في عدّة مواضع:

منها: ما يذكره من معلومات دقيقة يختلف فيها عن الإنجيل مثل: ولادة عيسى عليه السلام وبشريّته، وقضية وفاته ورفعه، إلى غير ذلك من النقاط التي أشرنا إلى بعضها في سرد القصّة.

ومنها: ما أشار إليه القرآن الكريم: من عدم التزامهم بتطبيق التوراة والإنجيل في مقام العمل، وتحريفه في الالتزام والسلوك:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾(١).

ومنها: ما أشار إليه القرآن الكريم في سياق الحديث عن اليهود والنصارى: من تحريفهم للكتاب بتفسيره وتأويله بالرأي والهوى، والأغراض الخاصة، أو نسبته إلى الله كذباً وزوراً.

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(٢).

مضافاً إلى ذلك كلّه أنّ واقع الأناجيل الفعلية هو أفضل شاهد على هذا

---

(١) المائدة: ٦٨.

(٢) آل عمران: ٧٨.

الضياع والتحريف، وهذا ما سوف نشير إليه في خصائص هذه المرحلة.

خصائص المرحلة الرابعة:

في ختام الحديث عن هذه المرحلة يحسن بنا أن نشير إلى خصائصها وبعض الملاحظات عليها:

الأولى: أنّ الوفاة والرفع لعيسى عليه السلام كان من خصائص هذه المرحلة، ولكن هل كانت الوفاة حسب السنّة العامة الجارية في الناس عندما يتوفّاهم الله تعالى ـ ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] ـ ثم كان الرفع بعد الوفاة، فيكون رفعاً معنوياً في مقابل الأذى والإهانة التي كان يريد أن يلحقها بعيسى عليه السلام الكافرون؟ أو كانت الوفاة هنا وفاة خاصة بعيسى عليه السلام تميّز بها (سلام الله عليه) من سائر الأنبياء والناس، كما تميّز بولادته، وإنّ الرفع كان حقيقياً، كما رفع الله ـ سبحانه ـ نبيه محمّد صلى الله عليه وآله وسلم بصورة مؤقتة في الإسراء والمعراج؟

هنا يوجد احتمالان، وحديث واسع للمفسرين أشار إلى جانب منه الشيخ الطبرسي في مجمع البيان[2].

ولا شكّ أنّ ظاهر الآيات الكريمة وسياقها: أنّ الوفاة والرفع كان امتيازين خاصين بعيسى عليه السلام، استحقا خطاباً خاصاً ونعمة إلهيّة متميّزة، ولذا فهو رفع مادي

---

(١) الزمر: ٤٢.

(٢) مجمع البيان ٢: ١٣٥ ـ ١٣٧، وكذلك النجار في قصص الأنبياء: ٥٦٦ ـ ٥٦٩ حيث ذكر الاحتمالات العديدة، واختار الوفاة العادية والرفع المادي، ونسبه إلى محمّد عبده.

لعيسى بجسمه. ولذا اختص نسبة الرفع إلى اللّه ـ تعالى ـ في القران الكريم بعيسى عليه السلام.

وهذا مافهمه عامة المفسرين والمخاطبين في القرآن الكريم، وإن كان بعضهم ولاسيّما المتأخرين يحاول أن يحتمل فيه احتمالات أُخرى[1].

وتؤكّد هذا الفهم للرفع الروايات التي وردت في شرح هذا الموضوع[2].

الثانية: أنّ هذه المرحلة كانت تتسم بالصراع والمواجهة بين الإسرائيليين أنفسهم بشأن عيسى عليه السلام، فهل كان هذا الصراع بجرّد صراع سياسي، ومن ثمّ غلبةً وعلواً في الأوضاع السياسية والاجتماعية للمؤمنين على الكافرين بعيسى أو أنّه كان صراعاً دموياً ـ أيضاً ـ فيه قتال واستخدام للسلاح؟

ويبدو من سياق الآية الكريمة في سورة (الصف) التي تحدّثت عن هذا الصراع ـ أيضاً ـ أنّ هذا الصراع كان فيه قتال وجهاد بالنفس؛ وذلك لأنّ الآيات التي سبقتها تحدّثت عن دعوة المؤمنين إلى الجهاد بالنفس والمال، كما تحدّثت عن

---

(١) راجع الميزان ٥: ١٦٩ ـ ١٧٠.

(٢) روى الصدوق في عيون الاخبار، عن الرضا عليه السلام: أنّه قال في حديث طويل في وصف الأئمة عليهم السلام «... وإنّهم يُقتلون بالسيف أو بالسمّ» وساق الحديث إلى أن قال عليه السلام: «ما شبّه أمر أحد من أنبياء الله وحججه عليهم السلام للناس إلّا أمر عيسى بن مريم وحده؛ لأنّه رفع من الأرض حيّاً، وقبض روحه بين السماء والأرض، ثمّ رفع إلى السماء وردّ عليه روحه، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفّيك ورافعك إليّ ومطهّرك من الّذين كفروا﴾، وقال عزّ وجلّ حكاية لقول عيسى عليه السلام: ﴿وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلمّا توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾» الخبر. البحار ١٤: ٣٣٨، ح ١١.

النصر والفتح في هذا الجهاد، وجاء الحديث عن الصراع الإسرائيلي كمصداق ومثلٍ لتوضيح نتيجة هذا الصراع مع الكافرين في أمة محمّد ﷺ، كما أنّ طبيعة الأشياء تقتضي أن يكون هذا الصراع متسماً بالقتال وبذل النفس.

ويؤيد ذلك ماورد في تفسير هذه الآية عن علي بن إبراهيم القمّي الذي نصّ على حدوث القتال بين الإسرائيليين[1].

وهذا الظهور القرآني الذي تؤيده الروايات يدل على مشروعية القتال في شريعة عيسى عليه السلام، على خلاف مايفهم من الإنجيل الموجود فعلاً من التسليم للطغاة وعدم التصدي لهم، فيكون ذلك أحد موارد التحريف.

الثالثة: ومن خصائص هذه المرحلة هي: وقوع حادثة محاولة قتل المسيح عليه السلام، ونلاحظ هنا: أنّ القرآن الكريم الذي أكّد في جانب من القصة بشرية عيسى عليه السلام نزّهه عن القتل والصلب والتعرض لإهانة الصلب من خلال ما ذكره من حقيقة الرفع إلى الله تعالى، وهو مقام قدسيّ اختصّ به المسيح من بين الأنبياء.

وهذا بخلاف عقيدة النصارى فيه التي أعطته صفة الربوبية والاُلوهية، ولكنّها

---

(١) (﴿ يا أيّها الّذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريّين من أنصاري إلى الله قال الحواريّون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة ﴾ قال: الّتي كفرت هي الّتي قتلت شبيه عيسى وصلبته، والّتي آمنت هي الّتي قبلت شبيه عيسى حتّى يقتل ﴿ فأيّدنا الّذين آمنوا ﴾ هي الّتي لم تقتل شبيه عيسى على الاُخرى، فقتلوهم ﴿ على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين ﴾)، البحار ١٤: ٣٤٥ عن تفسير علي بن إبراهيم، ح ٧. ويؤيده ما ورد في البحار ١٤: ٣٤٥ عن إكمال الدين، ح ١، من مجاهدة شمعون الصفا للكفار، وما ورد في المصدر السابق: ٢٧٩، ح ١١، عن مقاتلة الكفار لعيسى عليه السلام في تكريت، إلّا أنّ هذه الرواية تذكر القتال في أيام عيسى عليه السلام، أي: في المرحلة السابقة.

في الوقت نفسه لم تنزهه من هذه الإهانة والإذلال التي هي شأن الجناة والمشعوذين.

وهنا يبدو واضحاً الرؤية (الوسطية) و(المتزنة) في العقيدة الإسلامية، على خلاف الإفراط في الغلو عند النصارى، والتفريط في عقيدة اليهود فيه.

ومن هنا نجد النصارى يتورطون في قبول الصلب والقتل، فيدّعون خروجه من قبره وارتفاعه إلى السماء بعد ذلك، ليتستروا على المدلول السلبي للصلب.

الرابعة: أنّ القرآن الكريم كان قد نزّه المسيح من الصلب، واليهود والنصارى ألصقوها به ـ كما عرفنا ـ ولكنّ النصارى لم يكتفوا بذلك حتى حوّلوا قضية الصلب إلى فكرة عقائدية أساسية في العقيدة النصرانية؛ إمعاناً منهم في الغلوّ وتبريراً غير منطقي لوقوع هذه الحادثة المشينة للمسيح، حيث لم يعرف تاريخ الأنبياء المنظور أن تعرّض أحدهم إلى هذا النوع من الإذلال والامتهان والإهانة[1]. فمن أين جاء النصارى بهذه العقيدة؟ وهل هي اختراع منهم أو أنّهم أخذوها من غيرهم؟ ليبرروا بها هذه الحادثة المزوّرة.

وقد ذكر (السيد رشيد رضا) وغيره من الباحثين عن علماء تاريخ الأديان والآثار: أنّ هذه العقيدة قد أُخذت بتفاصيلها عن الوثنيين الهنود، وعن البوذيين بصورة أدق. وهو ممّا يدل على تأثر المسيحية الموجودة بالوثنية[2].

الخامسة: أنّ هذه المرحلة اتصفت بوضع الأناجيل فيها. وهناك قرائن عديدة واضحة على تحريف هذه الأناجيل أو وضعها بمجرد مراجعتها على رغم ما

---

(١) راجع في بيان عقيدة الصلب ما ذكره في المنار ٦: ٢٤ ـ ٢٥.

(٢) راجع المصدر السابق: ٣١ ـ ٣٣ ونقل عنه النجار في قصصه: ٤٧٩ ـ ٥٨٠.

تشتمل عليه من أخلاق ومعارف إلهيّة ومواعظ راقية، بحيث يمكن أن نقول: إنّها خليط من الموروث الأخلاقي والسلوكي لعيسى عليه السلام، والقصص والاشاعات وما كان يتداوله الناس عن حياته، وما أُضيف إلى ذلك من أفكار وبدع وعقائد على يد الرهبان والكهنة والدعاة إلى المسيحية في العصور المتأخّرة حتى استقر الأمر على هذه الأناجيل الأربعة المعروفة.

وهذا الموضوع وإن كان من الأبحاث المهمة التي تداولها الباحثون الاوروبيون من أصل مسيحي، والباحثون المسلمون منذ القرن الثاني الإسلامي وحتى يومنا الحاضر. واُلّفت فيه الرسائل والكتب[1]، ولكن هنا نشير إلى بعض الأدلة المهمة الواضحة:

الأول: هو الاختلاف الواضح بين هذه الأناجيل في المعلومات والعقائد والأفكار، فإذا كانت وحياً أو إلهاماً إلهياً فلا يصح فيها الاختلاف ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾[2].

الثاني: هو وجود الأناجيل العديدة تاريخياً غير الأناجيل الأربعة المعروفة

---

(١) من أوائل النصوص المدونة في هذا المجال الاحتجاج المعروف للامام الرضا عليه السلام الذي رواه الصدوق في عيون أخبار الرضا، ورواه الطبرسي في الاحتجاج. كما أنّ من جملة الكتب التي اُلّفت في هذا المجال كتاب (إظهار الحق) للشيخ رحمة الله الهندي، وكتاب الهدىٰ إلى دين المصطفى للعلّامة الشيخ محمّد جواد البلاغي، وبحث السيد رشيد رضا في تفسير المنار ٦: ٣٦، وبحث النجار في قصص القرآن، وبحث قصّة الحضارة في وجود المسيح ١١: ٢٠٢ ـ ٢٠٦ وما بعدها عليه السلام.

(٢) النساء: ٨٢.

فعلاً، والتي تمّ اتلافها من قبل المجامع الكنيسية أو القياصرة الحاكمين، وهذا ممّا يجمع عليه المؤرخون حتى المسيحيّون منهم، ووجود نموذج لذلك، وهو: انجيل برنابا، وهو يختلف في قضايا مهمة وأساسية مع الأناجيل الموجودة، منها قضية التثليث والصلب.

الثالث: أنّ هذه الأناجيل قد تمّ كتابتها في عصر متأخّر عن المسيح عليه السلام بمقدار لا يقلّ عن سبعين عاماً، ويكاد يجمع المؤرخون على ذلك، الأمر الذي يسقطها عن التواتر والوثوق.

الرابع: وجود عقائد باطلة في هذه الأناجيل لا يقبلها العقل ولا الفطرة السليمة، مثل: عقيدة التثليث، وتأليه عيسى عليه السلام، وعقيدة الصلب والفداء، كما أنكره القرآن الكريم عليهم أيضاً.

الخامس: هو اختلاف هذه الأناجيل في تفاصيل عديدة مع القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا الدليل يصلح دليلاً للمسلمين.

ملاحظات عامّة حول قصّة عيسى عليه السلام

في نهاية المطاف يحسن بنا أن نسجّل بعض الملاحظات العامة حول قصّة عيسى عليه السلام.

الملاحظة الأُولى ـ الهدف:

إنّ قصّة عيسى عليه السلام شأنها شأن بقية قصص الأنبياء في القرآن الكريم، لها أهداف متعدّدة، ولكن بعض هذه الأهداف يأتي في سياق أهداف تشترك بقصص الأنبياء وبعضها الآخر أهداف رئيسة تكاد أن تكون مختصة بالقصّة ذاتها، وقد أشرنا إلى بعض هذه الأهداف عند الحديث عن أنبياء أُولي العزم.

وهنا يمكن أن نؤكّد وجود عدّة أهداف تكاد أن تكون أهدافاً مركزية لقصّة عيسى عليه السلام في القرآن الكريم.

الأول: مناقشة وإبطال عقيدة النصارى في إلوهية المسيح وعقيدة الصلب، فإنّ النصارى يعتقدون أنّ المسيح هو الله أو ابنه، وأنّه ثالث ثلاثة، كما يفسّرون الصلب بالفداء عن الخطيئة كما ذكرنا، وقد قدّم القرآن التفسير المنطقي لولادة المسيح وأنّ مثله كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له كن فيكون. وكذلك أكّد وفاته ورفعه، وهذا الهدف يقصد به النصارى من الناس بشكل خاص؛ وذلك لأنّ ولادة عيسى عليه السلام من غير أبٍ هي من القصص الذي لا يؤمن بها إلّا النصارى من الناس في ذلك الوقت، وآمن بها المسلمون لتأكيد القرآن لها؛ لأنّ اليهود وغيرهم من الأُمم لا يقرّون ـ بصورة عامة ـ بوجود المسيح تاريخياً، ومن أقرّ منهم بالمسيح فهو يتهم مريم عليها السلام في ولادته، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك.

وهذا هو الهدف الرئيس للقصّة ولا سيّما في سورة آل عمران ومريم والنساء والمائدة.

الثاني: بيان انتصار الرسالة الإلهية في النهاية عندما تتوفر عناصر: الإخلاص في العمل، والصبر، والجهد، والتضحية، ولو كان ذلك النصر بعد حين من الزمن وانتقال صاحب الرسالة إلى الله تعالى.

وهذا هو الهدف الرئيس للقصّة في سورة (الصف)، وهو ما يفهم منها كهدف ثانوي في سورة آل عمران (الآيات ٥٤ ـ ٥٧).

وهذا الهدف وإن كان من الأهداف القرآنية المشتركة، ولكن تحقّق الانتصار بعد انتقال صاحب الرسالة إلى الله تعالى الذي قد يقترن عادة باليأس من النصر بعد وقوع حادثة الصلب المؤلمة، فإنّ ذلك من خصائص قصّة عيسى عليه السلام.

وفي التاريخ الإسلامي نجد مثيلاً لذلك النصر الذي حقّقه الإمام الحسين عليه السلام في معركته مع يزيد؛ إذ كان ذلك النصر بعد شهادته المروعة.

وهذا الهدف يرتبط بسنن التاريخ وحركته.

الثالث: تفسير ظاهرة تاريخية دينية قد تثير تساؤلات واستغراب في تحولات التاريخ، وهي: ظاهرة أن يأتي النبيّ قومه الأقربين بما يصلح مجتمعهم وحياتهم، ويقيم الحجّة على ذلك بالأدلّة والبراهين والمعاجز العديدة، ثم يواجه الجحود والرفض من قبل قومه وشعبه وعشيرته، وهذا ما حدث للرسالة الإسلامية. فكانت قصّة عيسى عليه السلام مثلاً لهذه الظاهرة التاريخية التي يقترن فيها الجحود بكل عوامل وعناصر اليقين ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ...﴾[1].

---

(١) النمل: ١٤.

وقصّة موسى عليه السلام وإن كانت تشبه في جانب منها قصّة عيسى عليه السلام؛ لكثرة الآيات والمعاجز والأدلة، إلّا أنّ الرفض العام كان من فرعون وقومه الذين يمثلون قوماً وشعباً آخر لا ينتمي إليه موسى عليه السلام، وهذا بخلاف قصّة عيسى عليه السلام التي هي أوضح في بيان هذه الحقيقة لانتماء عيسى إلى بني إسرائيل.

وهذا هو هدف الإشارة إلى القصّة في سورة (الزخرف) حسب الظاهر، والله أعلم: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾[1].

كما أنّ هذا هو الهدف الثانوي للإشارة إلى القصّة في سورة (الصف):

﴿ ... فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾[2].

الملاحظة الثانية ـ النتائج والآثار:

لقد ذكرنا في القصّة أنّ عيسى عليه السلام لم يحصل في دعوته للإسرائيليين إلّا التكذيب، باستثناء استجابة الحواريين لدعوته ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ

---

(١) الزخرف: ٥٧ ـ ٥٨.

(٢) الصف: ٦. ذكر السيد قطب في تفسيره (في ظلال القرآن) هدفاً رابعاً، خلاصته: أنّ قصّة عيسى عليه السلام تمثل قصّة ولادة فريدة في تاريخ الإنسانية، تصور للإنسان كيفية الخلق الأوّل له. والإنسان لم يشهد هذا الخلق الأوّل فتكون ولادة عيسى بهذا الشكل شاهداً آخر على هذه الحقيقة. ولكن ولادة عيسى وإن كانت فريدة في التاريخ، وهي شاهد على حقيقة خلق الإنسان إلّا أنّ خلقه لم يتم كخلق آدم الذي خلقه الله من تراب وبدون أب وأم، كما أنّ نفس الولادة لها هذا المدلول. وأمّا القصّة فهي إنّما تذكر بهذه الولادة، فلا يكون لها دور أكثر من قصّة آدم نفسه، وإخبار الله عن خلق الإنسان من صلصال من حمإٍ مسنون.

مَنْ أَنْصَارِي إلى اللَّه ... ﴾[1] ﴿... فلمّا جَآءَهُمْ بِالبَيِّنَاتِ قَالُوا هٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾[2].

فهل توقفت الدعوة عند هذا الحد، أو كان لها نتائج وآثار في الإسرائيليين وفي التاريخ الإنساني؟

وهنا يمكن أن نلاحظ مجموعة من الآثار والنتائج المهمة على مستوى الدعوة والرسالة:

الأول: انتشار الدعوة والرسالة، وخروجها من الإطار الضيق للإسرائيليين إلى القاعدة العريضة للدعوة، وهم عامة الناس، كما ذكرنا في المرحلة الثالثة.

وقد كان ذلك بسبب التربية الجيّدة، والتنظيم القوي، والروح المعنوية العالية التي أوجدها عيسى عليه السلام في الحواريين. وكذلك تهيئة الارضية القوية للقبول التي كانت نتيجة للجهود الكبيرة التي بذلها الرسول عيسى بن مريم عليه السلام؛ إذ أدّت إلى هزيمة الإسرائيليين المنحرفين أمامه، فتآمروا عليه.

ويمكن أن نجد مؤشراً واضحاً على هذه الحقيقة من خلال ما نجده في الأناجيل المتوارثة: من مضامين عالية، وأخلاق ربانية راقية، ومواعظ وحكمة، حيث اختلط ما تبقّ من هذا التراث الإلهي مع التحريفات والأخطاء والاشتباهات البشرية التي أضيف إليه.

وإلى هذا التراث الإلهي يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ

(١) آل عمران: ٥٢.

(٢) الصف: ٦.

أرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾[١].

الثاني: إيجاد تحول في الوضع النفسي والروحي والمشاعري، ومن الرقّة في القلب والرأفة والرحمة، وخلق التسامح والتواضع لدى الأُمّة الجديدة ـ بالرغم من وجود الانحرافات بين أبنائها ـ؛ إذ يشير القرآن إلى وجود الفرق في هذا الجانب بين هذه الأُمّة عن الأمة الإسرائيلية عندما يقارن بين علاقتهم مع المؤمنين وعلاقة اليهود منهم مع المؤمنين:

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾[٢].

ويبدو هذا واضحاً عندما نقارن هذا الوصف بما وصف به القرآن الكريم الإسرائيليين: من قسوة القلب، والاستكبار، والجحود، وقتل الأنبياء، وغير ذلك من الصفات التي تقدّم الحديث عنها في وصف قوم عيسى عليه السلام.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ ﴾[٣].

---

(١) المائدة: ٦٦.

(٢) المائدة: ٨٢ ـ ٨٣.

(٣) البقرة: ٨٧ ـ ٨٨.

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(١).

الثالث: وجود خط الترهب في السلوك، والزهد في الدنيا وشهواتها، والانعزال عنها. وهذا الخط السلوكي وإن اتّسم بالمغالاة في التطبيق والابتعاد عن أهدافه الصحيحة، إلّا أنّ له أصل في الشريعة الجديدة، ويعبّر عن استجابة لنداء عيسى عليه السلام في التخلي عمّا كان عليه الأحبار والكهنة من الإسرائيليين: من حب الدنيا، وجمع الأموال، والحرص على الحياة والمتاع، بل قد يكون الغلوّ في هذه الرهبانية كان نتيجة لرد الفعل السلبي على الخلق الإسرائيلي.

ولعلّ بيان هذه الحقيقة هو الهدف من آية سورة (الحديد) التي تناولت قصّة عيسى عليه السلام، كما أشرنا إليها في المرحلة الرابعة: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾(٢).

وبالمقارنة مع هذا المنهج السلوكي يتحدّث القرآن الكريم عن اليهود وبني إسرائيل بقوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾(٣).

---

(١) البقرة: ٧٤.

(٢) الحديد: ٢٧.

(٣) البقرة: ٩٦.

وبهذا التطوّر الكبير والنتائج المهمة أمكن لهذه الأُمّة الجديدة أن تحقّق الانتشار الواسع، والغلبة على الكافرين من بني إسرائيل حتى أصبحوا فوقهم إلى يوم القيامة.

﴿... وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ...﴾[1].

الملاحظة الثالثة ـ الحياة الشخصية والعامة لعيسى عليه السلام :

يلاحظ أنّ القرآن الكريم لم يتناول من الحياة الشخصية لعيسى عليه السلام إلّا قضية الولادة والإعداد لها، كما لم يتحدّث عن حياته أيضاً، وبدأ بنبوته وأعماله ونشاطه وحركته إلّا بقدر محدود جداً. وهذا على خلاف ما تحدّث القرآن الكريم عن موسى عليه السلام وحتى إبراهيم.

والأناجيل التي أرّخت للمسيح عليه السلام وفصّلت في الحديث عنه أهملت فترات مهمة من حياته الشخصية، فمن سن الثانية عشرة ـ وكان المسيح قد تحدّث للناس والكهنة وأعجبوا به ـ إلى سن السابعة والعشرين لم تذكر له الأناجيل شيئاً من النشاط والعمل[2].

فهل كان هذا السكوت من القرآن الكريم بسبب عدم أهمية الأحداث التي وقعت لعيسى عليه السلام، كما قد يُفهم ذلك من سكوت الإنجيل عن المدّة السابقة، والأناجيل هي كتاب سيرة عيسى عليه السلام. أو أنّ هذا السكوت القرآني إنّما هو بسبب أنّ الهدف من القصّة كان محصوراً بالأهداف السابقة التي كان يمكن تحقيقها بهذا

---

(١) آل عمران : ٥٥.

(٢) البحار، قصص الأنبياء : ٥٢٠.

القدر من الحديث، وما عدا ذلك فهو ليس من مهمات القرآن ولا أهدافه؛ لأنّه ليس كتاب تاريخ وسيرة، بل هو كتاب هداية وموعظة. ولا يبعد أن يكون الصحيح هو الثاني، والله أعلم.

الملاحظة الرابعة ـ الحوار مع الاسرائيليين:

لا يحدّثنا القرآن الكريم عن حوار المسيح عليه السلام مع قومه الإسرائيليين، ولا يذكر تفاصيل الانحرافات التي كان يؤاخذها عيسى عليه السلام عليهم أو ينقدهم فيها، ولا الحجج والبراهين التي كان يلقيها عليهم غير المعاجز المذكورة في القرآن، كما أنّ القرآن لا يتحدّث ـ أيضاً ـ عن تفاصيل مقولات الإسرائيليين في عيسى عليه السلام إلّا بمقدار ﴿قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، أو بهتانهم لمريم عليها السلام وادّعائهم قتل المسيح وصلبه، وهي أُمور محدودة.

ويكاد تتميّز قصّة عيسى عليه السلام من بقية قصص أُولي العزم بهذه الخصوصية؛ إذ فصّل القرآن نسبياً في الأنبياء: نوح، وإبراهيم، وموسى عليهم السلام ما لم يفصّله في عيسى عليه السلام.

ولعلّ السبب في ذلك ـ مضافاً إلى ما ذكرناه في الملاحظة الثالثة ـ أنّ القرآن الكريم اعتمد في هذا الأمر على ما تحدّث به عن الإسرائيليين في مواضع عديدة؛ إذ تناول صفات انحرافهم والكثير من مقولاتهم ومدعياتهم، كما أشرنا إلى ذلك عند الحديث عن قوم عيسى عليه السلام، وكان حوار القرآن والنبي معهم بهذا الشأن مغنياً عن الإشارة إلى الحوار، أو الحجج التي كان قد استخدمها عيسى عليه السلام معهم.

وبهذا القدر من الحديث عن قصص الأنبياء نختم حديثنا في هذا الموضوع. نسأله تعالى القبول، وأن يكون موضع فائدة ونفع للدارسين والمطالعين، والتوفيق

للفقه والتدبر والموعظة والتذكر.

كما نسأله تعالى أن يغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ﴿... رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

الفهرس

القسم الأوّل
القصة في القرآن الكريم

الفصل الأوّل : خصائص القصص القرآني ١٩
القِصّة القرآنية والهدف العام من نزول القرآن ٢١
الخصائص الأساسية للقصّة في القرآن ٢٣
الفصل الثاني : أغراض القصّة في القرآن ٣١
الأغراض الرسالية ٣٣
الأغراض التربوية ٤٦
الأغراض الاجتماعية والتاريخية ٤٧
الفصل الثالث : ظواهر عامة في القصّة القرآنية ٥٧
تكرار القِصّة في القرآن ٥٩
اختصاص القِصّة بأنبياء الشرق الأوسط ٦٣
تأكيد قِصّة إبراهيم وموسى عليهما السلام ٦٧
أُسلوب القِصّة ٧٤

الفصل الرابع : منهج تحليلي في دراسة القصّة القرآنية ٧٧
الفصل الخامس : قصّة آدم عليه السلام ١١٥
الحكمة في استخلاف آدم ١١٩
مسيرة الاستخلاف ١٣٩

القسم الثاني
أنبياء أُولي العزم الأربعة

الفصل الأوّل : قصّة نوح عليه السلام في القرآن ١٥٥
قوم نوح ١٥٨
شخصية نوح ١٥٩
حياة نوح ١٦٢
ملاحظات عامّة ١٧١
الفصل الثاني : قصّة إبراهيم عليه السلام في القرآن ١٧٥
قوم إبراهيم ١٧٨
شخصية إبراهيم ١٨٢
حياة إبراهيم ١٩٤
الفصل الثالث : قصة موسى عليه السلام في القرآن ٢٣٣
الفصل الرابع : قصّة عيسى عليه السلام في القرآن ٢٦٧
قوم عيسى ٢٧١
شخصية عيسى ٢٨٣
حياة عيسى ٢٩٣
ملاحظات عامّة حول قصة عيسى ٣٥٠

الشهيد آية الله السيد محمد باقر الحكيم (قدس سره)

كان مظهراً يجسّد الأهداف الحقّة لشعب كان يرى دينه واستقلاله ومستقبل بلده عرضة للتهديد، و يتصرّف الأجنبي بوطنه و هو يريد الدفاع عن هويته الدينية والوطنية امام المحتلين الأجانب.

من رسالة قائد الثورة الاسلامية آية الله العظمى
السيد علي الخامنئي (دام ظله)
بمناسبة شهادة آية الله السيد محمد باقر الحكيم

المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام
www.ahl-ul-bayt.org
ISBN: 964-8686-12-0